قصص نبوية

بأسلوب تربوي جديد

د. شيرين لبيب خورشيد

الألوكة
www.alukah.net

قصص نبوية
بأسلوب تربوي جديد

الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الألوكة
www.alukah.net

قصص نبوية
بأسلوب تربوي جديد

إعداد وتحقيق
د. شيرين لبيب خورشيد

مراجعة لغوية
أ. هيام كامل عيتاني خشوف

مراجعة تربوية
دكتور خالد الصمدي الأستاذة عبلة بساط جمعة
الأستاذة ريما محمد الغزال

مراجعة شرعية
دكتور صلاح الخالدي

الألوكة
www.alukah.net

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

الألوكة
www.alukah.net

تقديم

بقلم: د. يوسف المرعشلي

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه المُبين:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣]. وأفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، حبيب رب العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي جعله الله أُسْوَةً حسنة، وقُدْوَةً صالحة للمؤمنين، وعلى آله وأصحابه الغُرّ الميامين، والأبطال المُبرَّزين، الذين صدقُّوا رسول اللَّهِ ﷺ، وآمنوا به، وآوَوْهُ ونصروه، ونشروا دينه، ومَن تَبِعَهُم بإحسان إلى يوم الدين، **وبعد:**

فإنّ الطفلَ المسلمَ اليوم، يتعرَّض لتوجيه مُنْحَرِفٍ في بيئَتِهِ ومُجتمعه، فوسائلُ الإعلام تَبُثُّ السُّمومَ والانحرافاتِ الخُلُقية، ورُفقاءُ السوء مِن حَوْلِه يُؤثِّرون في سلوكه وتصرّفاته وأفكاره، ومناهجُ التَّعليم بَعيدةٌ كلّ البعد عن تعاليم ربّنا سبحانه وتعالى، ودِينِهِ الحنيف، وصِراطِه المستقيم، وهو يتلقّى تربية خاطئة وتوجيهاً منحرفاً.

من هنا كان لزاماً على كل مسلم غيور من أهل التربية والتعليم، أن يُولي اهتمامَه لأطفال المسلمين، فيُنْقِذَهم من سُبُل الغِواية والضلالة، بنشر الخير والفضيلة بينهم، والمبادئ القويمة، والأخلاق المستحسنة؛ لينشؤوا

الألوكة
www.alukah.net

على الإيمان والتقوى، فهم جيل المستقبل، وإذا أهملناهم اليوم ضاعوا غداً، وتلقّفتهم أيدي شياطين الجن والإنس، وأصبحوا أعداءً لدينهم وأُمّتهم.

وليس أَوْقَعُ في نفس الطفل من القَصَصِ، فهو أسلوب مُحَبَّب إليه، يسترعي انتباهه، وقد أورد اللَّهُ تعالى في القرآن الكريم قَصَصَ كثيرٍ من الأنبياء، غنيّة بالعِبَر والدروس التربوية والإيمانية، بعيدة عن الوهم والخيال والخرافة، تصلح لتربية أبناء المسلمين التربية الصالحة النافعة، على الإيمان والأخلاق القويمة، فقامت الأخت الدكتورة شيرين خورشيد بصياغتها بأسلوب مُبَسَّطٍ مُحبَّبٍ للنَّشْئ الصغير، معتمدة في أخذ أحداثها على كتب التفسير الموثوقة، واجتناب الإسرائيليات، فجاءت حَسَنة بأسلوبها، موثّقة بمعلوماتها، فجزاها اللَّهُ خير الجزاء، وأثابَها على ما قدَّمته لأطفال المسلمين من خير عميم، والله من وراء القصد.

والحمدُ لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد مُعلِّم الخير.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

تقديم

بقلم د. صلاح عبدالفتاح الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله العليم الحكيم يعلم أهمية القصص في حياة الناس، وفي ترسيخ القيم والفضائل فيهم، وفي تقديم العلم والمعرفة إليهم، وفي تربيتهم وتوجيههم وتهذيبهم وتقويمهم، وفي عبادتهم وطاعتهم.

ولذلك أورد كثيراً من القصص الهادف في القرآن، وشغل ذلك القصص مكاناً واسعاً فيه، وكان من أهم مضامين وموضوعات الآيات الكريمات.

والقصص في القرآن قصص هادف، يراد منه تحقيق غايات سامية،

الألوكة
www.alukah.net

وأهداف عالية، وقدم القرآن من خلال قصصه ما يريد تقديمه من المعاني والعلوم والحقائق والمبادئ، والتوجيهات والدلالات.

وكانت القصص المذكورة في القرآن ميداناً واسعاً للدارسين والباحثين، والمفسرين والمحللين، حيث أقبل كثيرون على تلك القصص ونظروا فيها، وفسروها وحللوها، وعرضوها واستنبطوا منها..

وصدرت كتب كثيرة حول القصص القرآني، وكان أكثر تلك الكتب في هذا العصر، الذي شهد إقبالاً خاصاً من الباحثين والمؤلفين على القرآن وقصصه، وصدرت عشرات الكتب الخاصة بالقصص القرآني، وتعددت المناهج، واختلفت الأسس، وتنوعت الاجتهادات، وكثرت التحليلات.. واتسعت الساحة العلمية لكل تلك الكتب والمؤلفات. وفيها من الخير والنفع ما فيها، و«لكل وجهة هو موليها»، وأصحابها مأجورون عند الله، إن شاء الله..

وهذه السلسلة التي نقدم لها ليست العمل الأول المتعلق بالقصص القرآني، ولن تكون الأخير، فقد سبقه كتب عديدة، اجتهد فيها أصحابها، وقدموا ما فيه الخير والنفع والفائدة، وستأتي كتب أخرى في المستقبل، تبحث وتحلل، وتدرس وتوجه، وتشير وتستنبط، وسيبقى القرآن مفتوحاً أمام الناظرين والمحللين، وستبقى قصصه مادة ثرية غنية، يقبل عليها كل ذي تخصص، ويجد فيها ما يريد وهذا من مظاهر إعجاز القرآن، الذي لا يشبع منه العلماء والباحثون، على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم..

الجيد في هذه السلسلة القصصية التربوية الهادفة، التي أعدتها الأخت الفاضلة «شيرين خورشيد» أنها سلكت أسلوب «الحوار» العلمي التربوي الهادف، وليس أسلوب السرد الروائي، أو النظر التحليلي، أو التوجيه الاستنباطي.. وقد سبق أن أشرنا إلى تعدد المناهج المفيدة في دراسة القصص القرآني «ولكل وجهةٌ هو مولِّيها...».

الجيد في عمل الأخت خورشيد وهو تقديم هذه السلسلة التربوية من

الألوكة
www.alukah.net

خلال أسرة مسلمة ملتزمة، معلمة ومتعلمة، ومترابطة ومتماسكة. إنها أسرة «أبي أحمد»، التي أرادت الأخت أن تكون نموذجاً للأسرة المسلمة، التي تجلس على مائدة القرآن، وتأخذ منها العلم والمعرفة، والتوجيه والتربية.

أبو أحمد يعمل ويوجه، وأم أحمد تعمل وتعلم وتحلل، والإخوة الثلاثة أحمد وجميل وسامي يسمعون ويتلقون، ويتابعون ويحاورون، ويناقشون ويحللون. يسأل الأبناء بأدب، ويتلقون الجواب من أحد الأبوين، ويتحاور الجميع على مائدة الطعام أو في جلسة الاستراحة، أو يقومون برحلة بعيدة أو قريبة.. وهدف الجميع هو الوقوف مع قصص القرآن متعلمين ومحللين..

بدأنا مع أسرة أبي أحمد في الحلقة الأولى من هذه السلسلة الطيبة، وتابعنا الجلسات العائلية مع هذه الأسرة، وما فيها من حوارات وسؤالات، وجلسنا مع الأسرة بخيالنا وهي تتحاور، وسرنا مع أفرادها وهم يسيرون، وارتحلنا معهم وهم يرتحلون، واستفدنا معهم وهم يستفيدون، وتعلمنا معهم وهم يتعلمون.

والجيد في هذه السلسلة النافعة أنها تعاملت مع القصص القرآني بمنهجية، حيث حرصت الأخت «شيرين» على البقاء مع القرآن الكريم، وهي تتحدث عن قصصه، ولم تخرج إلا إلى أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة، والجيد في عملها أنها لم تذكر شيئاً من الإسرائيليات والأخبار غير الصحيحة، وهي التي لا دليل عليها من القرآن والحديث الصحيح.

وحرصت الأخت في ما سجلتهم من حوارات أفراد الأسرة على التركيز على الأبعاد العلمية والتربوية، والإيحاء لقراء هذه السلسلة بأن يكونوا كأسرة أبي أحمد، بما فيها من معلمين ومتعلمين..

ولقد أكرمتني الأخت الفاضلة «شيرين خورشيد» مرتين: مرة عندما

الألوكة
www.alukah.net

عرضت عليّ هذه السلسلة قبل نشرها، فقرأتها واستفدت منها. ومرة أخرى عندما طلبت مني التقديم لها، فجزاها الله خيراً.

ونسأل الله لهذا العمل القبول، وللأختين الأجر والثواب، وللقراء الفائدة والمعرفة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الاثنين ١٠ محرم ١٤٢٨

الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي

الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

د. خالد الصمدي

رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية

والصلاة والسلام الأتمان الأكرمان على خير المخلوقات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين؛ **أما بعد**:

فإن المعرفة الإسلامية بمن الله وفضله تعرف إنتاجاً وانتشاراً غير مسبوق بفعل جهود الأمة الإسلامية في التعريف بتراثها وتاريخها بشتى الوسائل والطرق الحديثة، وكانت العناية بالقرآن الكريم والسنة المطهرة قراءة وفهماً واستلهاماً وترتيلاً على رأس هذا المنتوج الضخم، ذلك لأن الوحي يعتبر البوصلة الموجهة لكل تفكير إسلامي ينشد التعرف على الكون وخالقه وسنن تدبيره وتسييره واستشراف آفاقه ومعرفة مصيره، والوصول من خلال كل ذلك إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، فتلك الغاية الكبرى لكل علم، والعلم الذي لا يوصل إلى الله علم أبتر.

وهذه الرؤية الكونية للمعرفة الإسلامية ليست من خواص البحث الأكاديمي كما قد يعتقد البعض، ولكنها شعور وإحساس وإيمان يربى في النفوس منذ أن يثغر الأطفال فنعلمهم لا إلٰه إلا الله، وحياة يحياها الإنسان ويعيش معها في كل حركاته وسكناته في كل مراحل عمره حين يحدد نيته ومقصده وهدفه في الحياة ووجهته، وغاية على قدر كبير من

الألوكة
www.alukah.net

السمو ينبغي أن يشتغل بها المربون وهم ينقلون إلى الأجيال خلاصة الفكر وعصارة التجربة الإسلامية، وينمون الإحساس بقدرة الله وعظمته في نفوس الناشئة حتى تشب على الطاعة وتنفر من المعصية، وتجدد العزم على أن تمضي في نفس الدرب.

إلا أننا ونحن نتوق إلى منتوج إسلامي ينقل هذه النفحات الربانية إلى الأطفال، من خلال تتبع المنتوج المعرفي الإسلامي بصفة عامة، نلاحظ أن الخطاب الإسلامي الموجه للطفل يكاد يكون ضامرا، والتوجه إليه والاشتغال به والإنتاج فيه لا يعرف الاستمرار والاستقرار، وهذا المنتوج الإسلامي يعاني إلى جانب الصعوبات المادية من مصاعب علمية وتربوية يمكن إجمالها في:

- ⊙ عدم توفق الكثير من المشتغلين بالثقافة الإسلامية الموجهة للطفل في تحويل المادة العلمية الإسلامية إلى مادة تربوية تنقل القيم والمبادئ والأخلاق والمثل العليا إلى الأطفال أكثر مما تنقل إليهم المعلومات.
- ⊙ الإغراق في التاريخ مما يجعل الطفل يعتقد أن الثقافة الإسلامية تحف من الماضي ولا علاقة لها بالواقع ولا بالحاضر.
- ⊙ غياب أساليب التشويق والإثارة التي يميل إليها الطفل عادة في مثل هذا السن، مما يجعله ينتقل إلى البدائل المتاحة أمامه وهي كثيرة ومتعددة.
- ⊙ تقديم الوعيد على الوعد والتحذير على التبشير في عرض المشاهد والقصص والحوادث المتعلقة بالقصص الإسلامي مما يجعل الطفل يشعر بأن الخوف إحساس ملازم للثقافة الإسلامية.
- ⊙ اشتماله على مفاهيم غير مناسبة للطفل باعتبارها مفاهيم مجردة عصي عليه استيعابها وفهمها فبالأحرى تفاعله معها حين لا تقرب إليه بنماذج وأمثلة محسوسة مساعدة على الفهم والإدراك.

كل هذه الملاحظات وغيرها تحول دون تحقيق المقاصد السامية من

الألوكة
www.alukah.net

الكتابات الإسلامية الموجهة للطفل، وتفسح المجال واسعا أمام الأطفال للتوجه إلى المنتوج الغربي الوافد إليه باللغة الأجنبية، أو المترجم إلى العربية بحمولته الثقافية والقيمية، أو يتوجه إلى استهلاك ما يروج في السوق من أدبيات يطغى عليها طابع التجارة والإثارة، والتي لا تنظر إلى الحاجيات الحقيقية للطفل بقدر ما تنظر إلى الربح المادي العاجل. وتعمل على ترسيخ قيم حب الذات وحب السيطرة والعنف والمغامرة والمواقف غير الواقعية وحضور سلطة الخيال، مما يؤثر سلبا على نفسية وعقلية الطفل في ظرفية حرجة تتشكل فيها مفاهيمه وتصوراته وقناعاته عن نفسه وعن محيطه ومجتمعه.

ولا زلنا في العالم الإسلامي نتطلع إلى تراكم التجارب في المنتوج التربوي الإسلامي الموجه للطفل والمناسب لقيم وحضارة مجتمعنا، يتجاوز المعيقات السالفة الذكر، وينافس ما يوجد في الساحة الإعلامية والقافية، وفي هذا السياق اطلعنا على هذه التجربة الغنية التي وصلتنا من لبنان تسعى إلى تحقق ما يصبو إليه الآباء من بديل إسلامي تربوي يقرب المعرفة الإسلامية إلى أبنائهم، وفي نفس الوقت يحترم الأسس العلمية والفنية والتربوية الضرورية في الكتابات الإسلامية الموجهة للأطفال، بعنوان «قصص نبوية» من إنجاز الفاضلة الأستاذة شرين خورشيد.

فقد عشت مع هذه التجربة محاولا أن أتقمص نفسية الطفل المتلقي حتى أحس ببعض الأثر المنتظر أن يحدث لدى الطفل وهو يقرأ قصص الأنبياء، وبعقلية المشتغل بالتربية حتى أحلل أساليب وأدبيات الخطاب الذي تم اعتماده في صياغة هذا العمل وخلاصة ذلك أنني اكتشفت في ثناياه الخصائص الآتية:

- توفق الكاتبة الفاضلة في تحقيق معادلة التاريخ في الواقع، والنجاح في اختبار الحديث عن الماضي في سياق الحاضر من خلال التعامل مع أسرة (أبي أحمد) وهي تعيش لحظات القرن الواحد والعشرين وتتحرك في فضاء تؤسسه التكنولوجيا، وفي الآن نفسه تستلهم القيم

الألوكة
www.alukah.net

والمبادئ والأخلاق من تاريخ سيرة الأنبياء الأصفياء.وهذا الأسلوب الجديد من شأنه أن يجعل الأطفال ينظرون بإيجابية إلى المعرفة الإسلامية لما لها من انعكاسات مباشرة على التطبيق العملي، دون إغراق في التاريخ أو تقديم مثاليات يصعب مجاراتها والاقتداء بها في نظر بعضهم.

- ⊙ الأسلوب القصصي التفاعلي الذي كتب به هذا المنتوج التربوي الجيد من شأنه أن يشد الطفل إلى متابعة القراءة، في عالم يجد فيه الطفل نفسه أمام آلاف الخيارات الإعلامية الجذابة والمغرية من فضائيات وألعاب فيديو رقمية ومواقع إلكترونية على شبكة الانترنيت.
- ⊙ يستحضر المنتوج الأبعاد النفسية والوجدانية والعاطفية للطفل ويستثمرها في تحبيب وتقريب قصص الأنبياء بشكل مبسط ويسير.
- ⊙ يحس الطفل القارئ أن أحداث القصة تساعده بسهولة على اكتشاف حلول لمشاكل فردية أو اجتماعية يعيشها في واقعه وهو ما نسميه بوظيفية القصة، وهو البعد الذي قل ما نجده في الكتابات الموجهة للأطفال.
- ⊙ ينمي هذا المنتوج النفس الحواري والتواصلي داخل الأسرة على أساس القيم الإسلامية وتنتقل معه سلطة الأبوين من الزجر والأمر إلى التوجيه، ويشترك كل أفراد الأسرة في اتخاذ القرار بناء على الحكمة والمشورة والأخلاق العالية التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام بما عرف عنهم من صبر وتحمل وأناة وتبصر.
- ⊙ الحرص على صدق المعرفة الإسلامية المقدمة والتي تعتمد آي القرآن العظيم وما صح من سنة النبي الكريم، دون تحميلهما من المعاني ما يبعد عن القصد ويزيد عن الحد.

تلكم بعض الاستنتاجات التي تجعل هذا العمل بحمد الله متميزاً ورائداً وواعداً، نسأل الله أن يجعل في ميزان حسنات المؤلفين والناشرين، وأن تتلوه أعمال أخرى تربوية لا تقل جودة وفائدة، وبالله والتوفيق.

الألوكة
www.alukah.net

تعريف بالكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد عليه افضل الصلاة وأتم التسليم وعلى بقية الأنبياء والمرسلين، وعلى كل من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين. ومن قصص الأنبياء نقتبس خير الخلق الكريم وأفضل صفات ترضي الله تعالى رب العالمين.

يتناول الكتاب: قصص الأ نبياء من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا عيسى عليه السلام، بأسلوب تربوي جديد، يجذب الأطفال إلى متابعة قصص الأنبياء وأخذ الحكم والعبر منها بطريقة غير مباشرة عبر أسرة مسلمة ملتزمة بمنهج الله تعالى ومطبقة لأحكامه في حياتها اليومية.

هذا الكتاب هو جزء من سلسلة قصصية قائمة على بناء الأطفال على عقيدة صحيحة وغرسها في نفوسهم البريئة. فالقيم والفضائل الاجتماعية قائمة على أسس عقائدية، سليمة.

القصة العاشرة: نبيّا الله إسماعيل ولوط عليهما السلام، القصة الحادية عشرة: أنبيّاء الله إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، والقصة الثانية عشرة: نبيّ الله يوسف عليه السلام، والقصة الثالثة عشرة: نبيّ الله يوسف عليه السلام (في السجن)، والقصة الرابعة عشرة: نبيّ الله يوسف عليه السلام (عزيز مصر).

الألوكة
www.alukah.net

الأهداف من تأليف هذا الكتاب: جعل القارئ يستنتج ويرى أنّ الإسلام دين كامل متكامل يغطي جوانب الحياة الإنسانية كلها. فالدين منهج حياة شاملة في الدنيا والآخرة. وكانت الغاية إعادة الطفل إلى الحياة الشاملة المتكاملة بحسب دين الله ﷻ في الدنيا والآخرة، ومدى صلته بالله ﷻ ليفوز بسعادة الدارين. فمن خلال أسرة إفتراضية هي أسرة أبي أحمد يتعلم الطالب أهمية الأسرة المسلمة الملتزمة بأوامر الله والمطبقة لمنهجه في حياتها اليومية.

الغاية من تأليف هذا الكتاب: نظراً للواقع الذي نعيشه اليوم، وابتعاد النظم التربوية عن الإسلام وتوجهاته، وبعد البحث ومراجعة سيرة رسول الله ﷺ، خاصة في المرحلة الأولى من بِعْثَتِه عليه السلام، ودراسة الفترة التي تلتها في المدينة المنورة، نجد أنه كان لقَصَصِ الأنبياء تأثير كبير في بناء شخصية المسلمين الأوائل، امتد أثر هذه القصص على بناء المدينة الإسلامية، بناء النواة الأولى والأسس الحيوية لمجتمع جديد فتحققت نبوءته عليه السلام حين قال: «**خير الناس قرني، ثمّ الذين يلونَهُمْ**، . . .».

وبعد مراجعة السور المكية، نجد أنّ الله ﷻ قص علينا في القرآن الكريم الكثير من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقد شكّل هذا جزءاً كبيراً من القرآن. وقد كان للقصة الأثر الكبير في عملية التغييرغير المباشر، وإن الشواهد على ذلك كثيرة، إذ أَثَّرت في وجدان الصحابة وفي مواقفهم وفي إيمانهم. لذا ومن خلال تجربتي في تدريس مادة التربية الإسلامية، وجدت شغفا قوياً لدى الطلاب إلى سماع القصة أولاً، قبل اللجوء إلى كتاب التربية الإسلامية بل بدا لي عدم اكتراثهم بالكتاب، وهكذا كانت بداية هذه الفكرة وهي الاتيان بكتاب تربية اسلامية على شكل قصص، غايته ترسيخ عقيدة الطفل المسلم، عبر سلم قيمي نرتقي من خلاله بتربية الطفل بحسب عمره من سن الحادية عشرة إلى الثامنة عشرة، ومقدرته على التلقي والاستفهام وعلى الانتقال من المحسوس إلى المجرد، لغرس العقيدة الصحيحة في نفوس الأطفال، والتأسي برسولنا سيدنا محمد ﷺ في حياته

الألوكة
www.alukah.net

اليومية، وبذلك نرسخ في أذهان وأفكار الأطفال القيم والأخلاق والعقيدة الثابتة إلى يوم القيامة، فننشئ إنساناً مؤمناً بالله، يعبده بإخلاص، ويطبق أحكامه ﷻ، مستقلاً مسؤولاً، صالحاً مصلحاً في مجتمعه.

وكان السلم القيمي كالتالي:

١ ـ توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ قوة الإيمان (والسبب أن قوة الإيمان ركيزة من الركائز المهمة للشخصية المتوازنة).

٣ ـ القدوة الحسنة: من قصص الأنبياء يترسخ في أذهان الطلاب مفهوم القدوة الحسنة وأثرها الطيب في حياه الإنسان.

⊙ الآباء قدوة حسنة.

⊙ الصحبة الصالحة والقدوة الحسنة.

٤ ـ قيمة العمل بجانب أهمية العلم ليعتاد الطفل ممارسة المبادئ والقيم الاجتماعية والأخلاقية والعلمية منذ الصغر.

٥ ـ أهمية الأسرة في نماء الحضارة الإسلامية ويتعرف منها على الزوج الصالح ـ الزوجة الصالحة، الحقوق والواجبات لكل منهما، وتربية الأطفال.

٦ ـ تحقيق الأخوّة الإسلامية وتقوية الروابط بين المسلمين.

٧ ـ أهمية تزكية النفس وتكميلها للوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

٨ ـ بث الروح الاجتماعية وتنميتها لدى الفرد بدءاً من البيت.

الألوكة
www.alukah.net

يحتوي الجزء الثالث على الإيمانيات والقيم التالية لكل قصة:

قصة رقم (١٠): قصة نبيا الله إسماعيل ولوط (عليهما السلام)

قيم وسلوك وأخلاق:	إيمانيات:
١ ـ حديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله...» ٢ ـ حديث: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها**». ٣ ـ عمل المرأة. ٤ ـ احترام ملكية الغير. ٥ ـ احترام الجيران. ٦ ـ طاعة الوالدين. ٧ ـ مواصفات الزوجة الصالحة والزوج الصالح.	١ ـ سؤال سيدنا إبراهيم عليه السلام عن رؤية إحياء الطير. ٢ ـ الدين عند الله الإسلام. ٣ ـ معنى كلمة «أمّة شرح وافٍ». ٤ ـ بناء مسجد الأقصى. ٥ ـ هناك مركزان تربويان: ١ ـ الكعبة. ٢ ـ المسجد الأقصى. ٦ ـ سيدنا إسماعيل عليه السلام. ٧ ـ قصة ماء زمزم. ٨ ـ سكنى قبيلة جرهم وزواج إسماعيل عليه السلام. ٩ ـ قصة سيدنا لوط والفواحش التي فعلها قومه.

قصة رقم (١١): أنبياء الله إسحاق يعقوب ويوسف عليهم السلام

قيم وسلوك وأخلاق:	إيمانيات:
١ ـ دعاء السفر: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون. ٢ ـ استعداد الأولاد لامتحانات آخر العام. ٣ ـ الهدف من سماع قصص الأنبياء معرفة قصص الأنبياء، ولتثبيت التوحيد في القلب والتفكر. ٤ ـ عيادة المريض. ٥ ـ في تربية الأولاد عدم تفضيل ولد على ولد. ٦ ـ تحدثنا عن رؤيا الأنبياء. ٧ ـ تحدثنا عن الحسد مع عدم ذكر معناه.	١ ـ تثبيت قلب النبي ﷺ. ٢ ـ إرسال الأنبياء لتوحيد الله وعبادته. ٣ ـ محاربة الفساد ونشر الصلاح من أجل حفظ الأمة. ٤ ـ حفظ الكون. ٥ ـ ماذا تكون نتيجة العابد الصالح والطالح. ٦ ـ الحديث عن النار لا تحرق والسكين لا تقطع. ٧ ـ العمل بمنهج الله تعالى. ٨ ـ سبب ظهور ثقب في الأوزون. ٩ ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ١٠ ـ لقب إسرائيل. ١١ ـ ذكر في قصة رقم (١٠) خروج بني إسرائيل من مصر على يد سيدنا موسى عليه السلام. ١٢ ـ الحديث عن السور المكية. ١٣ ـ اصطفاء الأنبياء من عند الله.

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٢): سيدنا يوسف عليه السلام عند عزيز مصر

قيم وسلوك وأخلاق:	إيمانيات:
١ ـ حمد الله في السراء والضراء. ٢ ـ أستغفار الله العظيم والتوبة إليه. ٣ ـ عيادة المريض حق من حقوق الناس على بعضهم. ٤ ـ تعلم القرآن وعدم جعل القرآن مهجوراً. ٥ ـ معرفة صفات الرجل الصالح. ٦ ـ بعض صفات البيت الصالح ـ صفات الزوجة الصالحة والزوج الصالح والعشرة بالمعروف ـ المشورة ـ المصارحة ـ معنى القوامة ـ الرجل والمرأة يكمل بعضهما بعضاً. ٧ ـ عدم الانسياق للعادات والتقاليد. ٨ ـ الحديث عن علم العروض.	١ ـ اشتروه بثمن بخس. ٢ ـ علم التخطيط المستقبلي الطويل الأمد. ٣ ـ علم الله الأزلي الذي كتبه في اللوح المحفوظ قبل خلق الأرض بخمسين ألف سنة. ٤ ـ رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. ٥ ـ إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. ٦ ـ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ شرح معناها. ٧ ـ عدم الانسياق وراء الشهوات. ٨ ـ إن الله يفعل ما يشاء ولا راد لحكمة وأنه لا يضيع أجر المحسنين. ٩ ـ قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز.

قصة رقم (١٣): سيدنا يوسف عليه السلام في السجن

قيم وسلوك وأخلاق:	إيمانيات:
١ ـ استقبال الضيوف وتكريمهم. ٢ ـ إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم. ٣ ـ طريقة جديدة لتربية أحمد الذي هو في سن البلوغ٤, ـ كيفية علاقة الرجل مع المرأة في حال الخلافات العائلية وبعض النصائح للعائلة السعيدة. ٥ ـ معنى سد الذرائع. ٦ ـ معنى كلمة الأس، وأهمية اللغة العربية. ٧ ـ أهمية تعلم اللغة العربية لتعلم القرآن الكريم. ٨ ـ حديث سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظلّه.	١ ـ تكملة قصة يوسف مع النسوة اللآتي قطعن أيديهنّ. ٢ ـ يوسف عليه السلام في السجن. ٣ ـ أهمية التوكل على الله. ٤ ـ أهمية الدعاء (دعاء الخروج من المنزل). ٥ ـ أهمية نشر الدعوة إلى الله حتى ولو في السجن. ٦ ـ أهمية البدء في الدعوة إلى الإسلام. ٧ ـ معنى الدين (دين إبراهيم عليه السلام). ٨ ـ اتباع طريقة الحوار والمقارنة والمفاصلة. ٩ ـ تأويل حلم الملك. ١٠ ـ الإعجاز ونبوة يوسف عليه السلام. ١١ ـ ظهور براءة يوسف عليه السلام.

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٤): يوسف عليه السلام عزيز مصر

قيم وسلوك وأخلاق:	إيمانيات:
١ ـ زيارة الرفاق. ٢ ـ أهمية تخصص الاقتصاد. ٣ ـ السفر إلى مصر. ٤ ـ أهمية التخطيط الاقتصادي. ٥ ـ اجعلوا الوتر آخر صلاة بالليل. ٦ ـ عرف الناس المهارات التي تتقنها إذاكانوا لا يعرفونك ولا يعرفون قدراتك. ٧ ـ وصف السفينة. ٨ ـ «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». ٩ ـ الغضب يدمر كل خير عمله المرء.	١ ـ أهمية الصبر. ٢ ـ الخطة الاقتصادية لزراعة القمح. ٣ ـ أهمية العدل الذي أقامه سيدنا يوسف عليه السلام. ٤ ـ لقاء يوسف بإخوته. ٥ ـ قصة سلمان الفارسي (وأن الأنبياء لا يأكلوا الصدقات). ٦ ـ الحديث عن الحسد والعين. ٧ ـ طاعة الوالدين. ٨ ـ الحديث عن الشهب لإعادة ذكرها في قصة سيدنا سليمان عليه السلام. ٩ ـ قصة يوسف ولقائه بأخيه بنيامين. ١٠ ـ معنى الصبر الجميل. ١١ ـ الاحتساب إلى الله والشكوى إلى الله.

الألوكة
www.alukah.net

أسلوب الكتاب

أ ـ اعتُمد سرد القصص عن طريق أسرة مسلمة ملتزمة مؤلفة من والدين: أبي أحمد وأم أحمد، وأحمد وجميل وسامي، تنقل القيم والإيمانيات عن طريق الحوار والمناقشة للعودة إلى الفطرة السليمة ألا وهي التلقي والاستفهام، تنتقل الأسرة بين أماكن عدة لتتعرف من خلالها على البلاد التي سكنها الأنبياء.

وحرصنا من خلال سرد القصص إلى الابتعاد عن الإسرائيليات، واستسقاء مادتنا العلمية فقط من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

ب ـ التركيز على الأهداف المعرفية في نقل المعلومات إلى الطلاب.

تحريك وجدانهم لجعلهم يتقبلون المعلومات في قلوبهم ويتأثرون بها وجدانياً.

ت ـ محاولة نقل هذه المعرفة إلى السلوك اليومي الحي.

أسباب اعتماد القصة كأسلوب تعليمي تربوي هادف:

جاء الأمر صريحا في القرآن الكريم حول أهداف القَصَصْ القرآني ومنها:

أ ـ الهدف الأول: (لعلهم يتفكرون) لشحذ العقول والأفكار.

الألوكة
www.alukah.net

ب ـ الهدف الثاني: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) لتقديم العبر والعظات.

ت ـ الهدف الثالث: (ما نثبت به فؤادك) تثبيت القلوب على الدعوة.

والقصص القرآني يحقق هذه الأهداف الرائعة لكل من سار على طريق رسول الله ﷺ في التربية والدعوة، وفي الإصلاح والجهاد والمواجهة.

ث ـ الهدف الرابع: توثيق المعلومات التاريخية.

ج ـ الهدف الخامس: تقريب المعلومات بشكل موثوق.

ح ـ الهدف السادس: الوصول إلى الاستنتاجات العلمية بشكل غير مباشر وهو الأقرب إلى القبول والحفظ عند الطلاب.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت

القرآن الكريم.

١ ـ **إحياء علوم الدين**، أبو حامد الغزالي، بيروت، دار الأرقم الأرقم، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، خمسة أجزاء.

٢ ـ **البداية والنهاية**، إسماعيل بن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤م.

٣ ـ **الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء**: إبراهيم العلي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤ ـ **التفسير**، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع خاص، القاهرة، ١٩٩١م، ١٦جزء حتى الآن.

٥ ـ **التفسير الكبير** «تفسير الرازي»: محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

٦ ـ **تفسير القرآن العظيم «تفسير ابن كثير»**: إسماعيل بن كثير بن كثير الدمشقي، دار الحديث، القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن** «تفسير القرطبي»: محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، دمشق

٨ ـ **جامع العلوم والحكم**: أبو فرج عبدالرحمٰن (ابن رجب)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، جزءان.

وجميع مراجع الأحاديث النبوية: البخاري ـ ومسلم ـ ابن ماجه والترمذي، والنسائي...

الألوكة
www.alukah.net

ونخبة من مراجع قصص الأنبياء ألفت حديثاً. وغيرهم من المصادر والمراجع.

من راجع القصة وقرّظها:

ولقد قام بمراجعة مخطوطة الكتاب وإبداء الرأي والنصح والتوجيه والمراجعة كلٌّ من :

لبنان : الدكتور يوسف مرعشلي. والأستاذة عبلة بساط جمعة

الأردن: الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي

المغرب: الدكتور خالد الصمدي

وقد أعطى كل واحد منهم تقرّيظاً ومراجعة مع تصويبات، راجية منكم تقبل هذا الكتاب واعتماده ضمن المراجع التربوية في التنشئة الإسلامية الاجتماعية التربوية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، وجزاكم الله خيراً.

د.شيرين لبيب خورشيد

الألوكة
www.alukah.net

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للَّهِ، والصّلاةُ والسَّلامُ على مُحمّدِ بْنِ عبدِاللَّهِ، سيِّدِ المُرْسَلِينَ الذي أُرْسِلَ رَحمَةً للعالَمِينَ، وعلى آله الغُرِّ الميامينَ وأصحابِهِ الكِرامِ أجمعين.

لقد منَّ اللَّهُ علينا بأن أرْسل لنا رسُولاً من أنفُسِنا، يُعلِّمنا الكتاب والحكمة، ويُزكِّينا، ويُخْرجُنا من الظُّلمات إلى النور، مُؤيَّداً بكلامِ اللَّهِ العزيز، الذي تنزَّل عليهِ، مُنجَّماً بحسب الأحداث التي كانت تمُرَّ بالمُسلمين. فها هو في خلال ثلاث عشرة سنةً يتنزْلُ عليه جبريلُ في مكَّة المُكرَّمةِ بأمرين اثنين مُتلازمينِ، ألا وهُما: تَرْسيخُ التّوحيدِ للَّهِ تعالى، وتقويمُ الأخلاقِ، حيثُ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاقِ**»، وذلك بسبب ما تعرَّضتْ لهُ هذه الفترةُ الزَّمنيَّةُ، في البلادِ العربيَّةِ عامَّةً ـ ومكَّةَ المُكرَّمةَ خاصَّةً ـ من عبادةِ الأَوْثانِ، وعِبادةِ الشَّيْطانِ، واتِّباعِ الهوى، وكَثْرَةِ الفواحشِ التي عانى فيها رسُولُ الله ﷺ ما عانى مِن كفّارِ قُريْشٍ.

وقد كان لِرسُولِ الله من القصصِ القُرآنيَّةِ، التي تنزَّلت عليه في تلك الفترةِ، خيرُ مُعِينٍ، لأَنَّها جاءت إخباراً مِنْ ربِّ العالمين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

الألوكة
www.alukah.net

أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

وأَمَرَنا اللَّهُ سُبحانه وتعالى أَنْ نُذكِّر النَّاس بها، لعلَّهم يتفكَّرون ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقدْ رأيْنا، أَنْ نقومَ بتنفيذِ أمْرِ اللَّهِ، وإبْلاغِ النَّشْءِ الجديدِ بِما أَبْلغنا الرَّسولُ الكريمُ به. ولن ندَّعِي زُوراً أَنَّنا الوحيدونَ المُتَّحمِّسُون لِهذا العمل، فقدْ سبقنا إليه كثيرون. ولكن لكُلٍّ منّا غايتُهُ من وراءِ هذهِ القصصِ. أما غايتُنا فهي:

١ ـ إعادةُ شخصِيَّةِ الإنسانِ المُسلم، وتَوَجيهُهُ بالقُدّوةِ الحسنةِ، لِيَكُون مُتميِّزاً في كُلِّ أمورِ حياته ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] مِنْ خِلالِ العَلاقاتِ الأُسَرِيَّةِ والاجتماعِيَّةِ بين شخصيّات هذه القِصصِ.

٢ ـ جميعُ النّاس يُحبُّون القِصصَ ويُقْبِلونَ على سماعِها، فلماذا تكونُ قصصاً خُرافِيَّةً؟ لماذا لا تكونُ واقعيّة مُفيدةً دينياً وأخْلاقِيًّا؟

٣ ـ إعادةُ تنميةِ الفِكْرِ عقديًّا وفِكْريًّا. فقدْ صارَ النَّاسُ في أيّامِنا هذه يتخبَّطونَ في إيْمانهمْ تخبُّطَ الأعمى، وصار الدِّينُ عندهُم مُجرَّدَ دعوى فارِغَة.

٤ ـ ومِن أهمِّ أهدافِنا ترْسيخُ مبدأ البحْثِ والتَّحرِّي والتَّفكيرِ السَّليم، وخُصوصاً في مسائِلِ الدين والإيمانِ، إذ لا يجوزُ الخلطُ فيما بينها وبَيْن الأساطِيرِ والخُرافاتِ، ولا يجوزُ مجرَّدُ اتِّباعِ ما عليه الأَهْلُ ـ الآباءُ والأجدادُ ـ نَفعلُ ما يفعلونَ، ونقولُ ما يقولونَ، لأنَّ هذا ما كان يقولُهُ الكافِرون للأنْبياءِ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾

الألوكة
www.alukah.net

[الأنعام: ١٤٨]. وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ [الأعراف: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿أَنَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

نَدْعو اللَّهَ أنْ يُوفِّقَنا إلى ما يُحِبُّه ويرضاهُ، إنّه هو السَّميعُ العليمُ.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

عزيزي القارئ

نُقدِّمُ إليك هذهِ السِّلسلة الطَّيّبةِ من الأقاصيصِ الدِّينيَّةِ التي تروي سِيرةَ الأنْبياءِ الكِرام، الذين وردَ ذِكْرُهم في القُرآنِ الكريم، والمطلوبِ منّا الإيمانُ بهم؛ لأنَّ معْرفتهُم هي فَرْضُ عينٍ على كُلِّ مُسْلِمٍ، ومَنْ يُنْكرهُم أوْ يُنكِر أحدهُم فقد كفر، لأنَّهم من ضمن المعْلوم من الدِّينِ بالضَّرُورةِ، وعدمُ الإيمانِ بهم يُخِلُّ بشرْطٍ مُهمٍّ من شُروط الإسلام الحقِّ.

وسوْفَ نتَّبعُ منْهجيَّةً علميّةً في كُلِّ ما نكتُبُ ونُقرِّرُ، وهذه المَنْهجِيَّةُ مُسْتمِّدَةٌ من كتاب اللَّهِ وسُنَّةِ رسُولِهِ ﷺ، وسَنَسْكُتُ عمَّا سكتا عنه، فَنَبْتعِدُ عنِ الخُرافاتِ والإسرائيليَّات التي تَخَلَّلتْ مفاهيمنا الدِّينيَّة، ويا لَلأسفِ! حتَّى وإنْ كان لها أصلٌ في كُتُبِ غَيْرِ المُسلمينَ، لأنَّنا مُكلَّفونَ بالتعبُّدِ لله بما أنزلَهُ في كتابِهِ لسيِّدنا محمد ﷺ.

رَجاؤنا أنْ يُعينَنا اللَّهُ على ما كلَّفْنا أنفُسَنا القِيامَ به، وأَنْ نجدَ مِنْكُمْ تَجاوباً مع هذهِ المنْهَجِيَّةِ، فتَتَّبعوها في جَميعِ أحوالِكُم، فتتفكَّروا وتُعمِلوا أذهانكُمْ في أُمورِ دِينكِم، ولا تكتَفُوا بما تَسْمَعونَهُ مِن آبائِكم ومَنْ تتوهَّمونَ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُم، لأَنَّ اللَّهَ سُبحانهُ وتعالى مدحَ المُتفكِّريْنَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

تمهيد
قرائي الأفاضل

كثيرة هي الكتب التي تزخر بأقاصيص الأنبياء مع أقوامهم ولكنها كلها تتبع طريقة السَّرد التقليدية. لذا رأيت أن أقدمها لكم بطريقة مختلفة تتبع أسلوب الحوار التربوي الذي يدخل في نفوس الأبناء ـ المقصودين الأساسيين لنا ـ فنعلمهم ونُربيهم بطريقة سهلة بسيطة، لذا لم نتطرق إلى الجمل الصعبة التي تحتاج إلى كثير تفكير.

ولايصال فكرتنا بشكل سريع رأينا من الصواب أن نترافق مع أسرة أبي أحمد المؤلفة من:

- «أبي أحمد».
- «أم أحمد».
- «أحمد» البالغ من العمر في هذه المرحلة، أربع عشرة سنة.
- «جميل» البالغ من العمر إثنتي عشرة سنة.
- «سامي» البالغ من العمر ثمان سنوات.

والله وليُّ التوفيق

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٠)
نبيّا اللَّهِ إسماعيلُ ولوطٌ عليهما السلام

استيقظ الأولادُ مِنْ نَوْمِهِم مُتأخِّرينَ، وما كانوا لَيَنْهَضُوا لَوْلا أَنَّ أَشِعَّةَ الشَّمسِ أزعَجَتْهم، فَقَدْ كانوا يُحِسّون بألَم، في جَميع أَجْسادِهِم، ولم يَعْرِفوا لماذا. أُمُّهم أَيْضاً كانَتْ تشعُرُ بالألَم وكذلكَ أبوهم، إلا أنّهما ٱستَيْقظا باكراً. ولمّا ٱقْتَربا مِنْ أَبنائِهما أحَسّا أَنَّهُمْ مرْضى، فَحَرارَتُهُمْ مرتفعةٌ. وهذا طبيعِيٌّ، فَقَدْ تأثَّروا بِتَغَيُّرِ الطَّقْسِ. طلبَتْ أمُّ أحمدَ مِنْ زَوْجِها أَنْ يَتَحاملَ على نفسِهِ، ويذهبَ إلى أقربِ مكانٍ تُباعُ فيه الخُضارُ، ويشتريَ بعضَ اللَّيْمونِ الحامِضِ لِتَصْنَعَ مِنْهُ شراباً، فَهُوَ أفضلُ دواءٍ طبيعيٍّ لهذِهِ الحالةِ.

ولما ٱسْتفاقَ الأولادُ وجدُوا أمَّهم تَحْمِلُ أكوابَ شراب الليمون مُرْفَقَةً ببعضِ الدواءِ المُسكِّنِ الذي أحضَروه مَعَهُمْ. شَرِبوا جَميعاً العصيرَ والدَّواءَ وعادُوا إلى الِٱسْتِلْقاءِ، فَلَمْ يَقْدِروا على البَقاءِ جالسينَ. بَعد مُدَّةٍ قصيرة خفَّ الأَلمُ فَنَهَضُوا، وَأَرادُوا الخُروجَ مِنَ الخَيْمةِ، إلّا أنَّ الوالدَينِ أَمَراهُم بالبَقاءِ داخِلَها حتى لا يَتَضاعفَ المَرضُ، فهم لم يُشْفَوا بَعدُ، ولكنْ فقطْ لا يُحِسُّونَ بالألمِ.

ٱضْطُرّ الأَولادُ مُرْغمينَ أنْ يتحمَّلوا الحَبْسَ داخِلَ (الخيمةِ)، ولكنَّهُمْ ما لَبِثُوا أَنْ أَظْهرُوا تَبَرُّمَهُم وَٱنْزِعاجَهُم مِنَ المَلَلِ الذي هُم فيهِ، فَلَيْس لَهُمْ

الألوكة
www.alukah.net

عَمَلٌ يقومونَ بِه، ولا يَقدِرونَ على الخُروجِ، فقال أحمدُ لأبيهِ:

أحمد: هل سَنَبْقى مَسجونِين هكذا؟

الأب: هل تضايَقْتَ؟

أحمد: طَبْعاً، أَلَنْ نُتابعَ رِحْلَتَنا؟

الأب: ليْسَ اليَوْمَ ولا غداً، فما زالَ لَدَيْنا وَقتٌ. سنرتاحُ هذينِ اليومينِ حتَّى لا تُؤذيَناالشَّمْسُ أكثَر.

جميل: وَهَلْ هِيَ الّتي آذتْنا؟

الأب: أَجَلْ. فَنَحْنُ غَيْرُ مُعْتادِينَ هذِهِ الحياةَ الكَشْفِيَّةَ، لِذا أُصِبْنا بِما يُسَمَّى الإِجْهادُ الحرارِيُّ.

أحمد: وماذا سَنَفْعَلُ هنا؟ نَحْنُ أَيْضاً غَيْرُ مُعْتادِينَ الجُلوسَ لِفَتْرَةٍ طَويْلَةٍ بِدونِ أيِّ نَشاطٍ أَوْ بدونِ مُشارَكَةِ الأصدقاءِ، نكادُ نَشْعُرُ بالمَلَلِ.

الأب: نَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِتِلاوَةِ القُرآنِ.

أحمد: هذا أَفْضلُ عَمَلٍ نَقُومُ بِهِ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنا ويُرسِلُ الملائكةَ لِتَحُفَّنا، كما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما اجْتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَيَتَدارَسونَهُ بَيْنَهُم، إلاّ نَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِيْنةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[1].

ـ فَتَحوا المُصْحَفَ الذي أَحْضَروهُ معهم ليقرأوا فيه.

فقال سامي:

ـ هذِه سورةُ الحَجَر. هيّا نَقْرأُها، لَمْ يَسْبِقْ لي أنْ قرأتُها.

---

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم **٢٦٩٩**، كتاب الذكر، باب الاجتماع على تلاوة كتاب الله.

الألوكة
www.alukah.net

ٱرْتَفَعَتِ الِاحْتِجاجاتُ: سُورةُ الحَجَر؟! ليسَ هذا ٱسْمُها. بل هو «الحِجْر».

سامي: وما هو الحِجْر؟

الأم: هو المكانُ الذي كان يعيشُ فيه «ثمودُ» قومُ «صالحٍ» عليه السلام.

أحمد: المكانُ الذي كانوا يعيشونَ فيه؟ أي ما نسّميه مدائنَ صالح؟ ولماذا سُمِّيَتِ السُّورةُ بٱسمِ المَكانِ ولم تُسَمَّ بٱسْمِ النَّبِيِّ الذي كان يَعيشُ فيه كما هي الحال في سورٍ مُتَعدِّدةٍ: «مُحَمَّد»، «إبراهيمُ»، «يُونُس»، «يوسُف».

الأم: سبحان الله! هذا من شَأنِ اللَّهِ؛ لا بدّ وأن يكونَ وراءَ ذلكَ حِكمةٌ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1]، وَهَلْ لَنا أَنْ نَتَدَخَّل في إرادَةِ اللَّهِ؟ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

أحمد: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ العظيمَ، أَعُوذُ بالله! أنا لم أَقصِدْ ذلِك، وَلَكِنْ أَرَدْتُ التَّعرُّفَ إلى الحِكمةِ منه.

الأم: ٱنتَبِهْ «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ ما يَتَبَيَّنُ ما فيها، يَهْوِيْ بها في النّارِ أَبْعَدَ ما بين المَشْرِقِ والمَغْرِب**»[3].

عَلَيْنا الإيْمانُ باليَقِينِ الثَّابِتِ أَنَّ اللَّهَ لا يَفْعَلُ إلّا ما هُوَ خَيْرٌ. ولهذا مَدَحَ اللَّهُ المُؤْمِنِيْنَ حقًّا فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[4].

---

(١) هود: ١٠٧.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري، برقم ٦٤٧٧، ومسلم، برقم ٢٩٨٨.

(٤) الأنفال: ٢ ـ ٤.

الألوكة
www.alukah.net

مَضَتْ ساعتانِ مِنَ الوَقْتِ وَهُمْ يَتْلونَ سُورَةَ الحِجْرِ، وَيُحاوِلونَ ٱسْتِظْهارَ بَعضِ آياتِهَا مُجوّداً.

فجأةَ قالتْ أُمُّ أحمد: يَكفي هذا الآنَ، فَقَدْ ذَكَّرَتْنِي هذِهِ السُّورَةُ بِشَيْءٍ مُهِمٍّ.

جميل: ما هو؟

الأمُّ: هل تَمَعَّنْتُمْ جَيِّداً في هذِهِ السورةِ، وَفَهِمْتُمْ ما جاءَ فيها؟

جميل: نعم! كنا نُنْعِمُ أَنْظارَنا بكل كَلماتِها وآياتها. فماذا تقصدين؟

أحمد: عمَّ تتحدثُ هذهِ السُّورة؟

الأمّ: تَتَحَدَّثُ عَنْ خَلْقِ الإِنْسانِ (آدَمَ)، وَسُجُودِ الملائِكةِ له، وَٱسْتِكْبَارِ إِبْلِيْسَ (كُفْرِهِ) الذي تَسَبَّبَ بِغَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَطَرْدِهِ مِنَ الجَنَّةِ. ثُمَّ تَحَدَّثَتْ عَنْ ضَيْفِ إبْراهيمَ (الملائكةِ)، وَتَبْشِيرِهِمْ إيّاهُ بالغُلامِ العَليم. كذلِكَ تَحَدَّثَتْ عَنْ سَبَبِ مَجِيْئِهِمْ، أَلا وَهُوَ إِرْسالُهُم إلى قومِ لُوْطٍ، وعمّا حَصَلَ في دِيارِ لُوطٍ لَمّا وصلُوا إليهِمْ، وَتَتَكَلَّمُ عَنْ أَصْحابِ الأَيْكَةِ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَعَنْ أَصْحابِ الحِجْرِ قَوْمِ صالِحٍ.

سامي: جميعُ هذهِ القَصَصِ مَوْجودةٌ في هذِهِ السُّوْرة!!

جميل: سبحان الله! وكأنَّنا قَرَأْناها لِنَتَذَكَّرَ ما عَلَّمْتِنا إيّاهُ في القَصَصِ السّابِقَةِ.

الأم: أجلْ هذا صحيحٌ.

أحمد: ما دامَ الأمْرُ كَذَلِكَ، فإنَّ لديَّ بَعضَ الِاسْتفساراتِ الّتي تَشْغَلُ تَفكيري مُنْذُ أمسِ.

الأم: ما هي؟

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: قال سيدُنا إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ. ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، فَهَلْ مِنَ المَعْقولِ أنْ يَشُكَّ سيّدُنا إبراهيمُ في حقيقةِ هذا الأمرِ المَعلومِ مِنَ الدِّينِ بالضرورة؟ وَلَوِ ٱفْتَرَضْنا أَنَّ هذا حَصَل، فما تكونُ النَّتيجَةُ؟

الأب: أوّلاً هذا غَيْرُ مَعْقُولٍ، لأنّ رسولاً كإبراهيمَ رأى ما رأى، وجاهَدَ في سَبيلِ الدَّعوةِ هذا الجهادَ لا يُمكِنُ أن يَشُكَّ حقاً في قُدرةِ اللَّهِ على الإحياءِ بَعْدَ المَوْتِ، وإنما الذي يَكُونُ هو حُبُّ رؤيةِ الأَشياءِ المَعْنَويَّةِ، بِعَيْنِ الحَقيقَةِ المُجَرَّدَةِ كما قُلْنا أَمس. وَلَو ٱفْتَرَضْنا حُصولَ المُسْتَحيلِ لَكان في ذلِكَ حُكْمٌ بالإعْدامِ على كُلِّ ما فَعَلَ، وَتَكْذِيْبٌ صَريحٌ لِكُلِّ ما دعا إليهِ، وَلَصارَ مِنَ الكافِرينَ الّذِينَ حُقَّ عَلَيْهِمُ العَذابُ، وَنَعوذُ باللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَلَكِنْ كانَ طَلَبُهُ مُجردَ زيادَةِ اليَقِينِ، وزيادة طمأنينة القلب، وليس إزالةَ الشكِّ والرَّيْبِ.

الأمُّ: الحَمْدُ للَّهِ الذي ثَبَّتَ نَبِيَّهُ وَخَليلَهُ إبراهِيْمَ على دِيْنِهِ الحَقِّ الحَنيفِ وَأعراهُ بِعَيْنِ اليَقينِ. وَنَدْعوهُ أنْ يُثَبِّتَنا نَحْنُ أَيضاً وَيَفْتَحَ علينا فُتوحَ الراسخين في العِلْم.

جميل: ما دُمْنا قدْ بَدَأْنا الكلامَ على سَيِّدِنا إبْراهيمَ، فَلْنُتابِعْ ما بَدَأْناهُ أَمس. لَدَيَّ سُؤالٌ يُلِحُّ عَلَيَّ! قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[2]. فما هي هَذِهِ الكلماتُ؟

الأبُ: سُؤالٌ وَجِيهٌ وَمُهِمّ.

قد ابتلى أللَّهُ إبراهيمَ عليه السلام بالتكاليفِ الشرعيَّةِ، وما فيها من أوامرَ ونواهٍ وأحكامٍ. وهذا هو المراد بالكلماتِ في الآية.

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) البقرة: ١٢٤.

الألوكة
www.alukah.net

والكلماتُ التي ابتلى اللَّهُ إبراهيمَ بها مُبْهَمَةٌ، غيرُ محدودةٍ ولا مُبَيَّنَةٍ في الآية. كما لم يحددِّها رسولُ الله ﷺ في حديثٍ صحيحٍ مرفوعٍ.

وقد قلنا أن تبقى المبهماتُ في القصَصِ القرآني على إبهامِها. طالما أنها لم تُبَيَّنْ في الآيات والأحاديثِ الصحيحةِ[1].

أحمد: ألهذا سمّاهُ الله أُمَّةً كما قال تعالى في سورة النحل؟ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[2].

الأم: أَثنى اللَّهُ ﷻ في هذه الآياتِ على نَبيِّهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، وَوَصفَهُ بصفاتِ المَدْح.

إنه «أُمَّةٌ»: يُعَلِّمُ النَّاسَ الخيرَ، ويَؤُمُّهم في الهُدى، وَيَأْتَمّون به في الطّاعة، وَيَقْتدون به في الدَّعوة والعبادة.

وهو «قانِتٌ»: مُطيعٌ لله، خاشعٌ مُنيبٌ، عابدٌ ذاكر.

وهو «حنيفٌ»: مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ، تاركٌ للشرك، مُلْتزِمٌ بالتوحيد.

وهو «شاكرٌ لأنعم الله»: فنِعَمُ اللَّهِ عليه كثيرةٌ، وعطاياه غامِرَةٌ، وهو يقابلُ هذه النِعَمَ الجليلَةَ بِشُكْرِ المُنْعم سبحانه.

والله قد اجتباه ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: اصطفاهُ اللَّهُ وجعلَهُ نبيّاً وإماماً، وهداهُ إلى صراطِهِ المستقيم، ودينِهِ القويم.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٤٠.

(٢) النحل: ٢٣٠ ـ ١٢٣.

الألوكة
www.alukah.net

وقد مَنَّ اللَّهُ على إبراهيمَ مقابلَ إخلاصِهِ وشكرِهِ فآتاه في الدنيا حسنةً، وهي الحياةُ الطيبَةُ، وأعدَّ له الثوابَ الجزيلَ والأَجْرَ الكثيرَ في الآخرة[1].

إبراهيمُ أُمَّةٌ عليه السلام، هو فردٌ واحدٌ ولكنَّ فِعْلَهُ كان فِعْلَ أُمَّة، وكأنّهُ اجتمعت في شخصه أمةٌ كاملة، وبقي أثرُهُ حياً في الأمّة حتى قيام الساعة[2].

سَكَتَتِ الأمُ ٱنْتِظاراً لِسؤالٍ مِنْ أولادِها وَلكنَّهم لَمْ يَنْبِسوا بِشَفَهَ فَقَالَتْ: هَلِ ٱنْتَهَتْ أَسْئِلَتُكُمْ حَوْلَ سيِّدِنا إبراهيم؟

استأنَفَت الأمُ وقالت: إبراهيمُ عليه السلام حَمَلَ رِسالةَ الإِسْلام إلى جَميع ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَعندما يَكُونُ الإِنْسانُ حامِلاً لِرِسالةٍ سامية، فإنَّهُ يكونُ خَيِّراً لِمُجْتمعِهِ وَأَهْلِهِ وَلِنَفْسِهِ.

الأَبُ: هذه الآياتُ التي كانتْ أُمُّكُم تَشْرَحُها الآنَ تُشِيرُ إلى شَيْءٍ آخَرَ. إنَّ النبيَّ إبراهيمَ عليه السلام بِٱجْتيازِهِ هذه الِٱخْتباراتِ بِنَجاحٍ، وَٱسْتِحقاقِهِ رُتْبَةَ الإِمامَةِ للناسِ أَقامَ مُؤَسَّستَيْنِ تربويَّتَيْنِ:

الأول: «الكَعْبَةُ والمسجدُ الحرامُ»، وهو أولُ مسجدٍ بَنَاه لعبادةِ اللَّهِ، ونَشْرِ الدعوة إلى الله عزوجل حَيْثُ كان ابنُه إسماعيلُ يَعِيْش.

والثاني: بنى المسجدَ الأقصى لعبادَةِ اللَّهِ عزوجل ولِنَشْرِ الدَّعوَةِ والأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر، حيث كان يعيش هو وباقي أبنائه.

جميل: وهل كان «المسجدُ الأقصى» مَوجُوداً في زمن سيِّدِنا إبراهيمَ؟

الأب: في الواقِعِ، إنَّ ما ذَكرْناه في قِصَّةِ بِناءِ «البَيْتِ العَتيقِ» يَكادُ يَنْطَبِقُ على «المَسْجِدِ الأقْصى»، فَبِناءُ المَسْجدِ الأقصى كان بَعدَ بِناءِ

---

(١) الخالدي، صلاح، قصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٤٠.

الألوكة
www.alukah.net

«المسجدِ الحرامِ» بأربعين سنةً[1]، وهذا ما أَخْبَرَنا بِهِ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فروى البخاري ومسلمٌ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله، أَيُّ: مسجِدٍ وُضِعَ في الأرض أولاً؟

قال: «المسجدُ الحرامُ».

قلت: ثم أيّ؟

قال: «المسجدُ الأقصى».

قلت: كم كان بينهما؟

قال: «أربعون سنة»[2].

إن هذا الحديث الصحيح يدلُّ على أنّ إبراهيمَ عليه السلام هو باني الكعبة والأقصى، ويحدّدُ المدةَ الزمنية بين بنائهما بأنها أربعون سنة[3].

في الوقتِ الذي كانَ فيهِ أَبو أحمدَ يُحدِّثُ أَوْلادَهُ، قامَتْ زَوجتُه بِتَحضيرِ أَكوابِ اللَّيْموناضَةِ المُنْعِشَةِ والدَّواءِ المُسَكِّنِ للأَلَمِ الذي كانَ يُعاوِدُ غَزوَ أَجسامِهِم، وَبَعْضِ الطّعامِ السَّريعِ، فَأَكلُوا بِشَهِيَّةٍ أَقَلَّ، ثُمَّ رَقَدوا بعضَ الوَقتِ لِيَأْخُذوا قِسْطَهُمْ مِنَ الرَّاحَةِ، بَعْدَ أَنْ أَخبرَتْهم أنَّ القِصَّةَ التي سيُتابِعونَها بعدَ استِيقاظِهِم هي قِصَّةُ سيِّدِنا إسماعيلَ الذبيحِ عليه السلامُ.

عَلِمْنا أَنَّ النَّبِيَّ إبراهيمَ عليه السلام أَحْضَرَ زَوْجَتَهُ «هاجَرَ» وٱبْنَهُ البِكْرَ الوَحِيدَ «إسماعيلَ» إلى مَكَّةَ التي وَصَفَها بِقَوْلِهِ: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، وذلِكَ تَنْفيذاً لِأَمْرِ اللَّهِ تعالى لَهُ، وأَنَّ «هاجَرَ» رضي الله عنها سَأَلَتْهُ مُسْتَنْكِرَةً عَنِ السَّبَبِ الذي مِنْ أَجْلِهِ أَحْضَرَهُما إلى ذاك المكانِ، وقالَت له: «آللَّهُ أَمَرَكَ بِذَلِكَ؟» قال: نَعَمْ، قالت: فَلَنْ يُضَيِّعَنا اللَّهُ إذاً. بعد ذلِكَ ٱلتَفَتَ إبراهيمُ

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣٣٦٦.
(٢) أخرجه البخاري، برقم ٣٣٦٦، ومسلم، برقم ٥٢٠.
(٣) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤١٤.

الألوكة
www.alukah.net

إلى البَيْتِ الحَرام وَٱبْتَهَلَ إلى رَبِّهِ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[1]، وَتَوَقَّفْنا عِنْدَ هذا الحدِّ فَلَمْ نَعْرِفْ ماذا حَدَثَ لِلْأُمِّ وَٱبْنِها.

(كان الأبُ يَقولُ هذا الكلامَ تَمْهيداً للبَدءِ بالقِصَّةِ الجَديدَةِ).

بَعْدَ أَنْ غابَ إبراهيمُ عَنْ ناظِرَيْ هاجَرَ، ذَهَبَتْ إلى حَيْثُ تَرَكَتِ ٱبْنَها وَحاجِيّاتِها، وَجَلَسَتِ ٱنتظاراً لِلْفَرَجِ، فَهِيَ مُوقِنَةٌ يَقِيْناً تامّاً أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُضَيِّعَهُما هِيَ وٱبْنَها، وَأَنَّهُ سَيُفَرِّجُ كَرْبَهُما وَيُعِينُهُما على الحَياةِ التي اخْتارَها لهما.

وقد حَدَّثنا رسول الله ﷺ تفاصيلَ وضْعِ هاجرَ وإسماعيلَ في ذلك الوادي، فإنَّنا نأخذُها مما رواه البخاري في حديث مطّول، روى البخاري[2] عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقاً لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَاباً فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقالتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقالتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَاراً، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقالتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قال: نَعَمْ، قالتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ وَجَعَلَتْ أُمُّ

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يَزِفُّونَ﴾، حديث رقم ٣٣٦٤.

الألوكة
www.alukah.net

إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قال يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَداً، فَلَمْ تَرَ أَحَداً فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَداً فَلَمْ تَرَ أَحَداً، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**»(١). فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتاً، فَقالتْ: صَهٍ ـ تُرِيدُ نَفْسَهَا ـ ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضاً، فَقالتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قال: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ ـ أَوْ قال: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ ـ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيناً**»(٢).

قال: فَشرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِيه هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعاً مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِراً عَائِفاً، فَقالوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا،

---

(١) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يَزِفُّونَ﴾، حديث رقم ٣٣٦٤.

(٢) الصفا: الحجر الأملس مأخوذ من الصفو. وهو هنا اسم قطعة من جبل أبي قبيس.

الألوكة
www.alukah.net

قال: وأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقالوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقالتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قالوا: نَعَمْ.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأُنْسَ**». فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ.

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قال: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئاً، فَقال: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قالتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قال: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قالتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قال: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقالتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قال: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ. فَقال: مَا طَعَامُكُمْ؟ قالتِ: اللَّحْمُ. قال: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قالتِ: الْمَاءُ. قال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ**». قال: فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلا لَمْ يُوَافِقَاهُ. قال: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قال: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قالتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قال: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قالتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قال: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

الألوكة
www.alukah.net

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيباً مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قال: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قال: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قال: وَتُعِينُنِي؟ قال: وأُعِينُكَ، قال: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتاً، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قال: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولانِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: فَجَعَلا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولانِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧])[1].

أحمد: أتعلم يا أبي: إنّ هذه القِصَّةِ تعلمنا أشياء متعددة. أولها احترام ملكية الآخَرِينَ، ثُمّ عدم التَّعَدِّي على الضُّعَفاءِ، وٱحترامُ الجيرانِ، واحترام المرأةِ في العَمَلِ لتحصيل المعاش، ثمّ الوفاءُ، ثُمَّ الإخلاصُ في كُلِّ هذه المواضِعِ.

جميل: وسؤالي هو: هَلْ يَحِقُّ لِلأَبِ التَّدَخُّلُ في حَياةِ ٱبنِهِ فيأمُرُهُ بِتَطْليقِ زَوْجَتِهِ أَوِ المُحافَظَةِ عَلَيْها، أَلَيْسَ في هذا تَدَخُّلٌ في خُصوصِيَّاتِ الإِنْسان؟

الأبُ: إبراهيمُ لَيْسَ مُجرّدَ أبٍ، فَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ المُرْسَلُ الذي لا يَنْطِقُ عَنِ الهوى، فَهُوَ أَعْلَمُ مِن ٱبْنِهِ بِما يَصْلُحُ وما لا يصلح. ثُمَّ إنّ أَيَّ أبٍ في الوُجودِ يَهْتَمُّ بِمَصالِحِ أَبْنائِهِ وَيَخافُ عَلَيْها، وَمِنْ واجِبِ الٱبْنِ طاعَةُ والدَيهِ بِشَرْطِ أَنْ يَعْلَمَ تَقْواهُما وَحِكْمَتَهُما على أَنْ يَكونَ تَدَخُّلُهُما لِمَصْلَحَةِ الأُسْرَةِ كَكُلّ وَلَيْسَ لِأَهْواءٍ شَخْصِيَّةٍ. وَسَيِّدُنا إبراهيمُ عندما أَمَرَ ٱبنَه بِتَغْييرِ عَتَبَةَ بابِه لم يَكُنْ ظالِماً وَلا مُفترياً، وَلَكِنَّهُ كان يُريدُ لِٱبْنِهِ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ التي هِيَ الأَساسُ في بِناء البَيْتِ الصّالِحِ السَّعيدِ؛ والزَّوْجَةُ الصالِحَةُ لَيْسَتْ فَقَط ـ كما قلنا سابقاً ـ هِيَ التي تُطِيْعُ زَوْجَها الصّالِحَ، وَلَكِنْ هي التي لا تُفْشِي أَسْرارَهُ لأَحَدٍ، وٱلتي تَقْنَعُ

(١) البخاري، حديث رقم ٣٣٦٤.

الألوكة
www.alukah.net

بما قَسَمَهُ اللَّهُ لها مِنْ رِزْقٍ. فَعَنْ أبي هُرَيرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يَسْتُرُ عبدٌ عبداً في الدُّنيا إلاّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامةِ**»(١). وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**أيُّما امرأةٍ ماتَتْ، وَزَوْجُها عَنْها راضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ**»(٢). وَعَنِ القَناعَةِ أَخْبَرَ عبدُاللَّهِ بنُ عمرٍو ﷺ أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفافاً، وقَنَّعَهُ اللَّهُ بِما آتاهُ**»(٣).

جميلٌ: تُطيعُ زَوْجَها الصَّالِحَ؟ وهلْ مِنْ شَرْطِ الطَّاعَةِ أَنْ يَكُونَ المُطاعُ صالِحاً؟

ـ طَبْعاً، فالصّالحُ هو الّذي يُطِيْعُ رَبَّهُ، وَمَنْ لا يُطيعُ رَبَّه فلا عَجَبَ إذا لَمْ تُطِعْهُ زَوْجُهُ(٤).

أحمد: أبي، أذكر أنني مررت بذكر حادثة عجيبة في سورة الصافات عن سيّدنا إبراهيم وابنه، فما سرّ هذه الحادثة؟

الأب: بارك الله بك يا بني، إنها حادثة الرؤيا التي رآها سيدنا إبراهيم عليه السلام في المنام، إذ أمره الله في هذه الرؤيا أن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل.

سامي: ماذا؟ يذبح ابنه؟! أيُعقَلُ أن يذبح النبيّ إبراهيمُ ابنه الذي انتظر مجيئه بفارغ الصبر؟ ألا يكفي أنه تركه في وادٍ عير ذي زرع؟!!.

الأب: إن إبراهيم نبيّ الله، وهو أعلم بمشيئة الله ولطفه.

وقد فسّر إبراهيم الرؤيا بأنها أمر من الله وأن عليه الطاعة، واختار أن يعرض الأمر على ابنه ليشاركه في أجر الطاعة.

جميل: وما هي الآيات التي تروي هذه الحادثة؟

الأب: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ

---

(١) المروة: أصل جبل قيعان. والصفا والمروة جبلان بالقرب من موضع البيت.

(٢) مسلم، برقم ٢٥٩٠.

(٣) الترمذي وابن ماجه، وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح.

(٤) مسلم، برقم ١٠٥٤، وأحمد بن حنبل والترمذي وابن ماجه.

الألوكة
www.alukah.net

أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[1].

ولعلّ الأمرين ـ بناء الكعبة ورؤيا ذبح إسماعيل ـ كانا في الزيارة نفسها، التي قابل فيها إبراهيم ابنه إسماعيل عليهما السلام، بعد غياب سنوات عديدة، فبنيا البيْت، وأذّن إبراهيم بالحج، وكانت مناسك الحج، ورأى إبراهيم عليه السلام رؤيا ذبح إسماعيل، وكان الفداء، وكانت الأضحية، وكان عيد الأضحى، وكانت مناسك الحج! والله أعلم[2].

الأمّ: هَلْ نَسِيْتُم أَنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ وتعالى مَدَحَ سَيِّدَنا إسماعيلَ بِقَوْله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾[3]، فالصّادِقُ المُوفي بِعُهودِهِ، الذي يأمُرُ أهلَهُ بإقامَةِ شَعائرِ الدِّين، لا يُمْكِنُ أن يَعْصي والدَيْهِ، وهما أحَقُّ النّاسِ بالطّاعَةِ، إذ هِيَ مِن بابِ البِرِّ بالوالدَينِ، وَزَوجَتُه يَجبُ أَنْ تكونَ مِثْلُهُ وَتُطِيعُهُ لِأَنَّهُ أَحَقُّ بِطاعَتِها مِنْ غَيْرِهِ، وَلا تُفْشِي أَسْرارَهُ، وَتَقْنَعُ بِما قَسَمَهُ اللَّهُ.

الأبُ: وَلِهذا، وَلِأَنَّهُ وَفِيٌّ وَصادِقٌ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا إلى جُرْهُم، لِأَنَّ الوفاءَ والصِّدْقَ مِنْ أَبْرزِ صِفاتِ الأَنْبياءِ.

فقد وصف الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام في القرآن: إنه رسولٌ نبيّ، إنه صادق الوعد، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وهو مرضيٌّ عند الله، وهو من الصابرين الصالحين المرحومين، كما أنه من الأخيار

---

(١) سورة الصافات: ١٠٢ ـ ١١١.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٣٩٥.

(٣) مريم: ٥٤ ـ ٥٥.

الألوكة
www.alukah.net

الذين اختارَهُم الله واصطفَاهُمْ، عليه الصلاة والسلام.

أحمد: وَهَلْ ذُكِرَ في القُرآنِ الكَريمِ أنّ إسماعيلَ كان مُرْسَلاً إلى جُرْهُم؟

الأب: «جرهم» لم تُذْكَرْ في القُرآنِ، قبل ظهور الإسلام كان يُوجدُ مَجموعَةٌ مِنَ النّاسِ يُسَمَّوْنَ بالحُنَفاءِ المُوَحِّدينَ، فَكَيْفَ تَوَصَّلوا إلى مَعْرِفَةِ الدِّينِ الحَنيفِ ـ دِينِ إبراهيمَ ـ إذا لَمْ يَكُنْ هناكَ نَبِيٌّ يَدْعوهُم، وَكما عَرَفْنا أَنَّ سَيِّدَنا إبراهيمَ لَمْ يَعِشْ في جَزيرةِ العربِ بل كان يعيش في فِلَسْطينَ، وبما أن جُرْهُماً مِنَ العَرَبِ، وَبِما أَنَّ إسْماعيلَ عاشَ مَعَهُمْ وَصَاهَرهُم، وَبِما أَنَّهُ نَبِيٌّ كَريمٌ كما نَعْلَمُ، فهو نَبِيٌّ مُرسَل إلى بَنِي جُرهم، أَيْ: إلى العَرَبِ.

الأمُّ: ولماذا نَذْهَبُ إلى الِاستنتاجاتِ ما دام هُناك آيةٌ تَدُلُّ على هذا الكلام؟ وقد قال تعالى في سورة مريم مادحاً سيدَنا إسماعيل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾[1].

فقد أشاد الله به وأثنى عليه، لأنه كان صادقَ الوَعْد، وكان رسولاً نبيّاً، وكان يأمرُ أهلَهُ بالصلاة والزكاة، وكان مَرْضِيّاً عند الله[2].

جميل: كان يأمُرُ (أهلَهُ)، أَيْ: زَوْجَتَه وأَولادَه؟

الأم: هذا الكلامُ صحيح، ولكنّها أَيْضاً تَشْمَل ـ على التَّوَسُّعِ ـ أَوْلاده وأَحْفادَهُ وَذَراريَهُ، وكلَّ ما يَجْمَعُهُمْ بِهِ مِنْ نَسَبٍ أَوْ دِينٍ أَوْ ما يجري مَجْراهُما مِنْ صِناعَةٍ أو بَيْتٍ أَوْ بَلَدٍ[3]. وهذا يَدْخُلُ ضِمْنَ ما يُسَمَّى بالتَّعبيرِ المجازِيّ «الكِنايَةَ».

ظَلَّ هذا الدينُ «الإسلامُ» يَدِيْنُ بِهِ العَرَبُ حتى دَخَلَتِ الوَثَنِيَّةُ وَعِبادَةُ

---

(١) مريم: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٣٨٣.

(٣) موسوعة الفقه الإسلامي.

الألوكة
www.alukah.net

الأَصْنام على يدِ عَمْرِو ابْنِ لُحَيٍّ، فصار الحُنفاءُ يَتَناقصُون تَدْرِيجِيًّا، وَيَزْدادُ عَبَدَةُ الأَوثانِ والأصْنامِ حتى ٱنْتَشَروا في جَزِيرةِ العَرَبِ، فوضعوا الأصنامَ داخِلَ الكَعْبَةِ وَعبَدُوها هُناكَ في أعيادٍ خاصَّةٍ بِكُلِّ صَنَمٍ مِنْها. وَقَدِ ٱنْضَمَّ إِلَيْهِم أَهْلُ مَكَّةَ الذينَ كانوا حتى ذلك الحِينِ على دينِ إبراهيمَ، وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَذْكُرُ دِينَ التَّوحيدِ إلّا بعضُ الأفرادِ المُتَفَرِّقين هنا وهناك.

أحمد: اللَّهمَّ صلِّ على جَميعِ أَنْبيائِك ورُسُلِكَ. لَقَدْ تَعِبوا كثيراً وعانَوا كَثِيراً، إلّا أَنَّ جُهودَهُم كادَتْ تَضيعُ هَباءً لَوْلا رَحْمَةُ اللَّهِ.

الأَبُ: هذا صحيحٌ. فاللَّهُ رَحيمٌ بِعِبادِهِ. وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ لا تَنْسى شَيْئاً وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يُثِيْبُ كُلَّ إنسانٍ مُحْسِنٍ، وَقَدْ جاءتْ هذِهِ البُشْرى في القُرآنِ الكريم: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1].

وَلِهذا، أَيْ لِأَنَّ إسماعيلَ كانَ صالِحاً وصادِقاً ومُوْفِياً بالعهدِ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ فَجعَلَهُ يشارِكُ والِدَهُ النبيَّ إبراهيمَ بِناءَ البَيْتِ الحَرام ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

أحمد: أَجَلْ أَخْبَرتنا بِهذا أَمس.

الأبُ: صحيحٌ. ولكنْ لَم أُخْبِرْكُم مَتى كَانَ ذلك.

جميل: أَخبِرْنا الآنَ مِن فَضْلِك.

الأَبُ: لَقَدْ حَدَثَ ذلِكَ عِندما زار الأبُ ٱبْنَهُ بعد زَواجِهِ الثّاني وَطَلَبَ مِنْهُ المُحافَظَةَ على عَتَبَةِ بَيْتِهِ، وبعد أن فداه الله بذبح عظيم.

أحمد: أيْ أَنَّ اللَّهَ تعالى كافَأَ نَبِيَّهُ إسماعيلَ لأَنَّهُ أطاعَ أباهُ، ولم يُناقِشْهُ في أيّ الأَمْرِ أمرٍ.

الأبُ: هذا صحيحٌ. بارَك الله بِكَ وبِأَخَوَيْكَ.

* * * * * *

(١) الكهف: ٣٠.

(٢) البقرة: ١٢٥.

الألوكة
www.alukah.net

سَيِّدُنا لوطٌ عليه السلام

نَهَضَتِ الأُسْرَةُ المُغامِرَةُ مِنْ نَوْمِها، وَقَدْ زال عَنْها ما أَصابَها أمس مِنْ صُداعٍ ودُوارٍ، بِسَبَبِ ضَرْبَةِ الشَّمْسِ التي تَعَرَّضَتْ لَها، وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ تعالى أَوَّلاً ثُمَّ بأكوابِ شراب الليمونِ وحُبوبِ الدَّواءِ التي تجرَّعَها جَميعُهم، وعاوَدَهُمُ النَّشاطُ. فهذا هُوَ اليَوْمُ الأَخِيرُ في رِحْلَتِهم السَّعيدةِ المخصصة للعُمْرةِ. جَمَعوا حاجاتِهِم، وَأَزالوا آثارَ خَيْمتِهِم التي أعادُوها إلى السَّيّارَة. نَظَّفوا المَكانَ جَيِّداً، وَوَضَعوا النِّفاياتِ في أَكياسٍ خاصَّةٍ، أَخَذُوها مَعَهُم لِيَضَعوها في المكانِ المُخَصَّصِ لها، فالنَّظافةُ من الإِيمانِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقوا في رِحْلةِ العَوْدَةِ تَناوَلوا فَطُورَهم بِسُرْعة ثمّ قالتْ أمُّ أحمدَ: ما رأيُكم؟

سامي: في ماذا؟

الأم: هل نتابعُ رِحْلَةَ العَوْدَةِ مُباشَرَةً، أَمْ نَذْهَبُ في البداية لِزيارَةِ الأَماكِنِ التي عاش فيها نَبِيُّنا الحَبيبُ ﷺ والتي شَهِدَتْ طُفولَتَهُ وَصِباهُ وَكُهولَتَهُ، عَذابَهُ وَفَرَحَهُ، وَمُعاناتَهُ وَنجاحَهُ، والتي تَشَرَّفَتْ بِمَشْيِهِ على تُرابها وحَصاها؟

الأولاد: بلى ـ بلى ـ بالحقيقةِ لَمْ نُفَكِّرْ بِهذا الأَمْرِ على الإِطْلاقِ.

ـ اِنْطَلَقوا حالاً، فزاروا غارَ حِراءَ الذي كان يَعْتَكِفُ فيه عليه الصلاةُ والسلامُ قبلَ أَنْ يُوحَى إليه، عندما كان عمرُه سَبْعاً وثلاثينَ عاماً ـ ويعتكف

الألوكة
www.alukah.net

فيه شَهْرَ رَمَضان، وَنَزَلَ عليه الوَحْيُ وهو ٱبنُ أَرْبعينَ سنةً في هذا الغارِ[1].

غادروا غار «حِراء»، وأَلْسِنَتُهم لا تَكِلّ عَنِ الصَّلاةِ على النَّبِيِّ ﷺ.

أَكْمَلوا سَيْرَهُم حتّى غادروا أراضي المملكةِ العربيةِ السَّعوديةِ وعادوا إلى الطريق الدَّوْليّ الذي جاؤوا مِنْهُ، ولكنّ السَّيارَةَ غَيّرتْ مَسارَها فجأةً.

فسأل أحمد: لماذا غَيَّرْتَ سَيْرَكَ يا أبي؟

الأب: ألا تُريدونَ زيارةَ المكانِ الذي كان يعيشُ فيهِ نبيُّ الله لوطٌ؟

ـ بلى وأين هو؟

ـ في منطقة غَوْرِ الأردن.

وَصَلوا إلى البَحْرِ المَيِّتِ. لم يَتَرَجَّلوا مِنَ السَّيّارَةِ، اِكْتَفَوا بالمُشاهَدَة مِنْ داخِلِها.

فإذا هو بحيرةٌ كبيرةٌ، تُسَمى بَحراً تَجَوُّزاً، بِسبَبِ ضَخامَتِها وتَموُّجِ مياهِها، والذي لَفَتَ نَظَرَهُم إلى هذا البحرِ هو وجودُه في مِنطقةٍ شديدةِ الٱنخِفاضِ وهي أخفض منطقة في العالم، عَلِموا فيما بعد أنها تَقَعُ تَحْتَ مُسْتوى البَحرِ المُتوسط، وَما كانوا يَعْلَمونَ ذلكَ، وما أثارَ ٱشْمِئْزازَهُمْ، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الخُرُوجِ مِنَ السَّيّارَةِ، كَثْرَةُ الحَشَراتِ المُزْعِجَةِ التي تَحُومُ هناك بِشَكلٍ كَثيفٍ، والرَّوائحُ الكَريهَةُ المُنْبَعِثَةُ مِنْ مِياهِهِ بِسَبَبِ ٱنْخِفاضِه وَوُجودِه في مَكانٍ مُغْلَقٍ، وَبِسَبَبِ كَثْرَةِ ما فيهِ مِنْ مَوادَّ مَعْدَنيَّةٍ وَأَمْلاحٍ، فَنِسْبَةُ مُلوحَةِ هَذهِ البُحَيْرَةِ تَبْلُغُ عَشْرَةَ أَضْعاف مُلوحَةِ أيِّ بحرٍ آخَرَ، لِذلكَ لا يَنْتَفِعُ من

(١) هذا الغار موجود في جبل النور في مكة الآن، طوله ٤ أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع الذراع، ولكن الوصول إليه صعب ولا سيما في ذلك الزمن.

الألوكة
www.alukah.net

مائِه ما حولَه مِنَ الأَراضي، وَلَيْسَ ذلِكَ إلا بِسَبَبِ غَضَبِ اللَّهِ على قَوْمٍ كان يَعِيشُ بِقُرْبِهِ.

كانوا يُشاهِدون تلك الآثارَ وعلاماتُ الحُزْنِ والكآبةِ والخوفِ تبدو على وجوهِهِم عملاً بِنَصيحةِ سيدنا محمد ﷺ لِمنْ يُريدُ زيارةَ المَناطقِ التي غَضِبَ اللَّهُ عليها.

خَرَجوا مِنْ تِلكَ المِنْطَقَةِ مُسْرِعينَ، لا يكادون يَسْتَطيعونَ التَّفوُّهَ بِكَلِمَةٍ واحدةٍ، لِفَرْطِ تأثُّرِهِم بما رأَوْا. بَعْدَ فترةٍ مِنَ الزَّمَنِ قال الأبُ: أَتعلمون؟ حتى الآنَ تَعرَّفْنا إلى ثلاثِ مناطِقَ لا يُمكِنُ لأَحَدٍ العَيْشُ فيها، مَعَ أَنَّها كانت فيما مضى مَأْهولةً بالسُّكّانِ والحَيوانِ وصالحةً للزراعةِ.

سامي: ما هي؟

ـ هَذِهِ المِنطَقَةُ التي نَحنُ فِيها اليَوْمَ، لا يَسْكُنُها أحدٌ مَعَ أَنَّها على طَريقِ النّاسِ، والمِنْطقةُ التي عاشَ فيها سيِّدُنا هودٌ، لا يجرؤُ أحدٌ على الِاقترابِ منها، لأَنَّها مِنْطَقَةٌ مَوْبوءَةٌ حتى يَوْمِنا هذا، تَصديقاً لِقَولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1]، ومدائن صالِح التي نَهى سيدُنا محمد ﷺ عن الشُّرْبِ من مياهِها، «عَنْ عبدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما؛ أَنَّ الناسَ نَزَلوا مَعَ رسولِ الله ﷺ على الحِجْرِ؛ أرض ثمود، فاْستَقَوا مِنْ آبارِها وعَجَنُوا بِهِ العَجِينَ، فَأَمَرَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أن يُهْرِقوا ما اْسْتَقَوا، ويعْلِفوا الإِبِلَ العجِينَ...»[2].

سَكَتَ الأبُ عِندَ هذا الحدِّ فقد لاحظ أَنَّ زَوجَتَهُ وأولادَهُ غَيْرُ راغبينَ في الكلامِ أو الاْستماعِ.

بعدَ قليلٍ أَوْقَفَ سيارتَهُ وأطفأ محرِّكَها، وَجَلَسَ ساكِناً، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُطِقْ

---

(١) هود: ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري، برقم ٣٣٧٨ ـ ٣٣٨١، ومسلم، برقم ٢٩٨١.

الألوكة
www.alukah.net

هذِهِ الحالَ. لَمْ يَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ أُسْرَتِهِ حَزِيْنَةً مُتَوَتِّرَةً ساكِتَةً، لَيْسَ فيها ما يَدُلُّ على الحَياةِ سِوى العُيونِ المَفْتوحةِ والأَنْفاسِ المُتردِّدَةِ. نَزَلَ مِنْ مَكانِهِ حتّى يُحَضِّر لَهُمْ ماءً بارِداً مِنْ شَأْنِهِ تَهْدِئَةُ نُفُوسِهِم. بَعْدَ أَنْ شَرِبوا وَٱرْتَوَوْا حَمِدوا اللَّهَ، وصَلّوا رَكْعَتَيْن لِيَسْتَعينوا بِهِما على ترويحِ أَنْفُسِهم كَما كان يَفْعَلُ سيدنا محمد ﷺ عِنْدَما يَحْزِبُهُ أَمْر، كان يفزع إلى الصلاة ويقول: «**أَرِحْنا بالصَّلاةِ يا بلال**»(١).

بعد ٱسْتِراحة دامَتْ ساعتينِ تَقْريباً، نالُوا فيها قِسْطاً مِنَ النوم استيقظوا وَقَدِ اسْتَعادوا نشاطَهم وَرَغْبَتَهُم في سَماعِ قِصَّةِ النَّبِيِّ لوط مَعَ قَوْمِهِ، الذينَ ٱسْتَحَقّوا غَضَبَ اللَّهِ تعالى وعذابَهُ. ولكنَّ جميلاً طَلَبَ إِرجاءَ القِصَّةِ رَيْثَما يَنْتَهي مِنْ تَحْضيرِ أَكْوابِ الشّاي، فَقَدْ صارَ بِإِمْكانِهِ صُنْعَ أشياءَ كَثيرةٍ لِأَنَّهُ بَلَغَ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ ولم يَعُدْ صَغيراً، وَأَرادَ راحَةَ أُمِّهِ. فَكَثُرَتِ التَّعليقاتُ اللَّطيفَةُ.

قال الأب:

ـ يا سلام، سَنَشْرَبُ الآنَ أَفْضَلَ شايٍ في العالَمِ!

الأُمُّ: إنَّ شايَ (جميلٍ) سَوْفَ يُزيْلُ الصُّداعَ مِنْ رؤوسِنا.

أحمد: سَنَرى ذلك عِندما يُحضِرُ الشّايَ.

سامي (مُدافعاً عَنْ أَخيهِ): وهل صُنْعُ الشايِ صَعْبٌ لِهذِهِ الدَّرَجَةِ، أنا أيضاً أعرِفُ كَيْفَ يُصنَعُ، ولكنَّ أُمي لا تسمحُ لي بِٱسْتِعمال النارِ، فلا تَسْخَروا مِنْ جَميلٍ. اِعتذرَ كُلُّ مَنْ عَلّقَ بِكَلِمةٍ وقالوا: أَرَدْنا المُزاحَ فقط. نَحنُ نَعْلَمُ أنَّ جميلاً ماهِرٌ في كُلِّ ما يعمَلُ، وَلَكِنْ هَلِ المُزاحُ مَمْنوعٌ؟

أحسَّ سامي أَنَّه أخطأَ بِتَسَرُّعِهِ فٱعْتَذَرَ أيضاً. أَمسَكَ الأبُ بِزِمامِ الأُمورِ وقال: سأَرْوي لكُمُ الآنَ قِصَّةَ هذا النَّبِيِّ الكريمِ. (لَقَدْ كانَ مُسْتَغِلّاً

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٥/٣٦٤ و٣٧١.

الألوكة
www.alukah.net

لِلْفُرصَةِ التي أُتِيْحَتْ لَهُ بالْجُلوسِ مَعَ أبْنائِهِ مُدَّةً طَويلةً، فَهُوَ عادةً ما يُخَصِّصُ لَهُمْ نِهايَةَ الأُسْبُوعِ لِيَكُونَ مَعَهُمْ، لِأَنَّ عَمَلَهُ الطَّويلَ يَحُدُّ مِنْ ذَلِكَ كما وَأَنَّ دُرُوسَ الأَبْناءِ تَحُدُّ مِنْ ذلك أيضاً. غَيْرَ أَنَّه يَعْمَلُ جُهْدَهُ لِيُجالِسَهُمْ وَلَوْ لِساعَةٍ كُلَّ يَوْمٍ لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْهم ويَتَعَرَّفَ إلى أَحْوالِهِم).

قالَ الأبُ: كما ذَكَرْنا في قِصَّةِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، كان لوطٌ أوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرِسالَةِ إبراهيم عليه السلام، والوَحيدَ الذي خَرَجَ مَعَهُ عِنْدما هاجَرَ إلى بِلادِ الشّامِ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[1].

ولا يذكر القرآن الصّلةَ بين إبراهيم عليه السلام وبين لوط عليه السلام، ولا درجةَ القرابةِ بينهما، ولم يحدّدْ ذلك أيضاً رسول الله ﷺ في حديث صحيح له.

بينما ذَكَرَت اليهودياتُ أخباراً وكلاماً وروايات عن هذه الصّلَةِ والقرابة بينهما، وعن نسب لوط عليه السلام.

ولكننا نبقى مع الآيات والأحاديث الصحيحة، ولا نأخذ شيئاً من أي مصدر آخر غيرهما، ونسكت عن ما سكتا عنه.

فلا نعرف عن لوط إلا اسمه هو، ولا نعرف شيئاً يقيناً عن صلته بإبراهيم، ولا عن نسبه، ولا عن نشأتِه وطفولته.

كل ما نعرفه أنه استجاب لدعوة إبراهيم، وسار معه، وآمن له.

ولما هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين كان لوط معه. وهذا ما ذكره القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[2].

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(٢) الأنبياء: ٧١.

الألوكة
www.alukah.net

ولما وصل إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى فلسطين، أرسل الله لوطاً نبياً رسولاً إلى قومٍ كانوا يسكنون في الجنوب الشرقي منها، في عدةِ قرى مجتمعة[1].

الأم: ولا نعرف من أين جاء هؤلاء القوم، ولا اسمهم، ولا أصلهم، ولا أسماء القرى التي سكنوها، ولا اسم المنطقة التي كانوا فيها، لعدم وجود أحاديث صحيحة تخبر عن ذلك.

كل ما نعرفه فقط ما قاله تعالى في القرآن الكريم عن هؤلاء القوم، أنهم كانوا يرتكبون فواحش كثيرة، من أسوأ الفواحش وأشنعها وأقبحها[2].

الأب: دعا لُوطٌ عليه السلام قَوْمَهُ إلى الابتعاد عَنْ أَخْلاقِهِم السَّيِّئَةِ، وَرَجا أَنْ يُصَدِّقُوهُ، ولكنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ رَجاؤهُ، فَقَدْ ظَلُّوا على حالِهِم. ودعا امرأته عدة مرات إلى الله واستخدم معها أحسن الأساليب والوسائل، لكنها أغلقت قلبها، وأصمت أذنيها، ورفضت تلك الدعوة الإيمانية.

إنها لا تُؤْمِنُ باللَّهِ الواحدِ القَهّارِ، وهذا ما حزّ في نَفْسِهِ وَضاعَفَ أَلَمَهُ، فَلَيْسَ سَهْلاً على المَرءِ أَنْ يَكونَ عَدُوُّهُ في بَيْتِهِ، فلا يَبْقى لَهُ مَكانٌ يَرتاحُ فيه، فقد آثرت أن تكون على دين قومها الكافرين الشاذين.

اِزْدادَتْ أخلاقُ القومِ سُوءاً، وراحوا يَبْتَدِعُونَ ألواناً مِنَ التَّصَرُّفاتِ السَّيِّئَةِ، لَمْ يَسْبِقْهُم إِلَيْها أحدٌ مِنَ الناسِ. فَقَدْ كانوا يَقْطَعونَ الطَّريقَ، وَيخونون الرَّفيقَ، وَيتواصَون بالإثْمِ، ولا يَتَناهَوْنَ عن مُنْكَرٍ، وَقَد زادوا في سِجِلِّ جَرائمِهِمْ جَريمةً جَديدةً كَلَّ الجِدَّةِ على الأرضِ: وَظَّفوا طاقاتِهم الإنْسانيَّةَ، وروحِ الِاْبْتِكارِ في جِبِلَّتِهِمْ، لِاْبْتِكارِ جَريمةٍ لَمْ يَسْبِقْهُمْ بها أَحَدٌ مِنَ العالَمينَ، كَانَ الرِّجالُ مِنْهُمْ يَتَزَوّجونَ الرِّجال. قالَ اللَّهُ تعالى في سورةِ

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٧٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص٤٧٩.

الألوكة
www.alukah.net

الأعـراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

هم عادون مُعْتَدون مُتَجاوِزون لِلْفِطْرة، مُخْتارون لِلحَرام على الحلال. مُفَضِّلونَ لِلشذوذ على الاستقامة. لأنهم آثروا الرجال الذكران على النساء، حيث تركوا ما خلق لهم ربّهم من أزواجهم من النساء، وجعل في فِطرِهم تزوج النساء، لكنهم طَمَسوا رغبةَ الفِطْرةِ، وهذا هو العدوان بنفسه، ولما دعاهم لوط عليه السلام إلى ترك هذه الفاحشة جابَهُوهُ بِقُوَّةٍ أَشَدَّ، فَمَنَعوه مِن ٱسْتِقْبالِ الضُّيوفِ، وَخُصوصاً الرِّجالُ، وَمَنَعُوا النّاسَ مِنْ زِيارَتِه، وَبَغّضُوهُ إِلَيْهِم بِحُجَّةِ أَنَّهُ يَتَطَهَّرُ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2]، وصاروا كُلَّما عَرَفوا بِزيارَةِ أَحَدٍ لَهُ آذَوْهُ وآذَوا ضَيْفَهُ. ولم يَكُنْ لِسَيِّدِنا لُوطٍ أَنْصارٌ أَوْ أَقارِبُ أو عَشِيرَةٌ تَحْمِيهِ مِنْ كَيْدِ الكافرين. وهذا ما قالَهُ لَهُمْ ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[3]. وقدْ قال سيِّدُنا محمدٌ ﷺ عندما قَرَأَ هذِهِ الآيَة: «**يرحَمُ الله لُوطاً، لقد كان يَأْوي إلى رُكْنٍ شديد**»[4].

أحمد: مَعْذِرةً يا أبي، لَدَيَّ سُؤالٌ. لَقَدْ فَهِمْتُ كُلَّ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ تَصَرُّفاتِ هَؤُلاءِ القَوْمِ المَلْعُونينَ، وَلَكِنْ لَمْ أَفْهَمْ ما هو المُنْكَرُ الذي لا يَتَناهَوْنَ عَنْهُ؟

جَميعُ ما ذَكَرْتُ لَكُمْ مُنْكَراتٌ يَفْرَحونَ بفعلها وَيُعَلِّمونَها لِبعْضِهم، وَيَحْرِصونَ على إِشْهارِها بَيْنَ النّاسِ. وَلَكِنِ الذي أَقْصِدُهُ مِنْ هَذِهِ العِبارَةِ

---

(١) يوسف: ٨٠ ـ ٨١.
(٢) الأعراف: ٨٢.
(٣) هود: ٨٠.
(٤) ابن كثير، قصص الأنبياء، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

الألوكة
www.alukah.net

(لا يَتناهَون عَنْ مِنْكَر)، لَقَدْ كانوا «يَأْتونَ في نادِيْهِمْ ـ وَهُوَ مُجْتَمَعُهُم وَمَحَلُّ حَدِيْثِهِمْ وَسَمَرِهِمْ ـ المُنْكَرَ مِنَ الأَقْوالِ والأَفْعالِ، على ٱخْتِلافِ أصنافِها، حتّى قِيْلَ إنَّهم كانوا يَتَضارَطونَ في مَجالِسِهِمْ ولا يَسْتَحْيُونَ[1]. . . . وَكانوا في ذلك وَغَيْرِهِ كالأنعامِ بلْ أضلُّ سَبيلاً[2].

جميل: هَلِ الدِّينُ يَهْتَمُّ أيضاً بالحياةِ العامَّةِ، أيْ في مُعاملاتِ النّاسِ في بُيوتِهِمْ وَمُجْتَمَعاتِهِمْ؟

الأُمُّ: أَلَمْ نَقُلْ إنَّ الدينَ هو منهج إلٰهي، يُرْشِدُ النّاس إلى الحَقِّ في الاِعْتِقاداتِ والتَّشْريعاتِ والأَخْلاقِ؟ أَيْ تَوْحِيدِ اللَّهِ ﷻ، وَنَفْيِ الشَّرِيْكِ عَنْهُ والمَثيلِ، وإلى العباداتِ الصَّحيحةِ، وإلى الخَيْرِ في السُّلوكِ والمُعامَلاتِ، أَيْ تَطْبِيقِ شَرْعِ اللَّهِ ﷻ في حياتِنا اليَومِيَّةِ الاِجْتِماعِيَّةِ؟ فاللَّهُ خَلَقَنا وَهُوَ أَعْلَمُ مِنّا بما يَنْفَعُنا فَيَأْمُرُنا بِفِعْلِهِ، وبما يَضُرُّنا فَيَنْهانا عَنْهُ وَيَأْمُرُنا بِتَجَنُّبِهِ. وَمِنَ العَيْبِ وَٱلأَذى أَنْ يَسْمَحَ الإِنْسانُ لِنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ بِإِخْراجِ رَوائِحَ كَرِيهةٍ من بَطْنِهِ تُسَبِّبُ القَرَفَ والاشْمِئْزاز للناسِ حَوْلَهُ، وأما إذا ٱضْطُرَّ فَلْيَذْهَبْ مُبْتَعِداً عَنْهُم، وَسَيِّدُنا محمد ﷺ ـ كما بَقِيَّةِ الأَنبياءِ ـ جاءَ لِيُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ «إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ»[3].

وقد قال أحمد شوقي:

إنَّـمـا الأُمَـمُ الأَخْـلاقُ مـا بَـقِـيَـتْ فَـإِنْ هُـمُ ذَهَـبَـتْ أَخْـلاقُـهُـمْ ذَهَـبُـوا

سَكَتَتِ الأمُّ فَتابَعَ الأبُ كلامَهُ: لَمْ يَكُنْ لِسَيدِنا لُوطٍ أقاربُ في بَلَدِهِ، لقد هدَّدَ القومُ لوطاً عليه السلام بإخراجه هو وآله وأهله الصالحين وأتباعه المؤمنين من قريتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[4].

---

(١) الصحيح يستحيون.
(٢) ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٨٨.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢/٣٨١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٦٧.

الألوكة
www.alukah.net

أي: إن لم تتوقف يا لوط عن كلامِك فسنعاقبُك، وإن أصررْتَ على الاستمرارِ في لَوْمِنا وَتَقْرِيعنا فَسَنُخْرِجْكَ من بيننا.

ومع ذلك استمرَّ لوطٌ عليه السلام في دَعْوَته، ومضى في الإنكار عليهم، ولم يأبَهْ لِتَهْديدِهِمْ وَوَعيدِهِمْ، فما كان من الملأ من قومه إلا أن أصْدَروا أوامرَهم لأتباعهم فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1].

أَخْرِجوا لوطاً وآلَهُ المؤمنينَ من قريَتِكم، فهذه القرية قريتُكُم أنتُمْ وليست قريَتهُمْ هم. إنها قريتُكم تتصرّفون فيها كما شِئْتم، وتحقّقون فيها رغباتِكم، وتفعلون فيها ما يحلو لكم، ومن هو الذي يشارككم فيها؟ أمّا لوطٌ وأتباعُه فلا حقَّ لهم في قريتكم، إنهم غرباء عنكم ولا بدَّ أنْ يخرجوا من بينكم[2].

أمّا زَوْجَتُهُ فَقَدْ كانتْ مِنْ ألدِّ أَعدائهِ، إذْ هِيَ التي كانَتْ تُخْبِرُ قَوْمَها المُجْرِمينَ بِكُلِّ مَنْ يَأتِيْهِ، وُكُلِّ أخباره.

لِهذا لَمْ يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْ أَعْدائِهِ فَراحَ يَشْكُو أَمْرَهُ إلى رَبِّهِ.

الأم: استجابَ اللَّهُ لِنبيِّه فأَنْجَدَهُ بالملائكة.

جميل: الملائكة الذين جاؤوا بالبُشرى إلى سيِّدِنا إبراهيم؟

الأم: أَجَلْ، هُمْ أَنْفُسُهم. بَعْدَ أَنْ بَشَّرو إبراهيمَ بإسحاقَ ويعقوب، أَخْبَرُوه أَنّهم مُرْسَلون إلى قوم لوط لتعذيبهم. فذكر لَهُمْ أَنَّ هذِهِ القَرِيَةَ فيها لوطٌ وأَهْلُهُ. فقالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ وطَمْأنوه على لوط عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٢.

(٣) العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢.

الألوكة
www.alukah.net

أراد سيّدُنا إبراهيمُ عليه السلام أن يُعطي لقوم لوطٍ فرصة أخيرة لَعلّهم يُجِيْبُون وَيُنِيْبُون وَيَرْجِعون عَنْ تَصَرُّفاتِهِمُ المُشِيْنَةِ ويُسْلِمون ويُصَدِّقون دَعوةَ الحقِّ، وَلَكِنَّ أَمْرَ اللَّهِ لا بُدَّ أَنْ يَنْفَذَ. لِهذا قال اللَّهُ سُبحانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾[1].

وتابَع الأبُ: وأَنْتُم تَعْلَمون أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُحِلُّ عذابَه بقوم إلّا بعد أَنْ يُكذِّبوا رسولَهُ، وَيُصِرّوا على كُفْرِهِم وعِنادِهِمْ ويتحدَّوْهُ أَنْ يُنْزِلَ عليهِمُ العَذابَ الأَليمَ. وهذا ما تَرَوْنَهُ في قَصَصِ الأَنْبياءِ التي حَكَيْناها لَكُم. فجميع الأقوام كَذَّبوا أَنْبياءَهم، وَطَلَبوا إنزالَ العذابِ بِهم، وهذا ما قاله قومُ لوطٍ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾[2]. وجاء دعاءُ لوطٍ عليهم مُسَرِّعاً العِقابَ.

تَرَكَ الملائكةُ سيِّدَنا إبراهيمَ واتَّجَهوا إلى ديار لوطٍ وٱسْتَضافوهُ فأضافَهم، والتقوا فيه في صورة رجال حسان، وهو لا يعرف أنهم ملائكة، فتدافع قومُه إليه، لِيَخْطِفوا منه ضُيوفَه، ووقف لوطٌ أمامهم وحيداً يدافع عن ضيوفه، ويستثمِرُ رُشْدَهم أو عَقْلهم، ويُوجِّهُهم إلى أن يتزوجوا النساء، فلم يستجيبوا له، وأمام محاولاتِهم الدخولَ إليه عُنْوَةً، لِخَطْفِ الضيوف، كشف الضيوفُ عن هُوِيَّتِهم الحقيقيّةِ، وأخبروه أنهم ملائكة، ولن يَصِلوا إليهم، وأن العذابَ قادمٌ إليهم عند الصبح[3].

قوم لوط كانوا عَديمي الأخلاقِ، فاسِدين، لَيْس فِيْهم مَنْ يَنْهى عَن المُنكَرِ أَوْ يَأْمُرُ بِالمَعروفِ. ثم راح يُحادِثُ الملائكةَ عن سوءِ أخلاقِ قومِهِ وَعَنِ المَعاصي التي يَرْتكِبُونَها، وَعَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِم، وَدَعوتِهِ اللَّهَ أَنْ يَنْتَقِمَ

(١) هود: ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) العنكبوت: ٢٩.
(٣) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٩٥.

الألوكة
www.alukah.net

مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُم ذَهبُوا مَعَهُ وَدَخَلوا بَيْتَه، فَهُمْ يَعلمون كُلَّ هذا ولكنْ أرادوا سَماعَهُ مُباشَرَةً مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ.

قطع الأب شرحَهُ ليسأل أحمد: ألم تَصِلْ في دروسك إلى درسِ الكِناية؟

أحمد: بلى، إنه آخرُ درس أخذناه قبل العطلة.

الأب: هل لك أن تشرحَهُ لأَخَوَيْك؟

أحمد: الكنايةُ هي التعبيرُ عن شيءٍ مُعينٍ بِلَفْظٍ غيرِ صريحٍ في الدَّلالةِ عليه لِغَرَضٍ من الأغراض كالمديح مثلاً.

سامي: لم أفهم، فهل لك أن تُعْطِينَا مثلاً واضحاً.

أحمد: إذا قُلنا مثلاً: فُلانٌ كَثيرُ الزُّوّار، هذا يعني أَنه كريمٌ جداً فَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ لَما زارَهُ أحدٌ. أو قلنا: فلانٌ مَفْتولُ العَضَلاتِ، فهذا مَعْناهُ أَنَّه قوِيٌّ جدّاً وَنَشِيطٌ.

تابع الأبُ كلامَهُ: هذا حَسنٌ. كان لوطٌ يُدافِع قومَهُ وَيُحاوِرُهم، في حينِ أنَّ الضُّيوفَ كانوا هادِئينَ لم يقوموا أو يَهُبّوا لمُساعَدَتِهِ، فتعجَّبَ مِنْ هُدوئهم فقال: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، وقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾[2].

إِطْمأنّ لوطٌ عندما عَلِمَ أَنَّهُم ملائكةٌ وليسوا بَشراً، فلن يَسْتطيعَ قومُه فَضْحَهُم أَوِ الوُصُولَ إِلَيْهِ.

بَعدَ هذا أَمَرَ الملائكةُ لُوطاً أَنْ يَخْرُجَ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ هذِهِ القَريَةِ، حتّى يُوقِعوا بها عذابَ الله، وأخبروه أن العذاب سيكون في الصباح

---

(١) الحجر: ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) هود: ٨١.

الألوكة
www.alukah.net

فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ وأخبروهُ أنّ امرأتَهُ لن تَنْجُوَ، بَلْ سَيَنالُها عِقابُ اللَّهِ لقد خانَتْ زَوجَها كما فَعَلَتْ زَوْجَةُ سيِّدِنا نوحٍ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1]. والخِيانَةُ هنا معناها التعامُلُ مع العدوِّ والتجسُّسُ لحسابِهِ.

عاوَدَ الأبُ رَبْطَ كلامِهِ: إذاً، الملائكةُ أَمَرَتْ نبيَّ اللَّهِ لُوطاً بالخُروج مِنَ القَرْيَةِ مَعَ أُسْرَتِهِ، لِأَنَّ العذابَ سَيَحُلُّ بالقَوْمِ الكافرينَ صَباحاً ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[2].

سَكَتَ الأبُ قليلاً ثم بادَرَ أبْناءَهُ بِسُؤالٍ: هَلْ تَعْرِفونَ كيفَ عَذَّبَ اللَّهُ الأَقْوامَ التي حَلّ بها غَضَبُه؟

قالوا: أَجَلْ لَقَدْ أَهْلَكَ قَوْمَ نوحٍ بالطُّوفانِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُم إلّا نُوحٌ والمؤمنونَ. وَأَهْلَكَ قَوْمَ هودٍ بالرِّيحِ الصَّرْصَرِ العاتِيَةِ، فَهَلَكوا جَميعاً ما عدا هوداً وأتْباعَهُ، وَأَهْلَكَ ثموداً بالطّاغِيَةِ، ونجا صالحٌ وأتباعُهُ.

ـ هذا صَحيحٌ. كما تَرَوْنَ. كلُّ قَوْمٍ مُكَذِّبِيْنَ أُهْلِكوا بِنَوْعٍ واحِدٍ مِنَ العَذابِ؛ أمّا قَوْمُ لُوطٍ فَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تعالى بِثَلاثَةِ أَنْواعٍ مِنَ العَذابِ، يَكفي كُلُّ واحِدٍ منها لِاسْتِئْصالِهِمْ. النوعُ الأولُ كانَ الصَّيْحَةَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[3] وهو صَوْتٌ شَديدٌ قاصِفٌ جاءهُمْ عِندَ شُروقِ الشَّمْسِ، ثُم حانَ وَقْتُ النوعِ الثاني مِنَ العذابِ أَلا وَهُوَ قَلْبُ بلادِهِم بِكُلِّ

(١) التحريم: ١٠.
(٢) هود: ٨١.
(٣) الحجر: ٧٣.

الألوكة
www.alukah.net

ما فِيْها وَما عَلَيْها، وَذَلِك بِرَفْعِها إلى عِنان السَّماء ثم قَلْبِها ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[1]، وَقَدْ زَعَمَ بعضُهم أَنّها أُهْلِكَتْ بِزلزالٍ أو بُرْكانٍ، ولكنَّ كلامَ اللَّهِ سُبحانَه وتعالى هو الكلامُ الحَقُّ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[2]، ثم كان العذابُ الثالِثُ وَهُوَ الرَّجْمُ بالحِجارَةِ[3] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[4]، وَقَدْ حَدَثَ ما تنبَّأ بِهِ الملائِكَةُ. فَقَدْ خَرَجَ لُوطٌ وآلُ بَيْتِهِ المؤمنين في جُنحِ الظَّلام، بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُم بِٱقْتِرابِ وُقُوعِ العَذابِ الأَليم على القَوْمِ الكافرينَ، وَأَوْصاهُم بِعَدَمِ ٱلِٱلْتِفاتِ لِئَلّا يُصيبَهُمْ ما يُصِيبُ هؤلاءِ. تَرَكَهُم يَخْرُجُونَ أَمامَهُ وهو وراءهم يَحْرُسُهُم، فهو مَعصومٌ مِنَ العذابِ.

أوقعَ الله بقوم لوطٍ عذاباً خاصاً عجيباً، لم يوقِعْ مثلُهُ في أقوامٍ كافرين آخرين، وهذا العذاب يتناسبُ مع جرائمِهم التي ارتكَبوها، ومعَ شُذوذِهم الذي ارتَكَسُوا فيه.

كان تعذيبُهم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: إن الله طمس أعيُنَهم فأعماهم، وكان هذا في الليل، عندما راودوا لوطاً عن ضيوفه الملائكة، فأمره الملائكة أن يسير مع أهله المؤمنين وقتَ السَّحَر، وطمسُوا أعين القوم الشاذين المُتَجَمْهِرين على باب منزل لوط عليه السلام، فأصيبوا بالعمى، فعادوا عُمْياناً لا يَرَوْن شيئاً، ولا يَلْوون على شيء!

المرحلة الثانية: إيقاع الدمار بهم، وكان هذا عند اصباح اليوم التالي: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾[5].

---

(١) الحجر: ٧٤.
(٢) الكهف: ١١٣.
(٣) لقد رجمهم بحجارة من السماء.
(٤) هود: ٧٤.
(٥) القمر: ٣٨.

الألوكة
www.alukah.net

ولما جاءَ الصباح وأشرقت الشمس أخذتهم الصيحة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

والصيحةُ التي أَخَذَتْهم صيحةٌ خاصة، انشَقَّتْ بها الأرضُ وأحدثَتْ صَوْتاً عالياً مُفزعاً، وكان هذا وقت شروق الشمس، وهذه الصيحةُ العجيبةُ غيرُ مفصَّلةٍ ولا مُحَدَّدة ولا مُبيَّنة، أَعْقَبَها التدميرُ والمطر والحجارةُ وقلبُ عالي القريةِ سافلَها.

وبعد الصَّيْحَة قلب اللَّهُ القريةَ قلباً، فجعل عالِيهَا سافِلَها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[2].

وعالي بيوت القرية هو سقوفُها، وسافلُها هو أساساتُها وأَرْضيَّتُها، فلما دمَّرَ الله تلك القريةِ قَلَبَ بيوتَها قَلْباً، فصارت أرضِيَّتُها إلى الأعلى، صارت سقوفُها إلى الأسفل، وقُضِيَ على أهل تلك البيوت.

وأعقبَ اللَّهُ قَلْبَ البيوتِ بأن أمطر عليها مطراً خاصاً، ليس ماءً عذباً، ولا غيثاً مُغيثاً، ولكن مطرٌ من حِجارةٍ من سِجِّيل.

والمطر في القرآن لم يَرِدْ إلا في سِياق الأذى أو العقاب والعذاب، بل إنّ اشتقاقات وتعريفات المطر في القرآن، معظمها في ذلك المطر الخاص المكوّن من حجارةِ السجيلِ الذي أوقعه الله بقوم لوط.

والمطر من حجارة السجيل، وقد سمى الله هذه الحجارة هنا سجيلاً، بينما ذكرت آية أخرى أنها حجارة من طين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾[3].

وحجارةُ السجيل هي حجارة الطين، ولكن اختلاف التعبير في الآيات عنهما حسب الحالة، وهي هنا حجارة معدة إعداداً خاصاً عند الله

---

(١) الحجر: ٧٣.

(٢) الحجر: ٧٤.

(٣) الذاريات: ٣٣.

الألوكة
www.alukah.net

لهؤلاء القوم، وهي معلمة بعلامات خاصة لهم، وكأن كل واحد من القوم أعد الله له حجراً خاصاً به وعلَّمه له بعلامات خاصة، لا يخطئه إلى غيره، فهو له خاصة.

وما هي إلا لحظات حتى دمّر الله قرية قوم لوط الكبيرة، ودمَّرَ قراهم الأخرى المحيطة بها، وقضى على هؤلاء القوم الكافرين الشاذين، وذهبوا إلى لعنة الله وعذابه.

ورأى لوط عليه السلام وأهله ما حلَّ بالقوم الكافرين الشاذين من هلاك، وما وقع بقراهم من دمار، فحمدوا نعمة الله على الإيمان والإسلام، وعلى الطهارة والعفاف، وفرحوا بالقضاء على أولئك الكافرين[1].

هذا هو كُلُّ ما نَعْرِفُهُ مِنْ أَنْباءِ سَيِّدِنا لُوطٍ، والقرآن والسنة لم يذكرا متى مات ولا أَيْنَ، ولا ماذا فَعَلَ بعدَ ذلِك.

* * * * * *

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٥١٧.

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١١)
أنبيّاءُ اللَّهِ إسحاقُ ويعقوبُ ويوسفُ عليهم السلام

اِنْتهى أبْطالُنا مِن رِحْلَتِهِمُ التّعَبُّدِيَّةِ التي قاموا بِها إلى الأراضي المُقَدَّسَةِ. فَقَدِ ٱعْتَمَروا وَزاروا مَناطِقَ أُخْرى عاشَ فيها بَعْضُ الأَنْبياءِ مَعَ أَقْوامِهِمُ الَّذِينَ كَفَرَ أَكْثَرُهُم فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، كَقَوْمِ صالِحٍ وَقَوْمِ لُوْطٍ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ جَهِلْنا مَصِيْرَهُ مِثْلَ جُرْهُم قَوْمِ إِسْماعيلَ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ حَكَمُوا مَكَّةَ مُدَّةً طويلة، ثُمَّ ٱسْتَوْلَتْ قَبِيلَةُ خُزاعَةُ على مَقاليدِ الحُكْمِ خُصوصاً بَعْدَ عُلُوِّ نَجْمِها، بِسَبَبِ إِحْضارِ سَيِّدِها «عَمْرِو بنِ لُحَيّ» بَعْضَ الأَصْنامِ أَثْناءَ زِيارَتِهِ لِبِلادِ الشّامِ وَوَضْعِها داخلَ مَكَّةَ... وَظَلَّتِ الخُصومَةُ قائِمَةً بَيْنَ «جُرْهُم» «وَخُزاعَةَ» حَتّى قامَ شابٌّ جُرْهُمِيٌّ قَوِيٌّ هو «قُصَيُّ بْنُ كِلابٍ» الجَدِّ ٱلأَكْبَرِ لِسَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وَٱسْتَرْجَعَ الحُكْمَ، فَعادَ الأَمرُ إلى أَهلِهِ.

لم يَعُدْ لِوُجودِ ٱلأُسْرَةِ في الأردن مِنْ داعٍ.

لِذا جَهّزَتْ نَفْسَها وَرَتَّبَتْ حاجِيّاتِها في السَّيّارةِ، بَعدَ أنْ أَضافَتْ إليها الهدايا، وَجَرَّتينِ مَليئتَينِ بِمياهِ زَمْزَمَ، لِيَسْقُوها لِزُوّارِهِمْ بَرَكَةً وَٱسْتِشْفاءً ـ كما جرتِ العادةُ لدى استِقبالِ المُهَنِّئينَ بِعَوْدَةِ الحُجّاجِ أَوِ المُعْتَمِرينَ. وقدْ قال رسولُ الله ﷺ: «**زمزمُ طعامُ طُعْمٍ، وَشِفاءُ سُقْمٍ**»[1]. وَالمُهَنِّئونَ قد يَخْجَلونَ مِن طَلَبِ شَيْءٍ إلّا ماءَ زمزم.

---

(١) رواه أبو ذر، أخرجه البزّار في صحيحه.

الألوكة
www.alukah.net

لَم يَكُنْ زَمَنُ العَوْدَةِ طَوِيلاً كما كانَ زمنُ الذّهابِ، فَهُمْ لم يرتاحوا إلا قليلاً على الحدودِ. في اليوم الثاني كانوا يقفونَ أمامَ بيتِهم يَرُدّونَ التَّحِيّاتِ والتَّبريكاتِ مِنْ جِيرانِهِمُ، الذينَ وَعَدُوهُم بزيارَتِهِم لِلتّهْنِئَةِ بِشَكْلٍ أَفْضَلَ بَعدَ يَومين، حتى يُتيحُوا لَهُمُ الِاسْتِراحَةِ مِنْ سَفَرِهِمْ وَتَرْتِيبِ بَيْتِهِمْ.

دَخَلوا البَيْتَ وَهُم يُرَدِّدونَ دُعاءَ الرجوع من السَّفَرِ «آيِبُونَ تائِبونَ عابِدونَ لِرَبِّنا حامِدونَ»[1].

خَلعُوا مَلابِسَهُم، وَأَسْرَعوا إلى الحمّامِ يَغْتَسِلونَ، وَيُزِيلونَ عَنْهُم آثارَ السَّفرِ، وَيَرْتَدون «البيجامات» التي مِن شأنِها إعطاؤهُم شُعوراً أَكْبَرَ بالرّاحةِ. ثُم تَعاوَنوا في إدْخالِ الحَقائِبِ إلى الغُرَفِ الدّاخِلِيَّةِ، وَوَضْعِها بِشَكْلٍ عَشْوائي نَوعاً ما، على أَنْ يُعِيدوا تَرْتِيبَها وَإِفْراغَها وإعادةَ كُلَّ شَيْءٍ إلى مكانِهِ الأَصْلِيّ بَعْدَ أَنْ يَسْتريحوا.

في صَباحِ اليَوْمِ التالي اِسْتَيْقَظوا مُتأخِّرينَ وذلك بعد أن أَدَّوا صَلاةَ الفَجرِ في مَوْعِدِها رغم تعبهم الكبير كذلك فعل سامي.

في الصباح اتَّصلتْ أمُّ أحمدَ هاتِفِيًّا بأُخْتِها، لِتُخْبِرَها بِعَوْدَتِهِمْ، وَتَطْمَئِنَّ على صِحَّتِها. ثُمَّ صارتْ تَتَلقّى اتصالات الأَهْلِ والأَقارِبِ، يُهَنِّؤنَها بِسَلامَةِ الوُصولِ مَعَ أُسْرَتِها، وَيُخْبِرونها بِزِيارَتِهِمْ لها في القريب العاجل.

في مَساءِ ذلكَ اليَومِ اصْطَحَبَتْ أُمُّ أحمدَ زَوْجَها وَأَوْلادَها لِزِيارَةِ أُختِها، التي لا تَسْتَطيعُ زِيارَتَها بِسبَبِ حالَتِها الصِّحِّيَّةِ بَعدَ الوِلادةِ.

راحت دُموعُ الفَرَحِ تَنحدِرُ على وَجَناتِ الأُخْتَيْنِ؛ وبعد الِانْتِهاء مِنْ مَراسِمِ الِاحْتِفاءِ بالوالدةِ والوالدِ والمَوْلودةِ الجَديدَة، وَتَقْدِيمِ الهدايا التي اخْتارَها الأولادُ مِنَ البِلادِ المُقَدّسَةِ. قال سامي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث برقم ٦٣٨٥، كتاب الدعوات، باب إذا أراد سفراً أو رجع.

الألوكة
www.alukah.net

سامي: هَلْ سَمَّيْتِ ٱبْنَتَكِ «سارةَ» يا خالتي؟

الخالة: نَعَم. هلْ هذا الِٱسْمُ جَميلٌ؟

سامي: جميلٌ جداً.

جميل: إنَّهُ ٱسْمُ زَوْجَةِ نَبِيِّ اللَّهِ إبراهيمَ عليه الصّلاةُ والسّلامُ التي كَلَّمَتْها المَلائِكَةُ وَبَشَّرَتْها بإسحاقَ.

أمُّ سارةَ: الحمدُ للَّهِ أَنّني سَمَّيْتُ ٱبْنتي بِهذا الِٱسْمِ الذي نال إعجابَكُم.

سامي: لهذا سنعتبِرُها أُخْتَنا. فما رأيُك؟

أم سارة: هذا جميلٌ. لقد صارَ لِٱبنتي ثلاثةُ إخوةٍ مُحِبين! إذن ستَتَدَلَّلَ كثيراً.

انتهتِ العُطلةُ المَدرسيَّةُ، وٱبتدأ الفصْلُ الدِّراسيُّ الجديدُ. عاد الأولادُ إلى مُعَلِّميهِمْ ورِفاقِهِم الَّذينَ هنّأُوهُمْ بالعُمْرةِ التي قاموا بِها، وبِسلامَةِ العَوْدةِ، فَشَكَروهُم وَتمنَّوا لَهُمْ أنْ يَنالوا ما نالوه مِن رِضى اللَّهِ وثوابِه، ويشاهِدوا ما شاهَدوهُ في رِحلتِهم، ووعدوهم بإحضارِ الصُّوَرِ الفوتوغرافِيَّةِ التي ٱلْتقطوها، وتَعْليقِها على لَوْحةِ الحائِطِ لِيتمكَّنَ الجميعُ مِن مُشاهَدَتِها لِتَعُمَّ ٱلْفائِدة. ولكِنّ رِفاقَهم لَم يَكْتفُوا بهذا، بل ذَهبوا إلى المدير وَطَلبوا مِنْهُ السَّماحَ لهُم بالِٱسْتِماعِ إلى أخبارِ الرِّحْلةِ خِلالَ حِصَّةِ المُطالَعَةِ، فَسَمَحَ لَهُم قائلاً: وأنا أيْضاً سأستمِعُ مَعَكُم وأشاهِدُ الصُّوَرَ.

سامي: أَتَسْمَحُ لي يا أستاذُ أنْ أَدْخُلَ إلى غُرْفَةِ المعلِّمينَ لأَسقِيَهُم ماءَ زمزم؟

رحَّبَ المدير ثمّ المُعَلِّمون بِهذِه الخطوة الجميلةِ، التي تدُلُّ على مدى الوَفاءِ الذي يحمِلُه سامي وأَخَواه لمُعلِّميهم ورفاقِهم.

لم يعُدْ للأولادِ وَقْتٌ يسْتمِعونَ فيهِ للقِصَصِ الجميلةِ التي تحكِيْها لهم

الألوكة
www.alukah.net

أُمَّهم، وتُذَكِّرُهُم بِأنبياءِ اللَّهِ ورُسُلِهِ، فقدِ ٱقْتَرَبَ مَوْعِدُ الِٱمْتِحاناتِ النِّهائيَّةِ، فأحمدُ يَسْتَعِدُّ لِٱمْتحاناتِ الشَّهادَةِ المُتَوَسِّطَةِ، وأَخَواهُ أيْضاً لَدَيْهِمُ ٱمْتِحاناتٌ مَدْرَسِيَّةٌ وعليهِمْ إذاً أن يُضاعِفُوا جُهودَهُم لإِنْهاءِ الواجِباتِ ٱلْيَومِيَّةِ، وَمُراجَعَةِ الدُّروسِ السَّابِقَةِ، حتّى لا تَكْثُرَ عليهِم فَيُضْطَرُّوا بعدَئذٍ لِلسّهَرِ الطَّويل، والحِرمانِ مِنَ النَّوْمِ، وهذا ما لا يُطِيقونَ.

شارَفَ العامُ الدّراسِيّ على الِٱنتهاء وتحدّدت مواعيد الامتحانات، وصار على التلاميذِ أن يُكَثِّفوا جُهودَهم أَكْثرَ لِيَحْصلوا على النَّتِيْجَةِ المُتَوَخّاةِ، فَٱمْتَنَعوا عَنْ مُشاهَدَةِ التِّلفازِ، أوِ الخُروجِ مِنَ البَيْتِ إلّا بِضْعَ دَقائِقَ يَجْلِسونَ فيها في شرفَةِ المَنْزِلِ، لِلتّرويحِ عَنِ النَّفْسِ وَٱلْعَيْنِ، أَوْ لِتَناوُلِ الطَّعامِ بِسُرْعَةٍ.

وَلَمْ تَذْهَبْ جُهودُهُم هباءً فقد نالُوا ما تَعِبوا لِأَجْلِهِ... صار مِنْ حقّ الأولادِ ـ والأَهلِ أيضاً ـ الترويحُ عَنِ النَّفْسِ بِشَكْلٍ دائِمٍ فَجَلَسوا في حَدِيْقَةِ البَيْتِ يَسْتَمْتِعونَ بالهواءِ المُنْعِشِ وَيَتَأمَّلونَ مَنْظَرَ القَمَرِ والنُّجُوم الذي يَمْنَحُ السَّماءَ جَمالاً خَلّاباً، وَيَتَذَكَّرونَ قَوْلَ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[2].

سامي: أَما حانَ الوقتُ بَعْدُ؟

الأمُّ: أيُّ وَقْتٍ؟

سامي: وَقْتُ القَصَص! أَلَنْ نُتابِعَها؟

الأمُّ: بلى، وهلْ يُعْقَلُ أَنْ نَتْرُكَها؟ هَيِّئوا أَنْفُسَكُمْ لِلِاسْتِماعِ، وَلَكِنْ بَعْدَ الِٱنْتِهاءِ مِنْ تَناوُلِ المُثَلَّجاتِ.

جَلَسوا جَميعاً بِٱهْتِمامٍ لِمَا تَقُوله أمُّهُم، وذلِكَ بَعْدَ خُروجِ الوالِد

---

(١) الصافات: ٦.

(٢) فصلت: ٣٧.

الألوكة
www.alukah.net

لِعيادَةِ أَحَدِ أَصْدِقائِهِ، الذي أُصِيْبَ بوعكة صِحِّيَّة أثناءَ قِيامِهِ بِعَمَلِهِ، فَنَقَلَهُ زُمَلاؤُهُ إلى بَيْتِهِ، بَعْدَ رَفْضِهِ الذَّهابَ إلى المُسْتَشْفى إذْ لم يَرَ ضَرورةً لذلك.

وَعِيادَةُ المَريضِ مِنْ حَقِّ المُسْلِمِ على المسلم، بل من حَقِّ الإنسانِ بِشَكْلٍ عامّ على أخيهِ الإنسانِ. فقد قَالَ سيدُنا محمد ﷺ: «**حقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ خمسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وَعِيادَةُ المَريضِ، واتِّباعُ الجَنائِزِ، وَإجابَةُ الدَّعْوةِ، وَتَشْمِيتُ العاطِسِ**»(١).

قالتِ الأمُّ: تَعَرَّفْنا في قِصَصِ الأَنْبياءِ التي سردتُها لَكُم إلى أَنبياءِ الله تعالى: آدمَ، ونوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ وإبراهيم، وإسماعيلَ ولوطٍ عليهم جميعاً صَلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ. واليَوْمَ سَنَتَحَدَّثُ عن ثلاثَةٍ مِنَ الأَنْبياءِ وَهُمْ إِسْحاقَ ويَعْقوبَ ويوسُفَ مِنْ ذُرِّيَّةِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

سامي: ثلاثةُ أنبياءٍ دَفْعَةً واحِدة!؟

الأم: أَجَلْ وهذا ليس كثيراً، فالنَّبيّانِ الأَوَّلانِ ليس لَدَيْنا مَعْلوماتٌ كَثيرةٌ عَنْهما، وَقَدْ ذَكَرَهُما اللَّهُ في كتابِهِ الكَريم مَرّاتٍ قليلةً، مَعَ أَنَّ الأَخْبارَ الوارِدَةَ عن أهلِ الكتابِ بِشَأنِهما كَثيرةٌ جداً، وَلَكِنَّنا اتَّفَقْنا، أَنْ لا نَذْكُرَ إلّا ما وَرَدَ في شَريعَتِنا نَحْنُ، وَلَنْ نَأخُذَ شيئاً عن أهل الكتاب.

أما سيِّدُنا إسحاقُ عليه السلام فلا نَعْلم عَنْهُ إلا ما ذَكَرَهُ القُرآنُ مِنَ البُشْرى، التي حَمَلَتْها المَلائِكَةُ لِسَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام وزَوْجتِهِ السَّيِّدَة سارة رضي الله عنها.

أحمد: أنا أذكر تلك البشرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾(٢).

---

(١) متفق عليه: البخاري، برقم ١٢٤٠، ومسلم، برقم ٢١٦٢.

(٢) هود: ٦٩ ـ ٧١.

الألوكة
www.alukah.net

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾[2].

فالثلاث سور تخبرنا عن ضيوف إبراهيم عليه السلام، إنَّ الله أرسَلَهُم ليبشِّروه بإسحاق، ولزيادة سرورهم أنها ستبقى سارة وزوجها إبراهيم موجودَيْنِ، ليشاهدا حفيدَهما يعقوبَ!

مع إن سيِّدَتَنا سارةَ تَعَجَّبتْ كيف ستلدُ وهي عقيمٌ، وإن هذا لشيءٌ عجيبٌ غريبٌ فهي كبيرةٌ بالسِّنِّ وعقيمٌ، فكيف سَتَلِد؟

وهذا هو أمرُ الله تعالى الذي شاء أن تحمِلَ رَغْمَ أنَّها عجوزٌ عقيمٌ وشاء الله أن تَلِدَ إسحاقَ نبيّاً، وشاء أن تستمرَ حياتَهُما حتى يُدرِكا حفيدَهُما يعقوب! لقد شاء الله ذلك وقدّره، وما قدَّره الله فلا بد أن يَتَحَقَّقَ، لأنّ الله فعالٌ لما يريد، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ في الأرْضِ ولا في السماء.

وبذلك أكرم الله عزوجل إبراهيم عليه السلام وزوجَهُ بابنهما إسحاق عليه السلام[3].

ولم يُذْكَرْ عن سيدنا إسحاقَ الكثيرَ مثل باقِي الأنبياء والرسل،

---

(١) الحجر: ٥١ ـ ٥٦.

(٢) الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠.

(٣) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٢٢.

الألوكة
www.alukah.net

فلا نعرفُ من قصة إسحاقَ عليه السلام إلا ما أخبرَنا بِهِ في القرآنِ، فلا نبحثُ عن إضافاتٍ أو تفضيلاتٍ من مصادر غيرِ مأمونة.

وهناك مُبْهَمات كثيرةٌ في قصة إسحاق عليه السلام، من حيث تفاصيلُ ولادتِهِ، وشبابُهُ وأماكنُ إقامَتِهِ، وصلتُهُ بأبيه إبراهيم، وزواجه وأولاده، ونبوته ودعوته، وحياته ووفاته!

وهذه المبهماتُ نُبْقيها على إبهامها، ولا نخوضُ في تَحْديدِها وتِبْيانها، ونَكِلُ العلمَ بها إلى الله[1].

فقط نعرف أن الله عز وجل حين أرسلَ الملائكةَ لتبشير إبراهيمَ عليه السلام بأن زوجتَهُ سارةَ ستنجِبُ ابنَها إسحاق، وبما إنها عجوز عقيم، فإنها تَظُنَ أنّها لن تبقى حيّةً حتى يَكْبَرَ ابنُها إسحاق، وتظنُّ أنها ستموتُ في طفولته، وأنه سيعيشُ يَتيماً. وقد طَمْأنتها الملائكة، وأخبرتها أنها ستبقى حيّةً حتى يكبَرَ إسحاق، وستشهدُ زواجه، ثم ستشهد ولادة ابنه يعقوب، وستطمئن برؤية حفيدها.

وهذا تكريمٌ من الله لها، لإيمانها وتَسْليمها وجِهادِها وصَبْرِها.

وَهَبَ الله إسحاقَ لإبراهيمَ عليهما السلام على كِبَر، وَشَكَرَ إبراهيمُ ربَّه على هذه النِّعْمِة، وسَجَّلت آياتُ القرآن شُكْرَهْ لربه[2].

الأم: هذا فقط ما نَعرِفُهُ عَنْ هذا النَّبِيِّ الكريم، وأن الله قد جَعَلَهُ هديّةً ومكافأةً وثواباً دُنْيَوِيّاً لأبِيْهِ الذي وَفّى، وأنه جَعَلَهُ نبيّاً من الصالِحِينَ، ثم أَعْقَبَهُ بِيَعقوبَ، وكذلك السُّنّةُ الشَّرِيفةُ لم تذكره.

وأما سَيِّدُنا يَعْقُوبُ فَما نَعْرِفُ عنه أَنّه ٱبْنُ سيِّدِنا إسحاقَ حَسْبما تُبَيِّنُ البُشرى، وَأَنَّه أَبو اثْنَي عَشَرَ وَلَداً، وَلَا نَعْلَمُ ٱسْمَ أَحَدٍ مِنْهم إلا سيِّدِنا «يوسف». ولا نعلم من هي أم سيّدنا يوسف.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٢٩.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٤٧.

الألوكة
www.alukah.net

كُلُّ ما نَعْلَمُهُ هو أَنَّهُ وَأَخُوه وُلِدا مِنْ أُمٍّ واحِدَةٍ، هي غَيْرُ أمِّ بَقِيَّةِ إِخْوتِهِ، أما بَقِيَّةُ الإِخْوَةِ فلا ندري هل هُم جميعاً أبناءُ أمٍّ واحدَةٍ أَمْ أمَّهاتٍ مُتَعَدِّداتٍ.

وهذا ما نَسْتَوحِيْهِ مِنْ قوله تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾....

في هذا الوقت وَصَلَ الأبُ إلى البيتِ. فقال أحمد: لقد عُدْتَ سريعاً! أَلَمْ تَزُرْ صديقَكَ المريضَ؟

الأب: بلى! وَرَأَيْتُهُ بِخَيْر وللَّهِ الحمدُ. وعيادةُ المريضِ لا يَصِحُّ أنْ تطولَ، بل يُسْتَحَبُّ أَنْ تَقْصُرَ بِقَدْرِ الإمكانِ حتى لا ينزَعجَ، فيكفي الجُلوسُ عِندَهُ خمسَ دقائقَ أو عَشْراً حتى يَسْتأنِسَ وَتَطِيبَ نَفْسُهُ ثم تدعو له كما كان يَفْعَلُ سيدُنا محمد ﷺ، إذ يقول له: «**لا بأسَ، طهورٌ إن شاءَ اللَّهُ**»[2].

ثم أَرْدَفَ: هل كُنْتُمْ تَسْتَمِعونَ إلى قَصصِ الأَنبياء؟

سامي: نعم. لقدِ ٱنْتَهَيْنا مِنَ الدُّروسِ والِٱمتحاناتِ وللَّهِ الحمدُ، وصار بإمكانِنا ٱسْتِماعُ القِصص المفيدة.

الأب: ومن هو النّبي الذي تَتَعَرّفون على سِيْرَتِه اليوم؟

سامي: إنَّهم ثلاثَةٌ: إسحاقُ، ويعقوبُ، ويوسفُ عليهم السلام.

الأب: أي إنّهم كلّهم يَنْتَسِبون إلى سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام.

سامي: نَعم، ٱبنُه وحفيدُهُ وابنُ حفيدِهِ.

الأب: وإلى أين وَصَلْتُم؟

---

(١) يوسف: ٨.

(٢) صحيح البخاري، ج٧، باب: عيادة الأعراب، حديث برقم ٥٦٥٦.

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: كانت تحدّثُنا عن ما نَعْلَمُهُ عن سيدّنا يعقوب عليه السلام، ولم نكمِلْ بعد.

الأب: تَقْصِدُ المُبْهَماتِ في قصّةِ يعقوبَ عليه السلام.

الأم: نعم؛ وصلنا إلى ذِكْرِ يوسفَ عليه السلام وإنه وأخوه من أمٍّ واحدة.... وكنّا سنكمل ـ لولا حضورك ـ الحديثَ عن المُبْهماتِ في قِصّةِ يعقوبَ عليه السلام.

وتابعت الأمُ حديثها: ولم يفصل القرآن كثيراً في قصة يعقوب عليه السلام، من حيث ولادته ونشأته وشبابه وإقامته، وإنما ذكر إشاراتٍ موجزةً عن صِلَتِهِ بابنِهِ يوسفَ وأبنائِهِ الآخرين، ومُعْظَمَ هذه الإشاراتِ في قِصّة يوسفَ عليه السلام، وسنتحدّثُ عنها حينما أسرُدُ لكم قصّةَ يوسف عليه السلام.

ويجب أن تعرفوا إن هناك مُبْهَماتٍ في قصة يعقوبَ عليه السلام، لا بيان لها في آيات القرآن، ولا في أحاديث رسول الله ﷺ.

ومن هذه المبهمات التي لا بيان لها: اسم أمه، عمر والده إسحاق عند ولادته. تحديد مكان وزمان ولادته، هل له إخوان أو أخوات، ولماذا سُمّي يعقوب... تفاصيلُ طفولتِهِ ونشأَتِهِ وشبابِهِ، تفاصيلُ حياتِهِ وأعمالِهِ، تفاصيلُ رحلاتِهِ وتنقلاتِهِ، اسمُ زوجتِهِ أو زوجاته ونوعُ قرابتِها له، توزيعُ أبنائه على زَوْجاته، تحديدُ أسماءِ أبنائه، تفاصيلُ وفاته، تحديدُ عُمُرِهِ عند وفاتِهِ، تحديدُ زمانِ ومكانِ وفاتِهِ، تحديدُ قبرِهِ الذي دُفِنَ فيه، سببُ تسميتِهِ إسرائيل، وَمَعْنى هذا الاسم[1].

فقد ذكر القرآن ليعقوب عليه السلام اسمين: يعقوب وإسرائيلَ.

وقد ذكر اسمَ إسرائيلَ مرَّتَيْنِ في القرآن، الأولى: في سورة

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٤٩.

الألوكة
www.alukah.net

آل عمران، عند الحديث عن ما حرّمه على نفسه، وما حرّمه الله على بني إسرائيل.

أما الثانية: فذكر في سورة مريم، عند الحديث عن شَجَرَةَ النُّبّوّة، المتفرعةِ عن إبراهيم وعن يعقوب عليه السلام.

أحمد: وما الذي حَرَّمَهُ سيّدُنا يعقوبُ عليه السلام على نفسه؟

الأم: قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

أنزل الله هذه الآية في مجادلة الرسول ﷺ لأهل الكتاب.

جميل: ومن هم أهل الكتاب؟

الأم: هم اليهود والنصارى، ولكن هنا كان الحديث عن اليهود، بشأن يعقوب عليه السلام، وما حرّمه على نفسه تقرباً إلى الله عز وجل.

وتكذب هذه الآية وما بعدَها اليهود في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب عليه السلام.

فقد ورد حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ من اليهودِ نَبيَّ الله ﷺ يوماً. فقالوا: يا أبا القاسم، حَدِّثْنا عن خِلالٍ نسأُلكَ عَنْهُنَّ، لا يَعْلَمُهُنَّ إلا نَبيٌّ.

قال: سَلوني عمَّا شِئْتُمْ، ولكِنْ اجْعَلُوا لي ذِمَّةَ اللَّهِ، وما أَخَذَ يَعْقوبُ عليه السلام، على بَنيهِ، لَئِنْ حَدَّثْتُكم شَيْئاً فَعَرَفْتُموهُ لَتُتابِعُنّي على الإسلام؟

قالوا: فذلِكَ لَكَ.

---

(١) آل عمران: ٩٣.

الألوكة
www.alukah.net

قال: فَسَلوني عَمّا شِئْتُم.

قالوا أَخْبِرْنا عن أرْبَعِ خلال نَسْأَلُكَ عَنْهُنَّ: أَخْبِرْنا أَيَّ الطَّعام حَرَّمَ إسرائيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قبل أَن تَنْزِلَ التَّوْراةُ؟

قالَ: فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وميثاقُهن لَئِنْ أنا أَخْبَرْتُكُم لَتُتابِعُنّي؟

قالَ: فأَعْطوهُ ما شاءَ مِنْ عَهدٍ وميثاقٍ.

قال: فَأُنْشِدُكُمْ بالذي أَنْزَلَ التوراةَ على موسى عليه السلام: هل تَعْلَمونَ أَنَّ إسرائيلَ يعقوبَ عليه السلام مَرِضَ مَرَضاً شَديداً، وطالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْراً، لئن شَفاهُ الله تعالى مِنْ سُقْمِهِ، لَيُحرِّمَنَّ أَحبَّ الشَّرابِ إليه، وأَحَبَّ الطَّعام إليه. وكان أَحَبُّ الطعامِ إليه لَحْمانَ الإبل، وأحبُّ الشرابِ إليه ألبانَها؟

قالوا: اللَّهُمَّ نَعَم قال: اللَّهُمّ اشْهَدْ عَلَيهم(١).

الأب: والحديث طويل ولكن ما يهمنا هو أن اسم يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، وهؤلاء النفر من اليهود جاؤوا الرسول ﷺ ليسألوه ويمتحنوه، ويُوَجِّهوا له أسئلةً لا يَعْلَمُ جوابَها إلا نَبِيّ. وإن الرسولَ ﷺ يعلمُ خُلُقَ اليهودِ السَّيءَ، ونَفْسِيَّتَهُمْ المريضَةَ، وَيَعْلَمُ أنهم سَيَكْفُرون به حتّى لو أجابَهم على أسئلتهم! ولهذا أخذ عليهِمُ العهدَ والميثاقَ أن يُؤمنوا به ويتَّبعوهُ، إذا كان جوابُهُ صحيحاً صائباً.

لقد قدّم لهم الإجاباتِ الصحيحةَ على أَسْئِلَتِهِمُ الأربعة... ومُلابساتِ ما حَرَّمَهُ يعقوبُ على نفسه.

فلما أجابهم على تلك الأسئلة، وأحرجَهُمْ بِصِحَّةِ الإجابات، لم يَبْقَ عليهم إلا الوفاءُ بالعَهْدِ، واتباعِهِ والدخولِ في الإسلام.

تابعَ الأبُ حديثَهُ وقال: وَوَرَدَ اسمُ إسرائيلَ ـ يعقوبَ في القرآن في

---

(١) أخرجه الترمذي، مختصراً برقم ٥١٢١.

الألوكة
www.alukah.net

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨﴾ كبّر الأبُ وَسَجَدَ لِسُجودِ التِّلاوةِ، وقال في سُجودِهِ: «سبحان ربي الأعلى» «سبحانَكَ اللَّهمَّ ربَّنا وبِحَمْدِكَ، اللَّهمَّ اغفِرْ لي» ودعا «اللَّهمَّ لكَ سَجَدْتُ وبكَ آمنْتُ، ولكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهي للَّهِ الذي خَلَقَهُ وصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، بِحَوْلِهِ وقُوَّتِهِ»، «اللَّهمَّ اكتُبْ لي بِها أَجْراً، وَضَعْ بِها وِزْراً، واجْعَلْها لي عندك ذخراً وَتَقَبَّلَها مِنّي كما تَقَبَّلْتَها من عبدِكَ داود»، ثم قامَ بلا تكبيرٍ ولا تَسليم.

استَغْرَبَ سامي هذا الفِعْلَ وَسَأَلَ والدَهُ ماذا كُنْتَ تَفْعَلُ؟

أحمد وجميل: إنها سجدةُ تِلاوة.

الأم: «سُجود التلاوة» سُنَّة مُؤكَّدَةٌ لا يَنْبَغِي تَرْكُها، فإذا مَرَّ الإنسانُ **بآيةِ سجدَةٍ** مثلِ الآيةِ التي ذُكِرَتْ في سورة مريم ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ فَيَسْجُدُ سُجودَ التلاوةِ، سواءً كان يقرأُ من المصحف أو عن ظَهْرِ قَلْبٍ، أو في الصَّلاةِ، أو خارج الصلاة[1].

الأب: دَعونا الآن نُكْمِلْ؛ وَرَدَ اسمُ إسرائيلَ في هذه السورةِ مع ذِكْرِ أنبياءٍ: آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ذكر آدم عليه السلام باعتباره أبا البشر.

وذكر نوح عليه السلام باعتباره أبا البشرية الثاني بعد الطوفان.

وذكر إبراهيم عليه السلام لأن النبوةَ انْتَهَتْ إليه، وَشَجَرَةُ النبوّةِ استَقَرَّتْ عندَهُ، فهو أبو الأنبياء.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٥٢ ـ ٥٦ بتصرف.
وأمّا سنة مؤكدة فلا تجب ولا يأثم الإنسان بتركها، لأنه ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قرأ السجدة التي في (سورة النحل) على المنبر، فنزل وسجد، ثمّ قرأها في الجمعة الأخرى فلم يسجد، ثمّ قال: «إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء، وذلك بحضور الصحابة رضي الله عنهم. (مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد صالح العثيمين، المجلد الرابع عشر، باب: صلاة التطوع).

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: كأنك تقولُ إنه هناكَ شجرةٌ، والشجرةُ لها فروعٌ فهل تَقْصِدُ ذلك؟

الأب: نعم، فقد تَفَرَّعَ من شجرة النُّبُوَّةِ فَرْعان:

الفَرْعُ الإسماعيليُّ: المُتَمَثِّلُ في إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ عليهما الصلاةُ والسلامُ، وهذا الفرع خُتِمَ بخاتَمِ الأنبياءِ والمُرْسَلينَ رسولِ الله ﷺ، سَيِّدِ وَلَدِ إسماعيلَ، بل سَيِّدِ وَلَدِ آدم، بل أَفْضَلِ المخلوقين جَميعاً، وأحبّهم إلى الله.

والفَرْعُ الإسرائيليُّ: المُتَمَثِّلُ بإسرائيلَ ـ يعقوبَ ـ حفيدِ إبراهيمَ عليهما الصلاةُ والسلامُ، وهو أبو بني إسرائيل، وأَصْلُ أَسْبَاطِهِم، وكُلُّ أنبيائهم، من ابنِهِ يعقوبِ حتى عيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام، فهم من ذُرِّيَّةِ إسرائيل ـ وعيسى من ذريةِ يعقوبَ من جِهَةِ الأم، فهو إسرائيلي من جهة الأم، لأنه لا أب له، عليه الصلاة والسلام.

ولهذا الاعتبار ـ والله أعلم ـ ورد ذكر إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عليه السلام في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

الأم: صرّح القرآن بأن الله جعل النبوة في ذرية كل من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

فالله وهَب لإبراهيم عليه السلام كلاً من إسحاق ويعقوب، وكان ذلك بعد عودته من مكة وبناء الكعبة المكرمة مع إسماعيل عليه السلام.

الأب: أتعلمون أمراً؟ إن جميعَ أهلِ الكتابِ يَعْتَرِفون بسيِّدِنا

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٦٠.

(٢) العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧، الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٦٠.

الألوكة
www.alukah.net

إبراهيمَ عليه السلام، وكُلَّهُم يزعمون أنه منهم، فاليهود يقولون إنّه يَهوديّ، والنصارى يعتبرونه نَصْرانياً، ولكنهم بالحقيقة مخطئون. فقد نفى الله ذلك في سورة آل عمران فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾[1].

تُنْكِرُ هذه الآياتُ على أهل الكتاب من اليهود والنصارى جِدَالهم بشأن إبراهيمَ عليه السلام، وتُبْطِلُ انتسابَهم إليه، وتُكَذِّبُهُم في زَعْمِ أنّ إبراهيم منهم[2].

أحمد: أي إنّ جميع الأنبياء أصحابَ الرسالات السماوية هُمْ من أبنائه، فكيف يكون هو تابعاً لهم وقد وُلدوا جميعاً بعد موته بمئات وآلاف السنين؟

الأب: أحسنت. هذا دليلٌ على كذب ادّعائهم.

تابع الأب: إنّ تاريخَهم لم يبدأ منذ إبراهيم عليه السلام وإبراهيم عليه السلام ليس أباهم، وقصّتُهُ ليست قصّتَهم، وَوَعْدُ اللَّهِ له ليس وَعْداً لهم، لأنهم ليسوا «بني إبراهيم» ولا «بني إسحاق»، هم بنو يعقوب أي إسرائيل عليه السلام وصلتهم بإبراهيم عليه السلام كصِلَتِهم بإسماعيل عليه السلام! أليس إسماعيلُ عمّاً ليعقوب؟ أليس هو شقيق أبيه إسحاق؟ فلماذا لا يجعلون تاريخه تاريخاً لهم، مع أنه عمٌّ لأبيهم؟

الأم: لذا حياةُ يعقوبَ عليه السلام من خلالِ الآياتِ والأحاديثِ لا تتحدّثُ عن حياته سوى إنه ولد في الأرض المقدّسة فلسطين، ونشأ وشبَّ فيها،

---

(١) آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٥٥.

الألوكة
www.alukah.net

وكانت ولادتُهُ وطفولتُهُ في حياة جدِّهِ إبراهيمَ عليه السلام. وتزوّجَ وأَنْجَبَ أبناءَه وهو في الأرض المقدّسةِ. وأبناؤه الذكورُ اثنا عشر ولداً، نعرف منهم نبي الله يوسف عليه السلام، لأنه مذكور في القرآن والسنَّة، أما أسماءُ الآخرين الأحد عشر، فلا نجزم بها لعدم ورودها في أحاديث صحيحة، ونتوقف في القول بها، رغم ورودها في اليهوديات وفي أسفار العهد القديم[1].

وكان يعقوب عليه السلام مقيماً مع أبنائه في «البدو» كما ورد في صريح القرآن[2].

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[3].

جميل: وما كان دين يعقوب عليه السلام؟

الوالدانِ كلاهُما في صوْتٍ واحد: دينُ الإسلامِ وهو دينُ جميعِ الأنبياءِ والمُرْسَلين جَميعاً.

ضحك الجميع.

وقالت الأم لزوجها: تفضل وأخبرنا عن دين الإسلام.

الأب: لقد جاءت آياتُ سورةِ البقرة صريحةً في تَبْرِئةِ هؤلاءِ الأنبياءِ من تُهْمَةِ اليَهودية أو النُّصْرانية، وتُقَرّر حقيقةَ دينِهم أنه الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۚ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الأول، ص٤٥٥.
(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٦٣ ـ ٦٤.
(٣) يوسف: ١٠٠.

الألوكة
www.alukah.net

لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

الأم: تَكَلَّمنا عن ما يتعلقُ بإبراهيمَ عليه السلام في هذه الآيات، إنها تُقرِّرُ أن الإسلام هو دين يعقوب عليه السلام، الذي عاش عليه، والذي مات عليه. فهي تخبرنا وصيته لأولاده بالمحافظة على طاعة الله والإيمان الجازم به، وتخبرنا أن جميع الأنبياء مسلمون، فهو ليس فقط الإسلام الذي أُطْلِقَ على رسالة ودين محمد ﷺ، والذي نَسَخَ اللَّهُ به الرسالاتِ والشرائعَ السابقة[2].

تابعت الأم كلامها: إنّما يرادُ به الإسلام بالمعنى العام، وهو الخضوع والاستسلام لله، وإخضاع الآخرين وتعبيدهم لله[3].

الأب: أحسنتِ، دينُ يعقوبَ هو الإسلامُ أيُ الخضوعُ والاستسلامُ لِمَنْهَجِ الله تعالى، الدين الذي شرعه الله ﷻ لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهذا لا يمنع أن تكون لسيدنا يعقوب عليه السلام شريعةٌ خاصة به طبّقها على أولاده وقومه، قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[4]، وسنرى هذا في قصة يوسف عليه السلام[5].

---

(١) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٦.
(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٦٧. (بتصرف).
(٣) المرجع السابق، ص٦٧.
(٤) المائدة: ٤٨.
(٥) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٦٧.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: وهذا ما وصّى به سيدُنا يعقوبُ عليه السلام أولادَهُ، وقد كان حريصاً على تنشِئَةِ أبنائِهِ على الإسلام ـ الاِسْتِسْلام لمنهَجِ الله تعالى ـ وإخبارهم أن الله قد اصطفاه وَرِضَيَهُ ديناً، وكان يوصيهم بالإسلام والثبات عليه، والحياةَ به والموتَ عليه[1].

سامي: لأجل ذلك نقول في أذكار الصباح رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً[2].

صفق الجميع لسامي أحسنت أحسنت قال الأب: تستحق جائزة لأجل ذلك أبشر فلك مني جائزة ذكرني بها اتفقنا؟

فرح الجميع بما ردّده سامي وردّدوه جميعاً معه وأنهت الأم كلامَها بقولِها: نعم هذا ما أوصى به سيدنا يعقوب عليه السلام أولاده وهو على فراش الموت، وكان وقتها مع يوسف في مصر أوْصاهم الالتزامَ حتى يلتزموا بدين الإسلام، فسألهم: ما ستعبدون من بعدي؟ أجابوا: سنعبد ربّ العالمين، وحده، فهو إلٰهنا، لأنه إلٰهك وإلٰه الأنبياء من قبلك: جدك إبراهيم، وعمّك إسماعيل، ووالدك إسحاق، إنه إلٰه واحد، لا شريك له، ونحن له مسلمون: مستسلمون لله، خاضعون لله، داخلون في دين الله، ملتزمون بطاعة الله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، لقد جاءت هذه الآيات لليهود والنصارى لتثبت لهم أنّ سيدنا يعقوب عليه السلام كان مسلماً.

الأب: هم كاذبون، لأن هؤلاء الأنبياء جميعاً كانوا مسلمين لله تعالى.

* * * * * *

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٦٨.

(٢) هذا حديث يرويه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري، رواه أبو داود، برقم ١٥٢٩، والنسائي.

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

سيِّدُنا يوسف عليه السلام

الأمّ: نأتي الآنَ إلى قِصَّةِ سَيِّدِنا يُوسُفَ عليه السلام.

الأبُ: قبل أن نبدأ القِصَّةَ فلْنَشْرَبْ شَيْئاً مِنَ العَصيرِ.

الأولادُ: نحن جائعون.

الأبُ: حسنٌ. إذنْ نَقُومُ أنا وأمُّكم إلى المطبخِ. هي تَصْنعُ لَكُمُ الشَّطائِرَ اللَّذِيذةَ، وأنا أَصْنَعُ لكم شراب الليمون.

جميل: ونحنُ ماذا نَفْعَلُ؟

الأب: تَسْتَمْتِعُونَ بِهُدُوءِ اللّيلِ ومنظرِهِ الجَميل.

جميل: إذَنْ أرجُو أَنْ تَتَذكَرَ أني أحبُّ شرابَ الليمون كثيرَ السُّكَّر.

دَخَلَ الأَبَوانِ لِيُنْهِيا ما ٱتفقَا عَليهِ مَعَ الأولادِ. قال الأبُ: ما رَأْيُك؟

الأم: بماذا؟ لَقَدْ عَلِمتُ أَنَّكَ تَذَرّعْتَ بالعَصيرِ لِتقُولَ شَيْئاً.

اِبْتَسَمَ الأَبُ وقال: ما رَأيُك لَوْ نَقُومُ بِرِحْلَةٍ طَويلَةٍ نُفاجِئُ بها الأوْلاد؟

الأم: إلى أَيْن؟

الأب: إلى مِصرَ مثلاً.

الأم: فكرةٌ جَيِّدةٌ، وَلَكِنْ أَتَمَنّى أن تكونَ برِّيَّةً.

الألوكة
www.alukah.net

الأب: لماذا؟

الأم: لِأَنّ الطَريقَ البَرّيّةَ إِلَيْها تَمُرُّ عَبْرَ الأُرْدُنّ حَيْثُ كانَ يعيشُ نبيُّ الله شعيبٌ، ثُم تَنْتَقِلُ إلى صحراءِ سِيناءَ، وَرُبَّما وَصَلْنا إليها عَبْرَ البَحْرِ، فَنُشاهِدُ الأَماكِنَ التي تَشَرَّفَتْ بِسَيْرِ سَيِّدِنا مُوسى عليه السلام فيها.

الأبُ: اتّفَقْنا إذاً. سَأبدأُ مُنذُ الغدِ بِتَجْهِيْزِ الأَوْراقِ اللازمةِ إنْ شاءَ اللَّهُ.

انْتَهيا مِن عَمَلِهما في المَطْبَخِ ثُم عادا إلى الحَديقَةِ. أَخَذَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الأَوْلادِ لُفافَتَهُ وَكُوْبَهُ، وَٱنْشَغَلوا بالطَّعامِ والشّرابِ. فجأةً قال أَحمدُ: أنا أَعْلَمُ أَنَّ أبي تَعَلَّلَ بالشّرابِ، لِتَدْخُلا إلى المَطْبَخِ، أَيْ لِتَكُونا بعيداً عنّا، لأَنَّهُ يُفَكِّر بِشَيْءٍ ما، لا يُريدُ أن يُخْبِرَنا به.

الأبُ: كَيْفَ عَرَفْتَ؟

أحمد: أَلا تَعْلَمُ أَنّي مَوْهُوبٌ في قِراءَةِ الأَفكارِ؟ هل تَظُنُّنِي صَغيراً؟ أَلَمْ تَكُنْ مُنذُ قليلٍ في زيارةِ صديقِكَ المَريض؟ أَلَمْ يُضَيِّفوكَ بَعضَ الشَّرابِ؟ أنتَ إذاً غَيْرُ مُحتاجٍ له لِتَقُومَ بِنَفْسِكَ وَتَصْنَعَهُ، وَلَكِنِ ٱتَّخَذْتَهُ حُجَّةً لِلِابْتِعادِ مَعَ أُمّي.

ضَحِكَ الأَبَوانِ لِفِراسَةِ ٱبْنِهِما وَذَكائِهِ. ثُمّ قال الأبُ: هذا تَحْليلٌ صَحيحٌ، وَلَيْسَ فِراسَةً ولا قِراءَةَ أفكارٍ. حقاً كُنْتُ أريدُ أَنْ أقولَ لها شَيْئاً سِرِّيّاً.

الأولاد: ما هو؟

الأب: لا، لَنْ أُخْبِرَكُمْ بِهِ. هو مُفاجَأةٌ، سَتَعْرِفونَها في حِيْنِها.

سكتَ الأولادُ على مَضَضٍ، فَهُمْ قَدْ فَهِموا أَنَّ الكلامَ السّرِّيَّ يَخُصُّهم، وَلَكِنْ لَنْ يَسْتَطيعوا دَفْعَ أَبِيْهِم لِلبَوْحِ بِه.

الأمُّ: **نَعودُ الآنَ إلى قِصةِ سيِّدِنا يُوسُفَ: الكَريمِ ٱبْنِ الكَريمِ.**

الألوكة
www.alukah.net

جميل: ولماذا قُلتِ: «الكريمِ ابنِ الكريمِ»؟

الأم: عن أبي هُرَيرةَ ﷺ؛ قال: قيلَ يا رسولَ اللَّهِ! مَنْ أَكْرَمُ الناسِ؟ قال: «أَتْقاهُم». قالوا: لَيْسَ عَنْ هذا نَسْأَلُك. قال: «فيوسُفُ نبيُّ اللَّهِ، ابنِ نبيِ اللَّهِ، ابنُ نبيِّ اللَّهِ، ابنِ خَليلِ اللَّهِ»(١).

وروى البخاري أيضاً عن عبدالله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»(٢).

تابعتِ الأمُّ كلامَها: لَوْ نَظَرْنا في القُرآنِ الكريم لِنَتَحَرّى ما ذُكِرَ عَنْ قِصَّةِ هذا النَّبِيِّ الكريم، فسنجدُه مذكوراً في ثلاثِ سُوَرٍ: «الأَنعام» و«يوسف» و«غافِر»، إلا أَنَّ ما تذكره سورتا «الأنعام» و«غافر» هو تقريرُ وجودِ نبيٍّ يَحْمِلُ ٱسْمَ «يوسُف». جاء في السُّورةِ الأولى قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾(٣)، ووَرَدَ في السُّورةِ الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾(٤).

وأما سورةُ يوسفُ فهي التي خصَّصَها اللَّهُ سبْحانه وتعالى للحديث عنه لِيُعَرِّفنا على قِصَّةِ هذا النَّبيِّ بِشَكْلٍ مُتَكامِلٍ؛ وهو النَّبيُّ الوَحِيدُ الذي ذُكِرَتْ قَصَّتُه في سورةٍ واحِدَةٍ. فجميعُ الرُّسُلِ قِصصُهم مُوَزّعةٌ على أعدادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ السُّوَرِ، وَلِمَعْرِفَتِها بِشَكلٍ صحيحٍ يَجِبُ قراءةُ عددٍ لا بأس به من السُّوَرِ، مَصْحُوبَةً بِٱلتَّفَكُّرِ وَالتَّمعُّنِ.

واللافِتُ للنَّظَرِ في هذهِ السُّورةِ(٥) أَنها «مَكِّيَّةٌ»، بعكس ما يتبادَرُ إلى الأَذْهانِ.

---

(١) صحيح البخاري، برقم ٣٣٥٣، وصحيح مسلم، برقم ٢٣٧٨.
(٢) أخرجه البخاري، برقم ٣٣٨٢.
(٣) يوسف: ٨٤.
(٤) يوسف: ٢٤.
(٥) سورة يوسف.

الألوكة
www.alukah.net

اِسْتَغْرَبَ الأَوْلادُ هذِهِ الكَلِمَةَ «مَكِّيّة». وَلَكنّ سامي كان الأَسْرَعَ بالسّؤالِ: ماذا تَقْصِدينَ بـ «مكّيّة»؟

الأمُّ: حَسَنٌ. سَأُجِيْبُكُمْ عنها مَعَ اعْتِقادي بِأَنَّكُمْ لا بُدَّ وَأَنْ تكونوا تَعَلَّمْتُموها في المدرسَةِ! إنّ سُورَ القُرآنِ وآياتِهِ تَنْقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ أساسِيَّيْنِ: مَكِّيّ ومَدَنِيّ. فالسُّورُ المكّيّةُ التي تنزّلت قبل الهجرة سواء نزلت في مكة أو غيرها وسميت مكيّة نسبة إلى مكة، وَهِيَ السُّوَرُ التي يَغْلُبُ عليها المَقْصِدُ الأوَّل مِنَ الدِّين، وهو تَوْحِيدُ اللَّهِ تعالى، وإقامَةُ البراهينِ على وُجودِهِ وَهَدْمُ قواعِدِ الشِّرْكِ، والحثُّ على تَطْهيرِ القُلوبِ مِنَ الرَّذائِلِ، والتَّحلّي بِمَكارِمِ الأخْلاقِ. وَالسَّوَرُ المَدَنِيَّةُ هي المُبَيِّنَةُ لِلتَّشْرِيعِ ولِلْفَرائِضِ وَالحُدودِ ـ المَقصَدُ الثاني من الدِّينِ ـ وهي التي تَنَزَّلت بعد الهجرة سواء كان نزولها في المدينة أو في غيرها. وسُمِّيَتْ مَدَنِيّة نسبة إلى المدينة[1].

جميل: وَلِماذا أَنْزَلَ اللَّهُ تعالى هذه السّورةَ في مَكَّةَ؟

الأمُّ: لِيثبِّتَ بها إيمانَ الصحابةِ من خلال الحديثِ عن قدرَةِ الله تعالى في مَخْلوقاته، ولِيُسَلِّيَ رَسُولَهُ الحَبِيبَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ، ويُواسِيَهُ بِسَبَبِ ما يَفْعَلُ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ تَكْذِيْبٍ واتّهامٍ بالجُنونِ أَوِ السِّحْرِ، وَلِيُسَرِّيَ عَنْهُ حُزْنَهُ بِسَبَبِ وَفاةِ زَوْجَتِهِ المُخْلِصَةِ المُؤْمِنَةِ المُؤَيِّدَةِ لَهُ خَديجَةَ بنتِ خُوَيْلِد، وَعَمِّهِ أبي طالِبٍ الذي كان يَدْعَمُهُ وَيَحْمِيهِ مِنْ أَذى قُرَيْشٍ.

سامي: وَهَلْ ماتَتْ زَوْجَتُهُ وَعَمُّه في عامٍ واحِدٍ؟

ـ أَجَلْ وَقَدْ سُمِّيَ «بعامِ الحُزْنِ»، لأنَّ الصَّحابَةَ جميعاً أُصِيْبوا بالحُزْنِ لِفَقْدِهِما.

الأم: ومن السُّوَرِ التي نَزَلَتْ في هذه الفترةِ، وهذا الجوِّ المكروبِ، سُوَرُ: الأنعام، ويونس، وهود، وإبراهيم، والحِجْر، وكانت سورةُ يوسفَ

---

(١) السبكي، السايس، البربري، تاريخ التشريع الإسلامي، ط٢، دمشق ـ دار العصماء، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٦٥ ـ ٦٦.

الألوكة
www.alukah.net

نازلةً في هذه الفترة، التي استَمَرَّتْ عدّةَ سنوات، بهدفِ تقويةِ معْنَوِيَّاتِ وعزائمِ المسلمين، ومؤانَسَةِ ومواساةِ الرسولِ ﷺ، وَمُواجَهَةِ أفكارِ وشُبُهاتِ وإيذاءات الكفار، وكانت هذه السُّوَرُ تقدّمُ للمسلمين الأملَ والزادَ واليقينَ[1].

وبِالمُناسَبَةِ، هذا النَّبِيُّ أيضاً لم يَتَنَزَّلْ عَلَيْهِ كتابٌ سماوِيٌّ، أيْ إنَّهُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ بِتَبْلِيْغِ شَرْعٍ جديدٍ، وَلَكِنَّهُ نَبِيٌّ يَدْعو النّاسَ مِنْ خِلال كِتابٍ أُنزِلَ على مَنْ قَبْلَهُ؛ والكتابُ هنا هو صُحُفُ إبراهيمَ التي لم يَعُدْ لها وجودٌ ٱلْيَوْمَ.

ولا ندري كم كان عُمْرُ سيِّدِنا «يعقوبَ» عندما رُزِقَ «بيوسُفَ»، وكانَ أجملَ مَوْلُودٍ في زمانِهِ قال رسول الله ﷺ: «**أعطي يوسف شطر الحسن**»[2]، وما زال حتى اليومَ يُضْرَبُ المَثَلُ بجَمالِهِ الذي تَسَبَّبَ له بالكثير مِنَ المشكلات والمَصائِبِ.

لَقَدْ أحبَّهُ أبوهُ كَثيراً، مِمّا جَلَب له حَسَدَ إِخْوتِهِ وَغَيْرَتِهِمُ، التي ٱنْقَلَبَتْ فيما بَعدُ حِقْداً وكَراهِيَةً. وكانت نَتِيْجَةَ ذلك أَنْ دَبَّروا لَهُ مكيدةً لِيَتَخَلَّصوا منه.

لهذا نهى رَسُولُنا الكريمُ أَنْ يُفَضِّلَ الآباءُ وَلداً مِنْ أولادِهِم على بقيَّةِ إِخْوَتِهِ، فَقَدْ «حَدَّثَ النُّعْمانُ بنُ بَشيرٍ أنَّ أباهُ ٱنْطَلَقَ بِهِ إلى رسولِ الله ﷺ يَحْمِلُهُ، فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ إنّي أُشْهِدُكَ أنّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعمانَ كذا وكذا، فقال: «**أكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ؟**» قال: لا، قال: «**فأشهِدْ غَيْري**»، ثم قال: «**أَلَيسَ يَسُرُّكَ أن يكونوا في البِرِّ سَواءً؟**» فقال: بلى. قال: «**فلا إذَنْ**»[3].

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٧٦.

(٢) رواه البخاري برقم: ٧٥١٧. ومسلم برقم: ١٦٢ .

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، ٥١ كتاب الهبة، ١٢ باب الهبة للولد، برقم ٢٥٨٦، ومسلم، كتاب الوصايا والصدقة، باب من نخل بعض ولده دون سائر بنيه، برقم ١٧٠.

الألوكة
www.alukah.net

قصةُ يوسفَ قصةٌ قرآنيةٌ مباركةٌ، وقد وصَفَها اللَّهُ بأنها أَحْسَنُ القَصَصِ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[1]، وهي تَبدأُ بِذِكْرِ الرُّؤْيا التي رآها سيِّدُنا يوسُفُ ـ الغُلامُ ـ الذي لا نَعْرِفُ تَرْتِيبَهُ بَيْنَ إِخْوَتِهِ، والتي رواها لِأَبِيْهِ لِيُؤَوِّلَها لَهُ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[2].

ولكن أباه خاف عَلَيهِ، لأَنَّهُ فَهِمَ تأويلَ هذِهِ الرؤيا، فَتَأْوِيل الرُّؤى مِنْ دَلائِلِ النُّبُوَّةِ. وقد قال رسول الله ﷺ: «**رُؤْيا المُؤمنِ جزءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ**»[3]، وكانَ خَوْفُه ناجِماً مِنْ حَسَدِ إِخْوَتِهِ لَهُ، فَهُوَ يَعْرِفُ كَمْ يَحْسِدُهُ إِخْوَتُهُ وَيَغارونَ مِنْهُ وَ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾[4]، وفي ٱلْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنِ الإِخْوَةُ مُحْتاجِيْنَ سَماعَ هذا الحُلُمِ لِيُدَبِّروا له كَيْداً. فقد كانوا يُريدونَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ، يُريدونَ مَوْتَهُ واْخْتِفاءَهُ مِنَ الوُجُودِ، لِيَسْتَعِيدوا حُبَّ أَبِيْهِمْ. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾[5].

جميل: لَقَدْ كانوا يَعْتَقِدونَ أَنَّ أباهُم يُحِبُّ يوسُفَ وَأَخاهُ فَقَطْ.

الأم: لقد أساؤوا تفسيرَ اهتمامِ أبيهم بأَخَوَيْهم الصَّغيرَيْنِ، حيث اعتبروا هذا انحِيازاً من الأَبِ لصَغِيرَيْهِ، ومحبةً لهما، وإهمالاً منه لأبنائه العَشَرَةِ الكبار، وعَدَمَ محبةٍ منه لهم.

صحيحٌ أن يعقوبَ عليه السلام يُبْدي اهتماماً أكثَرَ بيوسفَ وأخيه، لحاجَتِهما إلى ذلك، فهما صغيران. أما الأبناءُ الكبارُ فقد كَبِروا وشَبّوا،

---

(١) يوسف: ٣.
(٢) يوسف: ٤.
(٣) أخرجه البخاري، برقم ٦٩٨٧، ومسلم، برقم ٢٢٦٤.
(٤) يوسف: ٥.
(٥) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٩٢ ـ ٩٣.

الألوكة
www.alukah.net

ولهذا لا يَحْتاجون إلى مَزيدٍ من العنايةِ والرعايةِ، وإظهارِ المحبةِ والاهتمامِ.

وهذه ناحيةٌ إنسانيةٌ معروفةٌ، فكلُّ أَبٍ ـ ولو لم يَكُنْ نبياً ـ يَهْتَمُّ بأولادِهِ الصغارِ أكثرَ، وَيُظْهِرُ لهم مزيداً من الحبِّ والرِّعاية.

ولقد قيلَ لامرأة: أيُّ أولادك أحبُّ إليك؟

قالت: الصغير حتى يَكْبُرَ. والمريض حتى يَشْفى، والمسافرُ حتى يعود.

ولو بحث الإخوةُ المسألةَ على هذا الأساسِ، لخَرَجوا بهذه النتيجةِ، ولما اتَّهَمُوا أباهم، ولما حقدوا على أخيهم.

لكنهم استَسْلَموا لوَسْوَسَةِ الشيطانِ، وصَدَّقوا تعليلَهُ الشيطانيَّ وَاسْتَلَموا لنفسِهم الأمارةِ بالسوء، فكانوا نموذجاً بَشَرياً للكَيْد والحِقْد، والمَكْرِ والتآمُرِ، والحَسَدِ وسوءِ الظَّنّ، وخَطَأ النظرِ وضلالِ الحُكْم، والكَذبِ والافْتِراءِ. هُمُ اليهودُ اليومُ إنّهُم أصولُ وأجدادُ بني إسرائيل[1].

وبدت الدهشة على وجوه الأولاد! وفتح جميل فمه وكأنه يُريدُ أن يُعلِّقَ بشيْءٍ، لكنّ الأم تابعت حديثها:

الأم: لقد كان يوسفُ يَمْتَلِكُ مواصفاتٍ أَكْثَرَ، وعلى ما أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ كانوا يَعْتَقِدونَ أَنَّ أباهُم سَيُوصي لَهُ بِالنُّبُوّةِ، وَكَأَنّها مِمّا يُمْكِنُ تَوارُثُه. لم يَعْلَموا أنّها مِنْحَةٌ إلٰهية، فالنُّبُوَّةُ لا تأتي بِسَعْيِ الإِنْسانِ وَطَلَبِهِ، لا بالصَّلاحِ وَلا بِالاِجْتِهادِ ولا بالواسِطَةِ، ولكنَّ اللَّهَ هو الذي يَخْتارُ مَنْ يَشاءُ لِهذِهِ المَهَمَّةِ وهذا ما يُقَرِّرُهُ اللَّهُ في القُرآنِ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]. لقدِ اعتَقَدوا ذلك لأنّهم كانوا يُشاهِدون بِأَنْفُسِهِم مدى

---

(١) يوسف: ٧ ـ ٨.

(٢) الحج: ٧٥.

الألوكة
www.alukah.net

الِاهْتِمام من أبيهم بيوسف والحرص عليه، لهذا ٱشْتَدَّ غَيْظُهُمْ على يوسُف، وراحوا يُفَكِّرون في الطَّريقة التي تُخَلِّصُهُم مِنْهُ، وَتُعِيدُ إِلَيْهِم حُبَّ أبيْهِم. وَقَدْ جَاءَتْهُمُ الفِكرَةُ ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾[1].

لا نَعلَمُ مَنِ الذي أَوْحى إليهم بهذه الفِكرةِ، هل هو واحِدٌ مِنْهم؟ أَمْ هُوَ الشَّيْطانُ؟ لم يُحدِّدِ القُرآنُ ذلك، ولكنَّهُ ذَكَر فيما بَعْدُ أنّ واحداً مِنْهم وَجَّهَهُم لحلٍّ أَفْضَلَ، إذ إنّ مَنْ يَقْتُلْ أخاهُ عَمْداً عُدْواناً فَلن يُصْبِحَ صالِحاً على الإطلاقِ، بل ستظلُّ جريمتُه تُلاحِقُه في يَقْظَتِهِ ومَنامِهِ، وَسَتَكُونُ لَعْنَةً عليهِ إلى يومِ القِيامَةِ، كما حَدَثَ لٱبنِ آدمَ عندما قَتَلَ أخاهُ. هل تَذْكُرون قِصَّتَهُ؟

أحمد: أَجَلْ، نَذْكُرُها ونذكر أيضاً أنَّ الرسول ﷺ قال عن هذا القاتِلِ إنَّه سيُلقَى عليه وِزْرُ جَريمَتِهِ، وَأَوْزارُ كُلِّ جرائم القتل التي تحصَلُ بَعدَهُ، لِأَنَّهُ هو الذي أول من سَنّ القتل.

قال ﷺ: «**لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دَمِها لأنه كان أولَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ**»[2].

الأم: دُوْنَ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهِمْ شَيءٌ. لا تنس هذا.

جميل: أجلْ. هذا صحيحٌ.

سامي: وما هو الحَلُّ الذي ٱقْتَرَحَهُ أحدُهم؟

الأم: لَقَدْ نَصَحَهُمْ أَنْ يَرمُوا يوسف في البِئْرِ، لَعَلَّه يَحْظى بِمَنْ يُخَلِّصُهُ وَيَأْخُذُهُ. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[3]. ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: قَعْرُ البئرِ التي لم تُطْوَ،

---

(١) يوسف: ٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل، برقم ٧٦٧٧.

(٣) يوسف: ١٠.

الألوكة
www.alukah.net

ولم تُبْنَ بالحِجارة. وغَيابةُ الشيءِ: أسفَلُهُ وقَعْرُهُ.

والجُبُّ: البِئْرُ المحفورَةُ في الأرض، وسُمِّيَ «جُبّاً» لأنها مأخوذة من «الجُبِّ» وهو القَطْعُ. حَيْثُ تُحفَرُ الأرضُ، وتُقْطَعُ قِطَعاً، وتُشَقُّ شَقّاً.

إنَّ غَيَابَةَ الجُبِّ التي اتّفقُوا على إلقاءِ يوسُفَ فيها هي قَعْرُ تلك البِئْرِ المُظْلِمَةِ البعيدة[1].

جميل: السّيّارة، وَهَلْ تَسْتَطيعُ السَّيّارةُ أَنْ تَلْتَقِطَ أَحَداً؟

أحمد: لا، إنَّ هذِه لَفْظَةٌ مَجازِيَّة تُسَمّى مَجازاً مُرْسَلاً، إذ لَمْ يَكُنْ في ذلك الوَقْتِ سيّارات، التي نَعْرِفُها اليومَ. والمَقْصودُ بها القافلةُ المُسافِرَةُ التي تَسيْرُ في الأرْضِ مِن بَلدٍ إلى بَلدٍ، وتَتَكَوَّنُ من مَجْموعةٍ من الرِّجالِ المسافرينَ الذين يَرْكبونَ على دَوابِّهم.

سامي: لَوِ ٱفْتَرضنا أنَّ واحِدةً مِنْ هذِهِ القَوافِلِ ٱلتَقَطَتْ «يوسُفَ» عليه السلام، وَأَخْرَجَتْهُ مِنَ البِئْرِ، فَهُوَ سَيَعود إلى أَبيهِ حَتْماً، فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ مِنْهُ إِخْوتُهُ وَيَرْتاحوا؟

الأمُّ: في تِلكَ الأَيّام كانت تِجارَةُ الرَّقِيقِ رَائِجَةً وَمُنْتَشِرَةً بِشَكْلٍ واسِعٍ، وَالرّقِيقُ هُمُ العَبيدُ الذينَ يَشْتَرِيْهِمُ الأَغْنِياءُ فَيُصْبِحونَ مُلْكاً لَهُمْ. لذا، فَقَدِ ٱفْتَرَضَ الإِخْوَةُ أَنَّ يوسُفَ سَوْفَ يَجِدُ مَنْ يُخَلِّصُهُ وَيَبِيعُهُ.

سامي: وماذا حَدَثَ؟

الأم: ذهبُوا إلى أَبيهِم، وطَلَبوا منه أن يَسْمَحَ لهم بآصْطِحابِ يوسُفَ، لِيَلْعَبَ مَعَهُم، وكانوا يُظْهِرون الشَّفَقَةَ ـ الكاذبة ـ على الغلام، الذي يَجْعَلُهُ أَبوه إلى جانِبِه، وَيَمْنَعُهُ من الخُروج لِشِدَّةِ خَوْفِهِ عليه، فأجابَهُم أبوهم أَنَّهُ يخافُ على ٱبْنِهِ من الضَّياعِ، فَطَمأْنوه أَنَّهم سَيَنْتَبِهون لَهُ، وسَيَكونونَ مُهْتَمِّينَ بِهِ جِداً، وحريصين على حمايَتِه. قال إني أخاف أن تَنْسَوْهُ إذا بَدَأْتُم بالسِّباقِ

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٩٥.

الألوكة
www.alukah.net

فيأكلَهُ الذِّئْبُ. فاحْتَجّوا على هذا الكلام وقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾[1]، وكرّروا رجاءَهم حتى نَجحوا في إِقْناع أَبِيْهم. فَأَخَذوا أَخاهُم إلى السَّهل، وهم يُظْهِرون السَّعادَةَ بانْطِلاء حِيلَتِهِمْ على أبِيْهم. ولمَّا وَصَلوا البئرَ التي على طريقِ المسافرين ألْقُوا يوسف فيها، وتَرَكوه وَحيداً، وغادَرُوا المكان.

سامي: مسكين «يوسفُ»، أهكذا يُؤْذي الإِخوةُ بَعْضَهم! لَقَدْ سَبَّبُوا لَهُ الخَوْفَ الشَّديدَ!!

الأم: أتَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى يَسْمَحُ لِلْخَوْفِ والفَزَعِ أَنْ يَغْزُوَا قَلْبَ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ! لقد قال تعالى في كتابِهِ الكريم: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾[2]. وقال أيضاً في سُورةِ الأحقافِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾[3]، أوحى الله ﷻ إليهِ أَنَّهُ سَيُنْقِذُهُ وَيُعَلِّمُهُ تَأْوِيلَ الأَحْلام، وَسَيُحَقِّقُ لَهُ حُلُمَهُ الذي كانَ السَّبَبَ المُباشِرَ لِلْمُشْكِلَةِ وسَيُخْبِرُهُم بما فعَلَوه به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾[4].

سامي: وماذا فَعَلَ إِخْوَتُهُ المجرِمونَ؟

الأم: ظَلّوا في السَّهْلِ يَلْعَبونَ بِانْتِظارِ حُلولِ اللَّيلِ لِيُخْبِرُوا أَباهم بما جرى. وَلَطَّخوا قميصَ يوسف بِدَمٍ كَذِب.

---

(١) يوسف: ١١ ـ ١٤.
دلّوه: أنزلوه.
(٢) الزّمر: ٦١.
(٣) الأحقاف: ١٣.
(٤) يوسف: ١٥.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: ولماذا ٱنتَظروا الليلَ؟

الأم: حتّى لا يَتَمَكَّنَ أَبوهُم مِنْ مُلاحَظَةِ الكَذِبِ الذي سَيَظْهَرُ في مَلامِحِ وُجوهِهِمْ وَنَظَراتِ عُيونِهم، وهذا ما يُسَمَّى بعِلْمِ الفِراسة، وهو من سمات النُّبُوّة.

أحمد: عِلْمُ الفِراسَةِ؟

الأم: هو إلهامٌ مِن اللَّهِ يَقْذِفُهُ في قلوبِ عِبادِهِ الصّالحين، فَيَتَمَكَّنونَ بِهِ مِنْ النَّظَرِ مَعْرِفَةَ الباطِنِ مِنَ النَّظَرِ إلى الظّاهِرِ.

سامي: وما عَلاقَةُ «عِلم الفِراسَةِ» بِمَجيء الأوْلادِ إلى أَبِيْهِم ليلاً؟

الأم: لَمْ تَكُنِ المَصابِيْحُ الكَهْرَبائِيَّةُ مَعْروفَةً في تلك الأيّام، فكانوا يَعْتَمدون في الإنارَةِ على السُّرُجِ والفَتائِل[1]، وغَيْرِها من الوَسائِلِ التي لا تُنِيْرُ بشكل واضِحٍ، لِهذا لا يَسْتَطيعُ أحدٌ أَنْ يَتَبَيَّنَ الأَشْياءَ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، ولا سِيّما إذا كانَ هذا الشَّخْصُ غاضِباً أَوْ خائِفاً.

جميل: يا لَهُمْ مِنْ أَذْكِياء!

الأم: وَلَكِنَّهُم لِلأَسَفِ أَعْمَلوا ذَكاءَهُم في الشَّرِّ، وكان واجِباً عليهِمْ تَوْجِيهُهُ إلى ناحِيَةِ الخَيْرِ، وَنَسُوا أنّ اللَّهَ يُلْهِمُ نَبِيَّهُ، وَيُخْبِرُهُ بِحَقائِقِ الأُمورِ لَيْلاً وَنَهاراً.

سامي: وماذا قالوا لأبيهِم؟

الأم: كَذبوا عليهِ، وقالوا له وهُمْ يَبْكونَ إِنَّ أخاهُم يوسُفَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَلَمّا لم يَكنْ أبوهم مُصدِّقاً لهم أَحْضَروا مَعَهُمْ ما يُثْبِتُ كَلامَهم، قَميصَ يوسفَ المُلوَّثَ بِدَمِه، وأظهروا القميصَ وَأَرَوْهُ إيّاهُ. أَخَذَ الأَبُ القَميصَ وَعَلِم أَنَّ أَبْناءَهُ كاذِبونَ، وأنّهم قَدْ آذَوْا أخاهُم، فقال: ﴿فَصَبْرٌ

---

(١) الفتائل: جمع فتيل، والسُّرج: جمع سراج نوع قديم من المصابيح.
الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٠٣.

الألوكة
www.alukah.net

جَمِيلٌۖ﴾. وقد وَصَفَ القُرآنُ الكريم هذا المَوقِفَ وَصْفاً دَقِيقاً، مُعَبِّراً عَنِ الحالةِ النَّفْسِيَّةِ للأَبْناءِ الكاذبينَ وحالةِ الأَبِ المُحْتَسِبِ الصّابِرِ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾[1]، قالوا: يا أبانا، تَرَكْنا الغنَمَ والماشيةَ تَرْعى، وأَرَدْنا أن نلعَبَ ونمرَحَ ونركُضَ. فَجَمَعْنا متاعَنا وأغراضَنا وأشياءَنا، ووضعناها، ولأنّ أخانا يوسفَ صغيرٌ لا يقدِرُ على الجَرْيِ والرَّكْضِ، ومتابَعَتِنا في السِّباقِ، فقد تركْناهُ عند متاعِنا، وأجْلَسْناهُ هُناك.

ولمَّا ذهَبْنا نتسابقُ، وقطَعْنا في السِّباق شَوْطاً بَعيداً، جاء ذئبٌ مُفْتَرِسٌ، فانْفَرَدَ بيوسفَ وافْترسَه وأكله، وفوجئنا نحن بذلك، وأردنا تخليصَهُ وإنقاذَه، لكن الذئبَ كان أسبقَ مِنّا إليه، فلم نجد من يوسف إلا قميصَه، وعليه آثارُ الدماء، فأتيناك يا أبانا بهذا القميص: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾.

لقد كان تَبْريرُهُم مَرْفوضاً، وحيلتُهم مَكْشوفةً، وكذِبُهُم واضِحاً، فلم يُحْسِنوا الكلامَ والتبرير!!

حَذَّرَهم أبوهم في الصَّباحِ من أكل الذئب له، فادّعُوا في المساء أن الذئبَ قد أَكَلَه! لماذا لم يُخْبروه كذبَةً أخرى؟ قد تكونُ أدعى للقَبولِ عنْدَ أبيهم وأهلِهم؟

تسرَّعَ القوْمُ في ارتكابِ جَريمتِهم، وتسرّعوا في كلامِهم وادِّعائِهم، وتسرّعوا في اتّهامِ الذئب، وتسرّعوا في إحضار قميصه، بعد أن تسرَّعوا في تلطيخه بدماء أخرى، غير دماء يوسف!

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾. وقد وُصِفَ الدَّمُ في الآية بأنه

---

(١) يوسف: ١٦ ـ ١٨.

الألوكة
www.alukah.net

كَذِب، لأن هذا الدَّمَ على القميص غيرُ حقيقيٍّ، فهو ليس دمَ يوسف، وإنما ذَم ذبيحٍ آخر، وهو يَكْشِفُ كذبَ المتآمرين.

ولعلّ القميصَ الذي أحضَروه، كان سليماً غير مُمَزَّقٍ، ولعلَّ تَلْطيخَهُ بدماء الذبيحةِ كان مُتَسرّعاً غَيْرُ مُتْقَنٍ، ولَعَلّ أباهم لاحَظَ كُلَّ هذا، فوقَفَ على كَذِبِهم في كلامِهِم وفي تَبْرِيرِهم وفي فِعْلِهم.

وقد أدْرَكوا أن حيلَتَهم لم تَنْطَلِ على أبيهم، فاسْتَدْرَكوا قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، إننا نعلم أنك لا تُصَدِّقُنا في كلامنا، وأنك لا تَطْمَئِنُّ لما نقولُ، ولا تَثِقُ به، إنك تُكَذِّبُنا وَتَتَهِمُنا، ولكن هذا ما عِنْدنا[1]!!

جميل: وَكَيْفَ عَلِمَ الأَبُ أَنّ أَبْناءَهُ كاذِبونَ؟ أَلَمْ يَكُنِ القميصُ مُلَوَّثاً بالدَّم؟ وهل هناكَ فَرْقٌ بَيْنَ دَم الإنْسانِ وَدَمِ الذِّئْبِ مِنْ حَيْثُ اللّوْنُ؟ أَمْ هَلِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَرى وُجوهَهُمْ بالرَّغْمِ مِنَ الضَّوءِ الخافت؟

الأم: يَبْدو أَنَّكَ أَصْبَحْتَ تُجِيدُ المُقارَنَةَ والتَّحليلَ والِٱسْتِنْتاجَ، ولكنّك للأسَفِ لَمْ تَصِلْ إلى الجوابِ الصَّحيحِ.

سامي: القَميصُ لَمْ يَكُنْ مُلَوّثاً بالترابِ والوَحْل كما يُتَوَقَّع، فَلَو أنَّ الذئبَ هَجَمَ على يوسُفَ، لَفَرَّ مِنْ أَمامِهِ وَوَقَع على الأرضِ مِنْ فَرْطِ خَوْفِهِ وٱرْتِباكِهِ، بَلْ كانَ مُلَوَّثاً فقط بالدَّم؟!

الأم: أَيضاً تَحْليلٌ مُمْكِنٌ، وَلكنَّ الدَّمَ قَدْ يُخْفِي لَوْنَ التُّرابِ.

أحمد: أَنا عرفت! القَميصُ لم يكن مُمَزَّقاً، لَقَدْ كان سَلِيماً، فَهَلْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَأْكُلَ الذِّئْبُ يوسُفَ دُوْنَ أَنْ يُمَزّقَ قَميصَه أوّلاً!؟

الأم: أَحْسَنْتَ. هذا هو الجَوابُ. ومن هنا عَلِمَ الأبُ أنَّ يوسُفَ قَدْ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجمعة، الباب ١، وفي كتاب الدعاء، الباب ٤، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٨/٤.

الألوكة
www.alukah.net

خَلَع ثِيابَهُ لِغَرَضٍ ما، وَلَيْسَ لِأَنَّه كان هارِباً مِنَ الذَّنْبِ.

سامي: هذا صحيحٌ، فَكَيْفَ لَمْ يَنْتَبِهوا لِلْقَميصِ وَيُمَزِّقوهُ؟

أحمد: أَلَمْ تَسْمَعِ القاعِدَةَ الّتي يَتّبِعُها رِجالُ الشُّرْطَةِ عندما يُحَقِّقُونَ في جَرِيمةِ قَتْلٍ؟ إِنَّهُمْ يقولون: لَيْسَ هُناك جَرِيمَةٌ كامِلَةٌ، أَيْ إِنَّ المُجْرِمَ مهما كان ذَكِيّاً فلا بدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَنْسى شَيْئاً أَوْ يُخْطِىءَ بِكَلِمَةٍ أَوْ تَصَرُّفٍ، فَيَكُونَ هذا دَليلاً ضِدَّهُ ويَقْضي عَلَيْهِ.

سامي: لَقَدْ فَهِمْتُ. وَلَكِنْ مَاذا حَدَثَ لِيوسُفَ؟

الأم: كما خَطَّط إِخْوَتُهُ، فَقَدْ مَرَّتْ به قافِلةٌ آتِيَةٌ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ أَصابَها التَّعَبُ فَتَوَقَّفَتْ بِقُرْبِ البِئْرِ، لِتَحْظى بِبَعْضِ الرّاحَةِ والطّعام والماءِ الذي نَفَدَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُم[1] لِيَمْلأَ الدَّلوَ. أَدْلَى الرَّجُلُ دَلْوَهُ وَنَظَرَ في البِئْرِ، ولكنَّهُ ما لَبِثَ أَنْ صَرَخَ فَرَحاً وَهَلّلَ، فَهَرَعَ إِلَيْهِ رِفاقُهُ يسألونَهُ عما بِهِ فقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾[2]. كَثُرَ اللَّغَطُ[3] بَيْنَهُمْ: غُلامٌ! غلامٌ!

أَخْرَجَهُ. فَأَخْرَجُوهُ واحْتَفَلوا بِهِ. لَمْ يَسْألوهُ مَنْ هُوَ، ولا ما الذي أَتَى بِهِ إلى البِئْرِ، ولا مِنْ أَيْنَ جاء، أَوْ بالأَحْرى القرآنُ الكريمُ لم يَذْكُرْ شَيْئاً مِن هذا، فَقَطْ ذَكَرَ أَنَّهُمُ ٱلْتَقَطُوهُ مِنَ البِئْرِ وَأَسَرُّوه[4] بِضاعَةً.

سامي: وما معنى أَسَرُّوهُ بضاعةً!

الأم: هذا يعني أَنَّهُمْ وَضَعوهُ بَيْنَ حاجِيّاتِهِمْ سِرّاً، على أنه مِنْ ضِمْنِ البِضاعَةِ المُعَدَّةِ لِلْبَيْعِ، وَهَذا يَتَطَلَّبُ عَدَمَ مُكْثِهِمْ في مَكانِهِمْ هذا طَويلاً، حتّى لا يأْتي مَنْ يَبْحَثُ عَنْهُ فَيَخْسَروهُ. فذَهَبوا مُباشَرَةً إلى بِلادِ مِصْرَ، التي تُجاوِرُ بِلادَ الشّامِ، مُباشَرَةً على الحُدودِ مَعَ فِلَسْطِينَ.

---

(١) الوارد: الشخص الذي يرد على الماء ليشرب أو يستسقى.

(٢) يوسف: ١٩.

(٣) اللغط: الصوت والجَلَبة، الضجيج.

(٤) أسروه: وضعوه سراً وأخفَوه كي لا يراه معهم أحد.

الألوكة
www.alukah.net

سَكَتَتِ الأُمُّ قَليلاً وَكَأنّها تُفَكِّرُ بِشَيْءٍ ثُمَّ قالتْ: قِصّةُ سيِّدِنا يوسُفَ ما زالَتْ طَويلَةً، أَعْتَقِدُ أَنّهُ يَكْفي اليَوْمَ ما ذكرناه مِنها، وَنُتابعُ غَداً إن شاءَ الله. فأنا أُحِسّ ببعضِ التَّعَبِ، وأُرِيد الإِخْلادَ لِلنَّوْمِ، عسى أَنْ أَجِدَ الرّاحَةَ.

شَعَرَ الأولادُ بالقَلَقِ على أُمِّهِمْ، إلّا أنَّ أَباهُم طَمْأَنَهُمْ، مُعَلِّلاً تَعَبَها بِكَثْرَةِ العَمَلِ في البَيْتِ، وقال: لا بأسَ، فَلْنَذْهَبْ إلى النَّوْمِ.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٢)
نبيّ اللَّهِ يوسف عليه السلام

هَجَعَ[١] الأَوْلادُ دُونَ أنْ يُحِسّوا بالنُّعاسِ. وَمَعَ أَنّ الليلةَ كانت صافِيَةً، وَنُجومُ السَّماءِ تَلمعُ وتُغري النّاسَ بالسَّهَر، والقَمَر يُوحي بِأَحْلى الشِّعْرِ، والنسيمُ العليلُ يُنْعِشُ القُلوبَ والأجسامَ؛ هَجَعوا لِأَنهم لم يَعودوا راغبين بالسَّهَر، للألم الذي أصاب أُمَّهم وَاضْطَرَّها لِلذَّهابِ إلى غُرفَتِها. أمّا الأبُ فَقَدْ دَخَل المطبخَ، يُحَضِّر مَشروباً ساخناً، لِزَوْجَته تشربُه بَعدَ الدَّواء المُسَكِّنِ للأَلَم.

ناموا، ولكنَّ نَوْمَهُم كان قَلِقاً مُتَوتِّراً! وَكَيْف ينامونَ وأُمُّهم تَتَأَلَّمُ؟ طال اللّيلُ، حتى ظَنّوا أَنْ لَيْسَ لَهُ نِهايَة؛ فتذكَّرَ «أَحْمَدُ» قولَ الشاعرِ امْرِىءِ القَيْس في مُعَلَّقتِهِ[٢]، التي دَرَس بَعضَ أبياتِها مَعَ بَعْضِ رِفاقِهِ في المَرْحلةِ الثّانويَّة ـ دون أن يُحِسَّ بمعناها إلّا اليَوْم:

«ألا أيُّها الليلُ الطّويلُ أَلا انْجلِ بِصُبحٍ، وما الإِصْباحُ مِنْكَ بأمثلِ

وما كادَ الفجرُ يَنْبلِجُ، وَيَصْدَحُ صَوْتُ المُؤَذِّنِ يُنادي لِلصّلاةِ، حتّى

---

(١) هجع: نام.

(٢) المعلقة: قصيدة من العصر الجاهلي سميت معلقة لأنها علقت في الكعبة لجودتها. ج معلقات.

الألوكة
www.alukah.net

قاموا مِنْ أَسِرَتِهِمْ، وَٱتّجهوا نَحْوَ غُرْفَةِ والدَيْهم، ثمّ قرعوا البابَ[1]، فلمّا سَمِعوا صَوتَ أَبيهِمْ يَسْمَحُ لَهُمْ بالدُّخولِ، فتحوا ٱلبابَ وَدَخَلوا وَهُمْ يَبْتَسِمون ٱبْتسامةً خجولةً صفراء. بادَرُوا جميعُهم بالتَّحِيَّةِ: السلامُ عليكم، صباحُ الخَيْر.

الأَبَوانِ معاً: وعليكُمُ السّلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

الأولادُ: كيف حالُك يا أُمي؟

الأمّ: بخيرٍ وللَّه الحمد.

جميل: ولكنّ صوتَك ضعيفٌ، ووجهَك يشوبُه الٱصفرار، أي: إنّك ما زِلتِ تُحِسِّينَ بالأَلَمِ!

الأم: هذا صحيح.

سامي: ولكنّك قلت إنَّك بخيرٍ، وتَحْمَدينَ اللَّهَ على ذلك!

الأم: أَلا تعلمُ أنّ على المرءِ أنْ يحمَدَ رَبَّه في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ؟

سامي: بلى، أَعتذِرُ!

الأبُ: الِٱعتذارِ يجبُ أنْ تُوَجِّهَهُ للَّهِ، وليس لنا.

سامي وجميل: أستغفرُ اللَّهَ العظيمَ وأتوبُ إليه.

الأب: هل سنُمضي الوقتَ بالكلام؟ ألا تُريدونَ الصّلاةَ؟!

---

(١) من آداب الإسلام، وجوب الاستئذان، فقد جاء في سورة النور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩].

الألوكة
www.alukah.net

الأولاد: بلى، بلى، ولكننا ننتظِرُك حتّى تكونَ إمامَنا، وننتظِرُ أُمَّنا لتُصلِّيَ معنا جماعة.

توضّأ الجميعُ وأَسْبغوا الوضوء وأقاموا الصَّلاةَ وصَلُّوا خلفَ أبيهِم، ووقفَتْ أُمهُم خلفَهم ـ كما تقضي السُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ[1].

ظلوا مُستَيْقِظين بَعْدَ الصلاة تلْبِيَةً لِطَلَبٍ من سامي الّذي قال:

أحمد: ما رَأْيكُمْ لَوْ نَجْلِسُ في الشُّرْفَةِ نراقِبُ شروقَ الشَّمْسِ؟

تحمّسَ الإخوةُ لِهذا الاقتراحِ، فوافَقَهم والدُهم، رَغْمَ الأَلَمِ الذي ما زالتق الأمُ تُحِسُّ به. لهذا اقترَحَ «أحمد» أن يَخرُجوا جميعُهم لمراقَبةِ الشمسِ، أما هو فسيدخُلُ إلى المطبخِ لِيُحَضِّرَ مَشْروباً ساخِناً، إلّا أنَّ أُمَّهُ قالت له: حضِّر حليباً، فهو أفضلُ مشروبٍ في الصَّباح.

اِسْتمتَعوا بشُربق الحليبِ، ومَنْظرِ الشَّمس وهي تُطِلُّ مِنْ وراءِ الأُفُقِ فَتَكْسو الطَّبيعةَ ألواناً زاهِيَةً تَسْحَرُ الأَلْبابَ.

بَعْدَ فَتْرةٍ غيرِ طويلةٍ نَهَضَتِ الأمُّ لِتَذْهَبَ إلى غُرْفَتِها، إذ إنّها لم تَعُدْ تستطيعُ المُكوثَ مَعَهم. نَظَرَ إليها زوجُها نظرةً حانِيةً وقال: «جهِّزي نَفْسَكِ للذَّهاب إلى الطَّبيبِ».

عاود الأولادَ خَوْفُهم على أمِّهم، فقال «جميل»: أريحي نَفْسَك، ونحن سنعمل عِوَضاً عنك ـ اليوم. سنُريحُكِ مِنْ أعمالِ المَنزِلِ والطَّبخِ. سنُجهِّزُ نحن طعام الإفطارِ والغَدَاء أيضاً.

اِبتسمَتِ الأمُّ وقالت: وهل تعرِفون؟

---

(١) من آداب الإسلام في الصلاة أن يقف المُصَلّون صفوفاً متراصة منتظمة فيقف الرجال في الصفوف الأولى، ثم خلفهم يقف الأولاد، وتقف النساء في الصفوف الأخيرة، وذلك لأن أمور النساء مبنية على الستر.

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: نَعم نعرِف. أَنَسِيتِ أنّكِ علَّمتِني تحضيرَ بَعضِ الأطعمةِ؟ سنحاول صنعها اليوم بأنفسنا.

الأم: بلى! بلى! أشكُرُكُمْ على محبَّتِكُمْ وتعاوُنِكُم. فِعلاً أنتم بارُّون.

عاد الأبوانِ مِن عيادة الطبيب، يَحْمِلان بعضَ الأدويةِ المُقَوِّيَةِ والمنَشطةِ. ولا تَسَلْ عنْ فرحةِ الأولادِ عندما علِموا أنّ أُمَّهم تعاني مِن بعضِ الالْتِهاباتِ البَسيطَةِ، الّتي يُمْكِنُ معالَجَتُها بالأدويةِ. لقد كانوا يَخْشَوْنَ أَنْ تحتاجَ للمُستشفى، فقالوا لِأُمهم: الحمدِ للَّهِ على السلامةِ، طَهورٌ إن شاء الله، وأردف سامي سوف نُعْفيك مِنَ العَمَلِ، وَنَعْمَلُ نحن كلَّ شَيْءٍ في البيت: التنظيفَ والترتيبَ والطَّبخَ، والغسيلَ أيضاً....

ولكن «جميلاً» قاطَعَهُ مُستدرِكاً: لكنّنا لَنْ نُعفِيَكِ من القَصصِ.

ضَحِكَ الجميعُ حبوراً وَسَعادَة.

عند المَساء خَرَجَتِ الأُسرةُ جميعُها إلى مجلِسِ الأمسِ في الحديقة، بَعدَ خُروجِ الزُّوّار الذين جاءوا لِعيادَةِ أمِّ أحمد، فقد سمِعوا بأنَّها مَريضةٌ؛ وعيادةُ المريضِ حَقٌ من حقوقِ النّاسِ على بَعْضِهم. وقد حثَّ الإسلامُ عليه، على أن لا تطولَ الزِّيارةُ حتّى لا يتأَذّى المريضُ. فقال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتكى منهُ عُضوٌ؛ تداعى له سائر الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحمّى**»[1].

الأبُ: ما رأيُكم بهذا الِاقتراحُ؟

سامي: وما هو؟

الأب: بما أننا ابْتدأْنا أمس قِصَّةَ نبيِّ الله يوسُفُ عليه السلام، وبما أنَّها موجودةٌ كُلُّها، وبشكلٍ دقيقٍ في سُورَةٍ واحدةٍ تحمِلُ اسمَهُ، فلماذا لا نتلوها

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري، كتاب الأدب، برقم ٦٠١١، ومسلم، كتاب البِرّ والصلة، برقم ١٧٧٤، واللفظ لمسلم.

الألوكة
www.alukah.net

مِنْ كِتابِ اللَّهِ، فنستفيدَ مِن جِهاتٍ مُتَعدِّدَة، ونكسَبَ أجُوراً عظيمةً؟

سامي: لا بأسَ. ولكنْ ماذا سنستفيدُ؟

أحمد: أولاً نقرأُ القرآنَ ونجوِّدُه، فنستفيدُ من عِلْمِ التَّجويد.

جميل: ولا نكونُ من الذين يشكوهُمُ الرسولُ يومَ القيامَةِ بقوله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1].

الأم: ونَكْسِبُ حَسَناتٍ بِعَدَدِ الحُروفِ التي نقرأُها، كما قال رسولُنا الكريمُ عليه الصلاةُ والسلامُ: «... **لا أقول (ا ل م) حرفٌ، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**»[2]، وكلُّ حَسَنةٍ بعَشْرةِ أمثالِها.

الأب: ونُلاحِظ الدِّقَّةَ المتناهِيَةَ التي يذكُرُ فيها اللَّهُ قِصةَ هذا النَّبيِّ، ونُحاوِل تَفْسِيرَ بعضِ ما قد يَعْتري كلماتِهِ من صُعوبات.

سامي: وَيُخَفِّفُ عن أمِّي بعضَ الكلامِ، لِأنَّها مريضةٌ وقد تُزْعِجُها كَثْرةُ الكلامِ.

الأم: لا تَخَفْ يا حبيبي، أنا لستُ مَريضةً، بل مُرْهقةٌ قليلاً. أشكُرُ لكُمُ اهتمامَكُم براحتي وسلامتي.

سُرعانَ ما دَخَلَ الأولادُ إلى غرفَتِهم وأَحْضَروا نُسَخَ القُرآنِ التي يَحْتَفِظونَ بها، ولم يَنْسَوا أن يُحَضِّروا مُصْحَفَينِ لوالدَيْهم.

جَلَسوا جميعُهم بِاحترام وَخُشوعٍ وَبَدأ أحمدُ بالتِّلاوةِ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[3].

---

(١) الفرقان: ٣٠.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٣) يوسف: ١ ـ ٢.

الألوكة
www.alukah.net

سامي: ما معنى ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾؟

الأب: إنّ بعضَ سُوَرِ القُرآنِ يَبْدأ بحروفٍ مُقَطَّعةٍ كهذِه مثل: ﴿الٓمٓ ١﴾ و﴿الٓمٓصٓ ١﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾... ولكنَّ معظم المفسِّرينَ توقَّفوا عن تَفْسيرِها، وتَرَكوا العلم بتأويلها لله رَبِّ العالَمين. وبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بعضَ المفَسّرينَ حاولوا إيجادَ معانٍ لَها، إلاّ أنَّهم لم يَتَّفِقوا على معنًى واحدٍ مِنْها. لذا فَمِنَ الأَفْضَلِ أَنْ نَتْرُكَها وَنَتَجاوزَها كما قال جُمهور العُلماء.

جميل: وما هي هذه الحُروفُ؟

الأم: لَقَدْ جَمَعَها بَعْضُ عُلَماءِ التَّجويدِ بِعبارةٍ جميلةٍ هي: «نَصٌّ حَكيمٌ قَطْعاً لَهُ سِرّ».

سامي: ولِماذا جَمَعوها هكذا؟

الأم: لِيَسْهُلَ حِفْظُها على الجَميع.

أَخَذَ أفرادُ العائِلةِ يتبادَلونَ الأَدْوار في التّلاوَةِ، والأبوانِ يُصَحِّحانِ لِأَبْنائِهما طريقةَ نُطْقِ الحُروف، وإخراجِها من مخارِجِها بالشَّكل الصَّحيح، وَيُنَبِّهانِ على اتِّباعِ قواعدِ التَّجويدِ مِنْ إدغامٍ بِغُنَّةٍ، وإدغامٍ بِغَيْر غُنَّةٍ، وحُروفٍ تَستَحِقُّ المَدَّ، وأُخرى تستحق الإِخْفاءَ، وغيرِها من قواعدِ علمِ التَّجويدِ.

اِستَمرُّوا على هذه الحالِ فَتْرةً مِنَ الوَقْتِ دُونَ أن يُحِسّوا بالمَلَلِ أوِ التَّعَبِ، الّذي عادةً ما يَشْعُرونَ به أَثْناءَ دراسَتِهِم لِدُروسِهِم. بلْ على العَكْسِ، كانوا في غايةِ السَّعادةِ والِانشراحِ، ليسَ فقطْ بِسَبَبِ ما سَيَنالُونَه مِنْ أُجُورٍ وَحَسَناتٍ مِنْ رَبِّهِم ـ وهذا شيءٌ مُهِمٌّ جداً ـ بَلْ بِسَبَبِ السَّكينةِ والهُدوءِ اللَّذَيْنِ حَلّا عليهِمْ، وقد صدق رسولُ الله ﷺ حينما قال: «... **وما اجْتمَع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ القُرآنَ وَيَتَدارَسونَهُ بَيْنَهم إلاّ نَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِيْنَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكرَهُمُ اللَّهُ**

الألوكة
www.alukah.net

في مَنْ عِندَهُ»[1].

وَصَلُوا في تِلاوَتِهِمْ إلى الآيَةِ الّتي تَتَحَدَّثُ عَنْ تَخْلِيصِ رِجالِ القافِلَةِ للفتى يوسُفَ مِن غَيابَةِ الجُبّ ـ الّتي وصلوا إليها أمسِ أَثناءَ سَرْدِ القِصَّةِ ـ.

قالتِ الأم: ها قد وَصَلْنا إلى حيثُ تَبْدأُ قِصّتُنا اليَوْمَ. الآنَ سَوْفَ نَقرأُ ونُحاوِلُ التَّفْسيرَ. وكان دورُ سامي، فَقَرَأَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[2].

فقال أحمدُ: مَنْ هُمُ الذِينَ ٱشْتَرَوْه؟

الأبُ: الآيةُ لا تُحدِّثُنا عنِ الذي اشترى، ولكن عَنِ البائِعين، فَكلمةُ «شرى» معناها «باع»، أي: إنّ التّجّارَ الذينَ اِلتَقَطُوهُ مِنَ البِئْرِ هُمُ الذينَ باعُوهُ بثمنٍ بَخْسٍ، أي: قليل، دراهِمَ معدودةٍ وقد كانوا فيه من الزاهدين.

جميل: لماذا كانوا زاهدين فيه؟

الأب: حتّى لا يستعيدَهُ أهلُهُ إن كانوا قد لَحِقُوا بِهِم، فَهُم لا يريدون خِسارة كُلِّ شَيْءٍ.

جميل: لماذا؟ هل سَرَقوه؟ لقد وَجَدوهُ في البِئْرِ وخَلَّصوه...

الأبُ: هذا صحيحٌ، ولكنْ! هلْ كُلُّ مَنْ وجَدَ شَيْئاً على الطريق أو في مكانٍ بعيدٍ عن أصحابِهِ أوْ أهله، يدّعي أنه له؟ إنّ على مَنْ يجدُ شَيْئاً هكذا أن يُعلِن عنه وَيَسْتَفْسِرَ عن أصحابِهِ، فإنْ لم يجدْهُم بعد سنةٍ يُصبحُ مِنْ حَقِّهِ ٱلتصرُّفُ به، على أنه إذا جاء أصحابُه دَفَعَ لَهُم ثَمَنَهُ أو رَدَّهُ بِعَيْنِهِ[3]، وهذا ما لم يَفْعلوه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر، برقم ٢٦٩٩.

(٢) يوسف: ٢٠.

(٣) وقد اهتم الفقه الإسلامي بهذه الجزئية المهمة في حياة الناس، وأفرد لها دراسات وأحكاماً تسمى «أحكام اللقطة».

الألوكة
www.alukah.net

ثم قرأ جميل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

أحمد: هذا يعني أنّ الّذي اشترى يوسفَ هو حاكمُ مِصر.

سامي: وَكَيْفَ اسْتَنْتَجْتَ أنَّه حاكمُ مِصرَ؟ الآيةُ لم تَقُلْ شَيْئاً من ذلك!

أحمد: لقد قال لامرأتِهِ ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، أي: أَوْجِدي وَهَيِّئي له مَكاناً جيّداً كريماً يناسبُهُ، وعامِليهِ معاملةً حَسَنَةً، والرَّعِيَّةُ لا يَهْتمّونَ لذلِكَ لأنَّهم لا يَسْتَطِيعونه، فالمكانُ الكريمُ والمعاملةُ الجيّدةُ يحتاجانِ لِحاكمٍ.

جميل: وماذا نستفيدُ من هذِهِ المعرِفةِ؟

أحمد: نَتأكَّدُ مِنْ أَنَّ المبلغَ الذي دُفِعَ ثمناً لِيوسُفَ لم يَكُنْ زَهيداً، ولكنَّ يوسُفَ هو النَّفيسُ. وهذا يؤَيِّدُ القولَ الذي ذَكَرَتْهُ أمي مُنْذُ قليلٍ في هذا الثَّمَن.

سامي: لقد قالتْ شَيْئاً عجيباً، لقد دُفع وزنه وَرَقاً، فهل لِلوَرَق أهمّيّةٌ حتى يُوزنَ كالمِسْكِ والحريرِ؟

الأب: سُؤالٌ جيِّدٌ، بل مُمْتاز، مَعْ أنَّك أَخْطَأْتَ الفَهْمَ.

الوَرَقُ كان مُهِماً جداً وغالياً، لأنه كان قليلاً وَصَعْبَ الحُصولِ عليهِ. ولكنَّ أُمَّكَ لم تَقُلْ (الوَرَق)، بَلْ (الوَرِق) بِكَسْرِ الراء، وَهُوَ الفِضَّةُ المَضْكوكَةُ، وكانَ النَّاسُ قديماً يتعامَلونَ بالذَّهَبِ والفِضَّةِ، ويُسَمُّونَ العُملَةَ الذهبيَّةَ المَصكوكةَ «ديناراً»، والعُملَةَ الفِضِّيَّةَ المصكوكة «دِرْهماً»، وكلُّ دينارٍ كان يساوي عشرةَ دراهم.

الأم: الذي اشترى يوسف في مُصْرَ هو «عَزيزُ مِصْرَ»، وقد تَوَسَّمَ العزيزُ في هذا الفتى الخيرَ، وأُعْجِبَ به، ولم يُعامِلْهُ باعتباره عبداً أو

---

(١) يوسف: ٢١.

الألوكة
www.alukah.net

رقيقاً، كباقي العبيد الذين عنده، إنما نظر له نظرةً خاصة، وله فيه فِرَاسَةٌ صادِقَةٌ، وذكاءٌ لمّاحٌ. ولهذا أَوْصَى امْرَأَتَهُ به، قائلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

طلب منها أن تُكرم مَثْوَاه، مُبَالَغَةً في إكرامه. والمثوى من الثّوِي، وهو مكان المبيت والإقامة.

طلب منها العزيز إكرامَ يوسفَ، لقد رَجا أن يَنْفَعَهُما، وأن يحصل لهما الخيرُ عن طريقه، كما أنه قد يُتَّخِذَهُ ولداً، وقد يَتَبَنّاهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

وباستقرارِ يوسفَ عليه السلام في بيت العَزيز مُعَزَّزاً مُكَرَّماً يكونُ قد تَجاوزَ أخطارَ الغُرْبَةِ، وَوَصَلَ إلى مكانٍ آمِن!!

ولهذا عَقَّبَتْ الآيةُ على هذا الاستقرارِ[1] فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

استأنَفَ أحمدُ التِّلاوةَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[2].

أحمد: كَيْفَ يَكُونُ في وُقوعِ يوسُفَ في الرِّقّ[3] تَمكينٌ له في الأرْض؟ أَلَيْسَ معنى ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رَفَعْنا مَرْتَبَتَهُ وَجَعَلناه ذا مكانَةٍ عاليةٍ؟

الأب: هناك شَيء في عِلم التَّخطيطِ يسمى «التَّخْطيطَ المستقبليَّ» الطَّويلَ الأَمَدِ، وهذا يكونُ بِوَضْعِ هَدَفٍ كبيرٍ، يَتُمُّ تَحْقيقُهُ عِبْرَ عددٍ كبيرٍ مِنَ السَّنَواتِ، وَتُوضَّحُ لذلِكَ مَراحِلُ جُزئِيَّةٌ بَسيطَةٌ، قد تكونُ بَعيدةً عن هذا

---

(١) رواية للترمذي، برقم ٤٥٨/٤، قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

(٢) يوسف: ٢٢.

(٣) الرقّ: العبودية.

الألوكة
www.alukah.net

الهَدَفِ ـ ظاهرياً ـ وَلكنَّها تؤدِّي لِتَحْقِيقِهِ في نِهاية الأمْرِ. هذا الكلامُ يَنْطَبِقُ على النَّاسِ، ولا نقولُهُ بِحَقِّ اللَّهِ سُبْحانه وتعالى. فهو ﷻ يَعْلَمُ بِعِلْمه الأزَلِيّ الذي كَتَبَهُ في اللّوحِ المحفوظِ قَبْلَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ بخَمْسين ألفَ عامٍ، ولكنّنا قَدْ نقولُه على سَبيلِ المُشاكَلَةِ[1]، وذلِكَ لِتَقْريبِ الأَفْهامِ.

اللَّهُ سُبْحانَهُ وتعالى سَمَحَ بِوُقوعِ «يوسُفَ» عليه السلام في البِئْرِ، ثُمَّ في الأسْرِ، ثمَّ لِعِزِّ تَبَنِّي العزيزِ لَهُ وإكرامِهِ إيّاه، ثُمّ حُدوثِ جَميعِ الأَحْداثِ التي تَبْدُو لنا سَيِّئةً وَمُهينَةً، وذلِكَ لِيَتَقَوَّى بِهِ عُوْدُه، فَيَقْوى على تَحَمُّلِ المَسْؤُوليَّاتِ الجِسامِ التي خَلَقَهُ اللَّهُ لِأَجْلِها.

أحمد: وهل وُقوعُهُ في هذِهِ المشكلاتِ يُخَوِّلُهُ أيضاً تَعَلُّمَ تأويلِ الأحاديثِ؟

الأب: لا، لا، هذا شَيْء آخَر ـ هذا من العُلوم اللَّدُنِّيَّةِ التي يَخْتَصُّ اللَّهُ بها عِبادَهُ الصَّالِحين ـ وَمِنْهُمُ الأنبياءُ ـ ولا تَنْسَ أَنَّ الرّسولَ ﷺ قال: «**رُؤْيا المُؤمِنِ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وأربعينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ**»[2].

سامي: ما معنى «علومٌ لَدُنيّةٌ»؟

الأب: هي عُلومٌ مِنْ لَدُنِ اللَّهِ، أي: مِن عِنْدِ اللَّهِ بِطَريقِ الإيحاءِ والهِدايةِ، بِمعنى أنَّ البَشَرَ لا يَسْتطيعون مَعْرِفَةَ قواعِدِها وأسُسِها، لذا لا يَسْتَطيعُ أحدٌ تَعَلُّمَها. والعلمُ اللَّدُنّي: يفتحُ اللَّهُ بهِ على قلوبِ أوليائِهِ المتّقينغ وعبادِهِ الصالحينَ بِسَبَبِ طهارةِ قلوبِهِمْ مِمَّا يكرَهُهُ، واتِّباعِهِم ما يُحبِهُ، وهذا مما لا يفتحُ به على غَيْرِهِم، قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن

---

(١) المشاكلة: مشابَهَة، المماثلة، اسم مصدر شاكل. المشاكلة: (بلاغة) أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته.

(٢) صحيح البخاري، ٩٢ ـ كتاب التعبير، ٤ ـ باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، برقم ٦٩٨٧ و٦٩٨٨ و٦٩٨٩.

الألوكة
www.alukah.net

لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾﴾[1].

أَكْمَلَ سامي التِّلاوةَ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ثم قال: هذا كَلامٌ مَفْهومٌ لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ، فاللَّهُ سبحانَهُ وتعالى ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2]، وإذا أرادَ شَيْئاً فإنّما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾[3].

الأمّ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[4]. الإنسانُ قدْ يَكونُ مؤمِناً جِداً باللَّهِ سُبْحانه وتعالى، وَلَكِنَّه في كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ لا يكونُ قادِراً على فَهْمِ حَقِيقَةِ ما يَجرِي لَهُ، فإذا كان ذلك في مَصْلَحَتِهِ ـ كما يَعْتقِدُ ـ يقول: «هو خَيْرٌ»، وإذا كان عَكسُ ذلك ٱدَّعى أنَّهُ «شَرٌّ»، فالخَيْرُ والشَّرُّ شَيْئان نسبيان، فما نراه خَيْراً قد تكونُ عَواقِبُهُ غَيرُ مَحمودَةٍ، وكذا ما نراه شَرّاً قد تكون عاقِبَتُه خَيْراً. ولهذا قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ﴾[5]، وقال أيضاً في سورة النِّساء: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾﴾[6].

الأم: إن الله هو الذي مَكَّنَ ليوسفَ في الأرضِ الجَديدَةِ مِصْرَ، وَهَيَّأَ له أن يعيشَ في بَيْتِ مسؤولٍ كبيرٍ فيها، وذلك تمهيدٌ لما سَيَأتي من أحداثٍ وتَطَوّراتٍ.

وسينتج عنه تمكينَ الله ليوسف في بيتِ العزيز وتعليمَهُ تأويلَ الأحاديث: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾، وتدل الآية أنَّ تقديرَ الله له القدومَ إلى مصر، والاستقرارَ في بيت العزيز، خُطْوَةٌ على طريق تعليمِهِ

---

(١) النساء: ٦٦.
(٢) هود: ١٠٧.
(٣) يس: ٨٢.
(٤) يوسف: ٢١.
(٥) البقرة: ٢١٦.
(٦) النساء: ١٩.

الألوكة
www.alukah.net

تأويلَ الأحاديث، وأنّ إقامتَهُ في مصرَ تمهيدٌ لتعليمِهِ تأويلَ الأحاديث، كما قَدَّر الله. فما شاءَ الله كان، وما أرادَهُ اللَّهن فهوواقعٌ، ولا يقدِرُ مخلوقٌ على مَنْعِهِ وإيقافِهِ، ولا يَستطيعُ مخلوقٌ مغالبةَ الله، لأن اللَّهَ فعَّال لما يُريدُ، وهو غالبٌ على أَمْرِهِ، مُنْفِّذٌ لمشيئتِهِ.

ففي شأن يوسف عليه السلام، أرادَ اللَّهُ ليوسفَ أمراً، ورَتَّبَ له مُسْتَقْبَلاً، وأعدَّ له مَهَمَّةً، وقدَّرَ من الأحداث ما يُسْهِمُ في تحقيق لتحقيق ذلك.

وإخوةُ يوسفَ لا يعلمون هذا، كُلُّ ما عندَهم هو حَسَدُ يوسف والحِقْدُ عليه، والتآمرُ والكَيْدُ ضِدَّهُ للتَّخَلُّص منه، ولهذا فعلوا به ما فعلوا[1].

الأب: سُبحان الله. فَلْنتابع التِّلاوةَ. فقرأ أحمد: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

الأمّ: طبعاً، لَقَدْ فَهِمْتُمُ المعنى العامّ لهذهِ الآيةِ. فعبارةُ بلغَ أَشُدَّهُ تعني كَبُرَ ونَضَجَ عَقْلُهُ. ولكنَّ العُلَماءَ والمفسِّرينَ ٱختلفوا في العُمْرِ الذي يَبْلُغُ فيه الإنْسانُ أشدَّهُ، فقالوا إنه في السِّنِّ الثّامنةَ عَشْرةَ، وهذا ما نسمّيهِ اليَوْمَ سِنَّ الرُّشْدِ. وهي السِّنُّ التي وَضَعَتْها «شِرْعةُ حقوقِ الإنْسانِ» التابعَةِ للأمُمِ المتحدة لتُزيلَ عَنِ الشَّخْصِ صِفَةَ الطّفولَةِ.

ومنهم من قال: بَل يَبْلُغُ أَشُدَّهُ في الثّالِثةِ والثلاثينَ، ومنهم مَن قال في الأربَعين؛ ولا أعتقِد أَنَّ هذا مُهِمٌّ. المُهِمّ أَنَّ سيِّدَنا يوسُفَ بَلَغَ أَشُدَّهُ في الوَقْتِ الذي عَلِمَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يُحَدِّدْهُ في القرآنِ. في هذا الوقْتِ آتاه اللَّهُ الحُكمَ والعِلمَ، وَرَفَعَ مَنزِلتَهُ بَيْنَ النّاسِ.

أحمد: ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ الآيةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١١٢.

(٢) يوسف: ٢٢.

الألوكة
www.alukah.net

سامي: وما هو الشَّيْءُ الحَسَن الذي قَدّمه سَيدُنا يوسُفَ عليه السلام حتى يَجْزِيَهُ اللَّهُ هذا الجزاءَ العظيمَ: «الحُكمَ والعِلمَ»؟ هل لِأن إخوتَهُ رَمَوْهُ في البئرِ فَصَبر على ذلك، ثم صَبَرَ على بَيْعِه كالرَّقيق؟

الأم: الصَّبْرُ شَيْءٌ كبيرٌ، لا تَظُنُّ أَنَّهُ سَهْلٌ، وليس أيُّ إنسانٍ بِٱستطاعتِهِ ٱحتمالَ الصَّبرِ، لِهذا مَدَحَ اللَّهُ الصابرينَ في كثيرٍ من آياتِ القُرآنِ، وَبَشَّرَهُم بالجَنَّةِ. سيدُنا يوسفُ عليه السلام كان صبوراً في كُلِّ أيامِهِ وأحْوالِهِ، وهذا ما سَنَتَعَرَّفُ إليه مِن خِلال الآياتِ الآتية...

سامي (مقاطعاً): ما دامَ الأمرُ كذلكَ، فلماذا ذَكَرَ اللَّهُ النَّتيجَةَ المَرْجُوَّةَ قَبْلَ العَمَلِ والسَّبَبِ؟

الأم: هذا مِن مظاهر جَمالِ الأُسْلوبِ القُرآنِيِّ، حتى يَظَلَّ القارِئُ لِهذهِ السُّورَةِ في تَفَكُّرٍ مُسْتَمِرٍّ، وَيَكُونَ له الحافزُ لِمُتابَعَةِ القِصَّةِ بِشَوْقٍ وَشَغَفٍ.

جميل: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

سامي: الآنَ حانَ دورُ التَّفسيرِ، هناك عِدَّةُ كلِماتٍ لم أفهمْها. فما معنى ﴿رَٰوَدَتْهُ﴾ و﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾، ولماذا قالتِ الآيةُ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وَلَمْ تَقُلْ أَغْلَقَتِ الأبواب؟

الأم: ﴿رَٰوَدَتْهُ﴾، أي: طَلَبَتْ منه الفاحِشَةَ، وَعَرَضَتْ نَفْسَها عليه. أمّا لِمَاذا قالت: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ ولم تقل: «أغلقت» فلأن الأولى هي صِيغَةُ مبالَغَةٍ مِنَ الثانِيَة، بمعنى أنَّها أغلقت الأبْوابَ كلَّها، وتأكَّدَتْ مِنْ ذلك جيِّداً، وبالغَتْ فيه. أما عِبارة ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ إنّها إحدى لَهَجاتِ العَرَبِ في «هيَّأتُ لك»، ومعناها: ها أَنَذا قد هَيَّأتُ نفسي لك وَغَلَّقْتُ الأبوابَ، فَلَنْ يرانا

---

(١) يوسف: ٢٣.

الألوكة
www.alukah.net

أحدٌ، فتعال. سَكَتَتِ الأمُّ قليلاً ثمَّ قالتْ: هَلْ فَهِمْتُمْ الآن معنى الآية؟

أحمد: ما فَهِمْتُه هو أنَّ ٱمْرأةَ العزيزِ طلبتْ مِن «يوسُفَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ فِعلَ المُنكَرِ، وذلِكَ بَعدَ أَنْ جَعَلَتْهُ مَعَها في غُرفةٍ مُغْلَقَةٍ إغلاقاً تامّاً، حتّى لا يراهُما أحدٌ، ثم قالَتْ له قدْ تَهَيَّأتُ لك، أي: إنَّني جاهِزةٌ لذلك الفِعل، ثم راحَتْ تُسْمِعُهُ الكلامَ المُغري.

سامي: ما لم أفهَمْه هو لماذا قالتِ الآيةُ: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾؟

الأم: لنعرِفَ أنَّها سَيِّدةُ المَكانِ وصاحِبَةُ الأمْرِ والنَّهي فيه، وعلى الجميعِ أَنْ يُطِيعوها وَيَسْتَجيبوا لِطَلَباتِها. أمّا هو فَغَريبٌ عنها، بل هُوَ عَبْدٌ عِنْدَها ليس له إلاّ أن يقولَ سَمْعاً وطاعةً.

جميل: وَمَعَ هَذا فَقَدْ رَفَضَ يُوسُفُ طَلَبَها لِأَنَّهُ مُنْكَرٌ وحَرام، وفاحِشةٌ وَنَقِيصَةٌ، وَلا يَجُوزُ على الأَنْبِياءِ فِعلُ النَّقائِصِ، فَهُمْ مَعْصومونَ عنْ ذلك، وقال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: أعوذُ باللَّهِ، وأتحصَّنُ بالله من فعل الفواحش.

وٱعْترضَ جميلٌ كلامَهُ قائلاً: ولكِنْ لَمْ أَفْهَمْ لماذا قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

الأب: لقد لَجَأَ يوسف إلى ربِّه، واستعاذَ به واستعان به فلا يَعْصِمُهُ من هذا الموقف إلا الله، ولا يُنْجّيه إلا الله، وقد كان اللَّهُ عند حسن ظَنِّه، فأعانَهُ وأَعَاذَهُ، وحَفِظَهُ وَعَصَمَهُ، فلم يُلَبِّ دعوةَ المرأة!

وقول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إخْبارٌ منه عن إحْسانِ اللَّهِ إلَيْهِ، وَعَلَيْهِ أن يُقَابِلَ إحْسَانَهُ بالشُّكْر وليس بالمَعْصِية.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: اللَّهُ رَبِّي. فيوسفُ يُخْبِرُ عن فِعْلِ اللَّهِ ربِّه به، ولا يريدُ بكَلِمَةِ «ربي» سَيِّدَهُ عزيزَ مِصْرَ، زَوْجَ تلك المرأة ـ كما قال بعض المفسرين ـ فلا يَليقُ بيوسفَ أن يقولَ عن عَزيزِ مِصْرَ سيدَهُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ولا يليق أن يَجْعَلَهُ ربّاً له، أي: سيّداً له مع جواز هذا في اللغة، لأنه عبدٌ رَقيقٌ في

الألوكة
www.alukah.net

بيت سيّدِهِ، والسيّدُ هو ربُّ الأُسْرة. لكن لا يليقُ بيوسفَ عليه السلام أن يقول ذلك. ولهذا نُرَجِّحُ أن يكون المرادُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾: اللَّهُ رَبي هو الذي هَيَّأَ لي المكانَ والمنزلَ، وهو الذي أَحْسَنَ مَثْواي وإقامتي، وهو الذي أَنْعَمَ عليّ بهذه النِّعَم. وعَليَّ مقابلَ هذا أن أَقومَ بشُكْرِ اللَّهِ على إنْعامه وإحسانه، ولا يجوزُ أَنْ أقابلَ هذا بالمَعاصي، إنْ فَعَلْتُ ذلك أكونُ ظالماً، والظالمون لا يُفْلِحون... تابعَ الأبُ: هذا هو التبريرُ الإيمانيُّ لِعَدَمِ وقوعِ يوسفَ عليه السلام بالفاحِشَة، وهو يحاولُ إقناعَ تلك المرأةِ المُتَهالِكَةِ كَيْ تتوقَّفَ عن فِعْلِ الفاحِشَةَ، ولكن لم ينفَعْ معها هذا الكلامُ، فإنَّ شَهْوَتها هي التي غَلَبَتْ عليها، فَأَلْغَتْ تفكيرَها، وأَعْمَتْ بصرها، وملأت عَلَيْها حياتَها، وَهُّمها الوحيدُ هو فِعْلُ الفاحشةِ مع فتاها[1].

الأم: نتابعُ تلاوةَ الآياتِ التي بَدَأْنا بها قصّةَ اليوم، ونحاولُ وضْعَ عنوان لها. سادَ الصَّمْتُ لِأَنَّ الجَميعَ كانوا يَقْرأون الآياتِ بِصَمْتٍ، فالقِراءةُ الصّامِتَةُ تُعِيْنُ على إعْمالِ العَقْلِ والتَّفَكُّرِ أَكْثَرَ مِنَ القِراءَةِ الجَهْرِيَّةِ. بَعْدَ قَليلٍ قال سامي: العُنوانُ هو «يوسفُ عِند المِصْرِيّ».

الأم: صحيحٌ. ولكنَّه ناقصٌ.

جميل: «العزيزُ يتبنّى يوسُفَ، واللَّهُ يُعَلِّمُه».

الأم: هذا أيضاً صحيحٌ، ولكنّهُ عنوانٌ طويلٌ وناقِصٌ، فلم يدخل فيه مُراوَدَةُ امرأةِ العزيزِ لِيُوسُفَ عن نفسه.

أحمد: «قدر يوسُف»!

الأم: هذا صحيح أيضاً.... (ولكنَّ الأبَ قاطَعَها قائلاً:

الأب: ما رأيكُمُ بعُنوان: «يوسُفُ في رِعاية الله»؟!

سَكَتُوا وقد أَعْجَبَهم هذا العنوانُ.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١١٨.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: بالفِعل هذا العنوانُ يَشْمُلُ أحداثَ القِصةِ منذُ بِدايةِ السُّورةِ إلى نِهايَتِها. وَكَأَنَّ يوسفَ عليه السلام يَتَنَقَّلُ في رِعايةِ اللَّهِ مِنْ مَرحلةٍ إلى مَرْحَلَة.

واستأنَفَتِ الأُمُّ الكلامَ: ما المقصودُ بكلمةِ «الأرضِ» في الآيةِ الحاديةِ والعشرين؟

نَظَروا في الآيةِ وَقَرأوا في أَنْفُسِهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

جميل: الكرةُ الأرضِيَّةُ!

سامي: لماذا؟ وهل سَافَرَ سيِّدُنا يوسُفُ إلى كلِّ الأرضِ؟ أنا أَعْتَقِدُ أَنَّ المَقْصودَ بهذِه هو مصرُ فقط.

الأم: هذا صحيح. فمِصرُ هي البَلَدُ الذي عاش فيه سيدُنا يوسُفُ مُنذُ شِراءِ العزيزِ له حتّى وفاتِهِ؛ وهناك مَكَّنَ اللهُ لَهُ وأعزّهُ وَنَصَرَهُ.

طَرَحَتِ الأُمُّ سُؤالَها: ما هي رَأْيُكُمْ أهدافُ هذه الآياتِ؟

أحمد: إنّها تَهدِف لِتعليمِنا أنَّ الله يَفْعَلُ ما يَشاء، ولا رادَّ لِحُكْمِهِ، وأنّه لايُضِيْعُ أَجْرَ المُحْسِنين.

ـ هزّ الأَبَوانِ رأْسَيْهما ٱسْتِحساناً.

جميل: أيضاً تهدِفُ لِتَعْلِيمِنا الصَّبرَ الجَميل، والثّباتَ على المُعتقَدِ الصَّحيحِ، والِٱبْتعادِ عَنِ الرَّذيلَةِ، مهما كانت المصاعب والمشقات والمغريات.

ـ اِبْتَسَمَ الأَبَوان سروراً.

سامي: ألا نَقولُ إنَّها تُعَلِّمُنا الصَّبْرَ، وَكَيْفَ يكونُ طريق النَّجاحِ معَ المُحافَظَةِ على التَّواضُعِ، والعفوِ عِندَ المَقدرةِ!

الأبوانِ: أَحْسَنْتُم جميعاً. كُلُّكم مُصِيبونَ في إجاباتِكم، نحنُ فخورانِ بكُمُ.

الألوكة
www.alukah.net

الأب: ما رأيُكم، هل نتابعُ القراءة، حتى نتمكن من سماعها كلّها قبل النوم؟

الأم: لا، لن نُتابِعَها كلَّها اليوم، فهي ما زالتْ طويلةً، وأحداثُها كثيرةٌ.

الأولاد: حسناً.

الأم: هل تذكرونَ أين وصلْنا؟

أحمد: لقد وصلنا إلى الآية الرابعة والعشرين ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

؛ مع الملاحظة النحوية هي: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾.... لولا حرف امتناع لوجود، أي: امتنع حصول الهمّ لوجود برهان ربّه، وسأترك والدكم يشرحها لكم بالتفصيل.

الأب: **والآية** ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ تقدّم التعليل الإيماني العظيم، الذي مَنَعَهُ من الهَمّ بها، إنه برهانُ ربِّه، فلولا بُرهانُ ربّه لهمّ بها، أي: لولا وجودُ برهانِ ربِّهِ وهو قوةُ الإيمانِ في قَلْبِه، وقوّةُ مراقَبتِهِ لِرَبِّه، وَيَقينُهُ أنَّ اللَّهَ يراهُ ويَطَّلِعُ عليه أينما كان، فكيف يَسْتَجيبُ لنداءِ الشَّهْوَةِ فيه مع بُرْهانِ ربِّه في قَلْبِه؟ وكَيْفَ يرتَكِبُ الفاحِشةَ وهو يُوقِنُ أن اللَّهَ يَرَاه؟

أيهما أقوى نداءُ الشهوةِ أمْ هتافُ الإيمانِ والاعْتِصام؟ لا شك أن الثاني هو الذي كان مُسَيْطراً على كَيان يوسف في لحظات الامتحان الرهيبةِ الشديدةِ، فأخفى الإيمانُ نداءَ الشهْوَة. والراجِحُ أن قَوْلَ اللَّهق تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ جملتان منفصلتان:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وهي تُخْبِرُ عن هَمّ امرأةِ العزيزِ به هَمِّ الفاحِشة، وهجومَها عليه، لِتُكْرِهَهُ على معاشَرَتِها بالإكراه.

الألوكة
www.alukah.net

الثانية: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فالواو فيها حرف استئناف، وليست حرف عطف. وما بعدها جملة استئنافية شرطية جديدة.

وجملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب الشرط ﴿لَوْلَا﴾ مقدّم عليها. ويجوز تقديم جواب ﴿لَوْلَا﴾ الشرطية عند فريق من النحويين ـ بينما فريق آخر من النحويين لا يجيز تقديمه عليها ـ ونحن[1] مع من يجيز ذلك.

و﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود. تقرر امتناع وقوع جوابها لوجود فعلها.

و﴿أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هي فعل الشرط.

وتقدير الجملة هكذا: لولا رؤيةُ يوسفَ بُرْهانَ رَبِّه لهمَّ بالمرأة هَمّ الفاحشةِ واستجابَ لها.

إذن: همّت هي به همّ الفاحشة، وهذه إدانة لها.

أما هو فإنه لم يَهُمَّ بها مُطْلَقاً، ولم يَمِلْ إليها ولا إلى معاشَرَتِها ولو قليلاً، وبَقِيَ مُسْتَعيذاً بالله، مُسْتَعْصِماً عفيفاً، والذي عَصَمَه هُو اللَّهُ، فيما قَدَّمَ له من البُرْهان، وقوّى في قَلْبِهِ من الإيمان!!

وبعد أن نَفَتْ الآيةُ عن يوسفَ الهمَّ بامرأةِ العزيزِ، وَرَدَ فيها قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

إن اللَّهَ صرفَ عن يوسفَ الهَمَّ بامرأةِ العزيزِ، وأَخْفَتَ اللَّهُ في كيانه نوازع التفكير بالفاحشة، وأَبْعَدَهُ عن ذِهْنِه، وذلك ليصرِفَ عنه السوءَ والفحشاءَ، وَلِيُنَزِّهَهُ عن مُقَارَفةِ الفاحِشَةِ، وَلِيُبْقِيَهُ طاهراً عفيفاً، لأنّ هذا من لوازم النبوةِ، وهو سيُبعَثُهُ نبياً، فلا بُدَّ أن يَحْفَظَهْ عن السوءِ والفحشاءِ حتى قَبلَ النبوة.

---

(١) الدكتور صلاح الخالدي.

الألوكة
www.alukah.net

ثمّ إنّ الله كافأه بذلك وصرف عنه السوءَ والفحشاءَ، لأنه من عباده المخلصين.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في الآية اسم مفعول، أَيْ: أنّ الله هو الذي استخلَصَهُ واصطَفاهُ من بيْنِ سائر الناس.

وطالما أن اللَّهَ استخلَصَهُ، وجعلَهُ من عبادِهِ المُخْلصَين، فلا بُدَّ أن يَسْتَعْصِمَ ويستعيذَ بالله، ولا بد أن يُنَزَّهَ عن الهَمَّ بالمرأةِ، مجرّدَ هَمّ، ولا بد أن ينتصر في هذا الامتحان الرهيب، الذي يرسب فيه كثير من الناس، ولا بدّ أن يستعلي على هذه الفتنة التي تصرع كثيراً من الناس.

ولقد انتهى مشهدُ الفتنةِ والمراودةِ والإغراءِ والدعوةِ الغليظة الجاهِرَة، بانتصار يوسف العظيم[1].

وبعد هذا الشرح المفصل من الوالد سَرّ الأولاد، لأن الله ﷻ عَصَمَ يوسف عليه السلام واصطفاه من المخلصين.

الأم: هل وضحت الصورة الآن؟ لكي نكمل الآيات.

الأولاد: بصوت واحد نعم نعم نعم.

سامي: وماذا فعل إذاً؟

الأم: الجواب في الآية التالية...

الأب: أنا سأتلوها ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[2].

جميل: هناك ألفاظ صعبة. سأذهب لإحضار المعجم.

الأم: لا بأس. أنا أشرحها لكم. ما هي هذه الألفاظ؟

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١١٩ ـ ١٢١.

(٢) يوسف: ٢٥.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: قَدَّت، دبر، الفيا.

فَسَّرَتِ الأُمُّ الكَلِماتِ، ثُمَّ ٱنْتَظَرَتْ أَوْلادَها لِيُفَسِّروا الآيةَ.

فقال جميل: لَقَدْ تسابقا إلى البابِ هو هارب منها، وهِي تلحقه لتمسك به، فَمَزَّقَتْ قَميصَهُ من خلفِ ظَهرِهِ، ووجدا سيِّدَها أَمامَ البابِ، فَسَأَلَتْه ما هي عقوبةُ الذي يريدُ الأذى بِأهلِكَ؟ ٱسْجُنْهُ أو عَذِّبْهُ عذاباً أليماً.

كان هذا تفسيراً حَرْفِياً لِلآيَةِ، فأرادتِ الأُمُّ إيضاحَ بعضِ الأمور: عندما طَلَبَتِ ٱمْرَأَةُ العزيزِ مِنْ يوسُفَ عليه السلام ٱرْتكابَ فاحشة الزنا وَرَفَضَ هو خَوْفاً مِنَ اللَّهِ، أَصَرَّتْ على طَلَبِها، فَهَرَبَ مِنْها إلى البابِ، فَرَكَضَتْ خَلْفَهُ تُريدُ الإمساكَ بِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ إلاّ الإمْساكَ بقَميصِهِ مِنَ الخَلْفِ، فَمَزَّقَتْهُ. فَتَحَ يوسُفُ البابَ لِيَخْرُجَ، فَوَجَدَ زَوْجَها أمامَه يُريدُ الدخولَ، وسُرْعانَ ما واجَهَتْهُ زَوْجَتُهُ بإلقاءِ التُّهْمَةِ الشَّنيعَةِ على يوسُفَ، وٱدَّعَتْ أنَّه يحاوِلُ إغراءَها لِفِعْلِ الفاحِشَةِ، وطالَبَتْ زَوْجَها بِحَبْسِ يوسُفَ ومعاقَبَتِهِ.

سامي: ولكنّ يوسُفُ بَرِيءٌ. إنها كاذبةٌ.

الأمّ: أَجَلْ، وَلَكِنْ مَنْ يَتَجَرّأُ أَنْ يَقولَ إنها كاذِبة وهي زَوْجَةُ العَزيزِ؟

أحمد: وماذا قال يوسُفُ؟[1][2][3]

جميل: قَبْل أَنْ نَعْرِفَ هذا لَدَيَّ سُؤالٌ أَخافُ أَنْ يَضِيعَ مكانُهُ. جاء في الآيةِ التي نُفَسِّرُها ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وأنت تقولين: «وجدا زَوْجَها». فلماذا؟

الأم: في العُصورِ القَديمةِ وحتّى اليَوْمَ، كان كثيرٌ مِنَ الشُّعوبِ يَعْتَقِدونَ أَنَّ الرَّجل هُوَ سَيِّد زَوْجَتِهِ، وكانت المَرأةُ تُنادي زوجَها «يا سيّدي»، ولا بأس بهذا، فهو سيِّدٌ وهي سيِّدةٌ. وهناك مَنْ يقولُ إنَّهُ رَبُّ

---

(١) قدّت: قطعت.

(٢) دُبُر: خلف.

(٣) ألفيا: وجدا.

الألوكة
www.alukah.net

البَيْتِ وهي رَبَّةُ البَيْتِ؛ وَرُبّما كان تَعْبيراً بِدائِيّاً عَنْ كَلِمَةِ (القِوامة) وهي الوِلايةُ أو المَسْؤُولِيَّةُ، والدّينُ الإسْلامِيّ عَزَّزَ هذِه القِوامَةِ، في القُرآنِ الكريم بقولِهِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[1].

الأب: هَلْ هذا يَعْني أنّ قِوامَةَ الرَّجُلِ تزُولُ عَنِ المرأةِ إذا خَرَجَتْ إلى العَمَلِ، وصارتْ تَكْسِبُ ما يُغْنِيها عمّا تَأْخُذُهُ مِنْ زَوْجِها، فَتُصْبِحَ هي القيِّمةَ عليه؟

الأم: لِكُلِّ إنسانٍ دورُه في هذه الحياةِ، وما المالُ إلا وَسيلَةٌ لِتَوْفِيرِ الحاجِيّاتِ والمُسْتَلزَماتِ، وَلِتَسْهيلِ الحياةِ، وليسَ هو الحياةَ نَفْسَها، وَكُلُّ إنسانٍ يستطيعُ الحصولَ على المالِ، ولكنْ هناك أشياءُ أخرى لا يُمكِنُ لِلإنْسانِ الحصولُ عليها، إذا لم يُجَهِّزْهُ اللَّهُ بالعوامِلِ المُساعِدَةِ. فالرَّجُلُ لا يستطيعُ أنْ يَحِلَّ مَحَلَّ المَرأةِ في إدارةِ شُؤونِ البَيْتِ وَتَرْبِيَةِ الأبْناءِ، مهما كان عِنْدَهُ مِنْ حَنانٍ، ومهما جاهَدَ في سَبيلِ ذلك.

وكذلك المَرأةُ لا يُمكِنُها أَنْ تَقومَ مَقامَ الرَّجُلِ في كُلِّ أعمالِهِ، فاللَّهُ سُبْحانَهُ وتعالى أعطى لِكُلٍّ مِنَ المَرأةِ والرَّجُلِ مُواصَفاتٍ مُمَيَّزة لِكُلٍّ منهما، وَلَوِ افْتَرَضْنا أَنَّ البَيْتَ هو الدَّوْلَةُ، فالرَّجُلُ هو رئيسُها، والمرأة تُمثِّل وزارة الداخِليَّة، ولا تستغني الدَّوْلةُ إطلاقاً عَنْ أيٍّ مِنَ المَركَزَيْنِ، وإلاّ حَدَثَ لها المَخاطِرُ المُميتَةُ، وكما قال أحد الفلاسفة: المرأةُ والرجلُ كطائرٍ ذي جَناحَينِ لا يستغني إطلاقاً عن أيٍّ منهما.

أحمد: نَعُودُ إلى السُّؤالِ الذي طَرَحْتُهُ مُنْذُ قليلٍ، ماذا قال يوسُفُ عليه السلام.

---

(١) النساء: ٣٤.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: لمّا اتَّهمَتْ زَوْجةُ العزيزِ «يوسُفَ» عليه السلام بمُراوَدَتِها عَنْ نَفْسِها، دافع عن نفسه قائلاً: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾[1] . . . بالطَّبْعِ العزيزُ يعرِفُ يوسُفَ جيِّداً، وَيَعْلَمُ ما تَنْطَوي عليهِ نَفْسُهُ مِن بَراءَةٍ وطَهارَةٍ، ولكنَّهُ بالمُقابِلِ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُكَذِّبَ زَوْجَتَهُ وَيُصَدِّقَ العَبْدَ، فَلَمْ يَنْبَسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، كان كالمَصْعوقِ، فَتَوَجَّهَ إلى مُسْتَشارٍ لَهُ، وَٱسْتَفْتاهُ في القَضِيَّةِ، وكان هذا المُسْتَشار حكيماً، فَلَمْ يُعْطِ رَأْيَهُ مُباشَرَةً، فهو أيضاً يَعْلَمُ مِنْ أُمورِ امرأة العزيز، ولكنَّهُ أعطاهُ القاعِدةَ التي يَجِبُ أن يَسِيرَ عليها لِيَصِلَ إلى الحَقيقَةِ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾[2] .

تابعتِ الأمُّ: ولمّا نَظَرَ «العَزيزُ» في قميصِ يوسُفَ وَجَدَهُ مَقْطوعاً مِنَ الخَلْفِ، فَعَلِمَ أنَّ زَوْجَتَهُ كاذبةٌ، وَأَنَّها تَفْتَري على يوسُفَ، وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَبِّخَها أَوْ يُؤَنِّبَها، خَوْفاً مِنَ الفَضيحةِ، فهو عزيز مصر؛ الرَّجُلُ الثَّرِيُّ الذي يَعِيْشُ في قَصْرِهِ الكَثيرُ مِنَ الخَدَمِ والعَبيدِ، فَهَلْ يَفْضَحُ نَفْسَهُ؟

إذا فَعَلَ هذا فإنّ مَرْكَزَهُ سَيَنْهارُ، وَسَيُصْبِحُ أُضحوكَةَ النّاسِ. لهذا قال لِزَوْجَتِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾[3] . ثُمَّ نَظَرَ إلى يوسُفَ وقال: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾[4] ، ثُمَّ التَفَتَ إلى زَوْجَتِهِ وقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾[5] .

الأب: ولكنَّ الحَقيقةَ لا تَضيعُ أبداً. فَمهما حاول الإنْسانُ إخفاءَ

---

(١) يوسف: ٢٦.
(٢) يوسف: ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) يوسف: ٢٩.
(٤) يوسف: ٢٩.
(٥) يوسف: ٢٩.

الألوكة
www.alukah.net

حقيقةٍ ما، ومهما وُضِعَ في سَبيلِ عَدَمِ العُثورِ عليها مِنْ عراقيلَ وحواجِزَ، فلا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ يَوْماً ما بِشَكْلٍ واضِحٍ.

سَمِعَ النّاسُ في المَدينَةِ ما حَصَلَ في بَيْتِ العَزيزِ، وصار الخَبَرُ يَتَنَقَّلُ مِنْ بَيْتٍ إلى بَيْتٍ، وَمِنْ شارِعٍ إلى شارع... وَكُلّما تَداوَلَهُ النّاسُ كَبُرَ وَعَظُمَ، وَظَهَرَتْ دناءة المرأة وخستها، حتّى عاد وَوَصَلَ إلى أُذُنَيْ العزيزِ، الذي قرَّرَ إِسْكاتَ الناسِ بِشَكْلٍ لا يُهِيْنُهُ، ولا يُقَلِّلُ مِنْ شَأنِهِ.

سامي: وكَيْفَ عَرَفَ النّاسُ، ما دامَ العزيزُ أَمَرَ يوسُفَ بالسُّكوتِ وَنِسْيانِ ما جرى، وَلَمْ يَفْضَحْ زَوْجَتَهُ، وبالتأكيدِ هو لم يُذِعِ الخبَرَ؟

الأب: لَقَدْ نَسِيْتَ الخَدَمَ والعَبيدَ. فهذِهِ الفِئَةُ مِنَ النّاسِ مهما أَظْهرَتْ مِنَ الإِخْلاصِ لِسَيِّدِها، فإنَّها لا يُمْكِنُ أَنْ يُؤمَنَ جانِبُها تماماً. لقد صاروا يَتَحَدَّثونَ مَعَ أَصْحابِهِمْ مِنَ العبيدِ والجَواري في القُصورِ الأُخْرى عِنْدَ الوُزَراء، الذين قد تُوْجَدُ بَيْنَهُم مُنافَساتٌ سِياسِيَّةٌ، قَدْ تَصِلُ إلى حدِّ الحِقْدِ والكراهيةِ. ولكنّ ما جَعَلَ القَضِيَّةَ تَتَضَخَّمُ إلى هذا الحدِّ الكلامُ الذي كان يَتردَّدُ بَيْنَ بَعضِ النِّسْوةِ ذَواتِ ٱلنُّفوذِ، مِثيلاتِ زَوْجَةِ العزيزِ، وهنّ صاحِباتها اللّواتي يدَّعينَ مَحَبَّتَها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[1]، صِرْنَ يَسْخَرْنَ مِنْها لِأَنَّها أَحَبَّتْ خادِمَها وَلَيْسَ لِأَنَّها خانَتْ زَوجَها، وَهذا يَحْدُثُ عِندما يُفْقَدُ الوازِعُ[2] الدِّينِيُّ، فالأعرافُ والتقاليدُ الخُلُقِيَّةُ قد تَتَغَيَّرُ إذا لَمْ تَرْتَبِطْ بالدّينِ.

جميل: طبعاً، الكلامُ وَصَل إلى أُذُنَيْ ٱمْرَأَةِ العزيزِ. فماذا فَعلتْ؟

الأب: لِمَ لا تَقْرَأُ الجَوابَ في القُرآن؟

جميل: **قال تعالى**: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا

---

(١) يوسف: ٣٠.

(٢) الوازع: الرادع، المانع.

الألوكة
www.alukah.net

وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾[1] ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

الأمّ: هل فَهِمْتَ؟

جميل: لولا أنّ هذا الكلامَ صادِرٌ عَنِ اللَّهِ سُبْحانَه وتعالى لَمَا صَدَّقْتُهُ، قَدْ يُصَدِّقُ الإنْسانُ أَنّها دَعَتْهُنّ إلى بَيْتِها، لِتُعَرِّفَهُنَّ على الشّابِّ الذي راوَدَتْه عَنْ نَفْسِهِ، فهي ٱمْرأةٌ استحوذ عليها الشَّيْطان، وَزَيَّنَ لها خَطِيْئَتَها، ولكِنْ أنْ تَعْتَرِفَ أَنّه رَفَضَ مُطاوَعَتَها، وَتَطْلُبَ مِنْهُنَّ مُساعَدَتَها في تَلْبِيْنِ عَقْلِهِ وَتَغْيِيْرِ رأيِهِ، وَتُهَدّده أمامَهُنَّ بالسَّجْنِ إذا لم يُنَفِّذ رَغْبَتَها فهذا ما لا يُصَدَّقُ. ألهذِهِ الدَّرَجَةِ بَلَغَ بها الٱنْحلالُ الخُلُقِيّ؟!

الأمّ: **الشاعرُ يقول**:

إنَّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَة[3] مَفْسَدَةٌ لِلْمرءِ أَيَّةُ مَفْسَدَة[4]

والنفسُ ـ كما جاء في القُرآنِ الكريم ـ أمَّارةٌ بالسوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[5]، لماذا لا تَفْعَلُ هذا وأكْثَرَ؟ ما الذي يَمْنَعُها؟ لا شيءَ: لا دِينَ ولا خلق، ولا خَوْفَ من زوجٍ صالِحٍ غَيُورٍ على كرامَتِهِ وَشَرَفِهِ، ولا عَمَلَ يَشْغَلُها عنِ التَّفكِيرِ في الشهوات والملذات؛ والمالُ مَعَها كثيرٌ.

جميل: وكيف كانت رَدَّةُ فِعلِ يوسُفَ عليه السلام؟

---

(١) أكبرنه: أعظمنه، ووجدنه مميزاً.
(٢) يوسف: ٣١ ـ ٣٢.
(٣) الجدة: الغنى واليسار.
(٤) يوسف: ٥٣.
(٥) الإمام البوصيري.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: عندما قالتِ ٱمرأةُ العزيزِ لِلنِّسْوَةِ إنّ هذا الفتى ٱسْتَعْصَم مِنها، وَهَدَّدَتْ بِسَجْنِهِ أو إرْغامِهِ، رُحْنَ يُحاوِلْنَ إقناعَهُ لِتَغْيِيْرِ رَأيِهِ، فهو الفتى الجميلُ الذي يُشْبِهُ الملائكةَ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وَلَكِنّ يُوسُفَ ظلّ على مَوْقِفِهِ، لأنَّ اللَّهَ ربَّهُ يحرِّمُ هذا العملَ الشّائِنَ[1]. إذاً موقِفُهُ أقوى مِنْ مَوْقِفِها، وَدافِعُه لِلْمُحافَظَةِ على عِفَّتِهِ أَعظَمُ. لذا دعا ربَّهُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَ هؤلاءِ النِّسْوَةِ، مُفَضِّلاً السِّجنَ على الخَطِيئةِ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾[2]. فٱسْتَجابَ له اللَّهُ دعاءَهُ، إذ جَعل العَزيزَ يقرِّرُ سَجْنَهُ إلى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمَّى.

أحمد: ياه! إنّها قِصَّةٌ ضخمةٌ لم أَسْمَعْ بِقِصَّةٍ أخرى تروي ما حَدَثَ بكلّ هذِهِ الدِّقةِ بالفِعلْ، أنا أَتَصَوَّرُ أَنَّني أَرى شَرِيطاً سينِمائياً مُتحرِّكاً، وأتخيَّل أَني أرى أَبْطالَ هذِهِ القِصَّةِ أمامي. فماذا حدث بعد ذلك؟ هل بَقِيَ يوسُفُ في السِّجْنِ بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ بَرِيءٌ؟ وكم بَقِيَ فيه؟

الأم: يَكْفي هذا اليَوْمَ، فما زال هناك الكَثِيرُ مِنَ الأحداثِ لا يُمكِنُ أَنْ نَذْكُرَها اليَوْمَ، فَلْنَتْرُكْها لِلغَدِ إن شاءَ الله. ٱنسحب الأولاد بعد أن أَلْقَوْا تحيَّة المَساءِ وذهبوا للنومِ.

* * * * * *

(١) الشائن: المعيب.

(٢) يوسف: ٣٣.

الألوكة
www.alukah.net

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٣)
سيدُنا يوسفُ عليه السلام (في السّجنِ)
سيدنا يوسفُ (الداعية)

بَعدَ نهارٍ طويلٍ أمضَتْهُ أُسْرَتُنا في ٱستقبالِ الضُّيوفِ وتكريمِهِمْ، وتحمّل الإرهاقِ بإبْداءِ البِشْرِ في وجوهِهِم، إذْ مِن علاماتِ البُخْلِ أَنْ يُبْدِيَ صاحِبُ البَيْتِ ضِيقَهُ وٱسْتِياءَهُ في وُجُودِ ضُيوفِهِ، فَكَيْفَ إذا كان هو الذي دعاهُم لِحُضورِ المأدُبَةِ التي أقامَها؟! أَجَلْ لقد أقام الوالِدانِ مأدُبةً فاخِرةً دَعَوَا إليْها جَميعَ أَقارِبِهم: العَصَباتِ[١] وذَوِي الأَرحام[٢]، وبعضَ الجِيرانِ المقَرَّبين أيضاً، فكانَ البَيتُ في ذلك اليوم دائم الحَرَكَةِ والضجيجِ والفَرَحِ، ولم يَخْرُجِ الضُّيوفُ إلّا عند الأصيلِ[٣] حتى يكونوا في بُيُوتهم قبل غُروبِ الشمس، ٱمْتثالاً لِأَمْرِ رَسولِ الله ﷺ: «**إذا كان جُنْحُ اللَّيلِ[٤] أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيانَكُم[٥]، فإنَّ الشّياطينَ تَنْتَشِرُ حينئذٍ، فإذا ذَهَبَ ساعةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهم، وَأَغْلِقوا الأَبْوابَ وٱذْكروا ٱسْمَ اللَّهِ، فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَفْتَحُ باباً**

---

(١) العصبات: الأقارب من جهة الأب. «وقد سمي أقارب الرجل عصبة لأنهم يحيطون به حماية ونصرة».

(٢) ذوو الأرحام: الأقارب من جهة الأم.

(٣) الأصيل: هو الوقت من أقصى العصر إلى المغرب.

(٤) جنح الليل: قسم منه، طائفة منه.

(٥) فكفوا صبيانكم: امنعوهم من الخروج.

الألوكة
www.alukah.net

مُغْلَقاً، وَأَوْكُوا قِرَبَكم[1] واذكروا اسم اللَّهِ، وَخَمِّروا[2] آنِيَتَكُم واذكروا اسْمَ الله ولو أن تَعْرِضوا عليها شيئاً، وأَطفِئوا مَصابيحَكُم»[3].

وسُرعانَ ما أَعادَ الأولادُ والوالدانِ ترتيبَ البيتِ كما كان، وتنظيفَهُ مِنْ مُخَلَّفاتِ الطَّعام، وَأَدَّوا صَلاةَ المَغربِ، ولكنّهم لِشِدَّةِ إِرهاقِهِم اِسْتَلْقَوا على أَسِرَّتِهِم لِيَأْخُذوا قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ قَبْلَ الخُروجِ المُعْتادِ إلى حَديقَةِ مَنزلِهِم، لِلتَّمَتُّعِ بِهَواءِ اللَّيلِ العَليلِ وَمُشاهَدَةِ القَمَرِ والنُّجُومِ، وَمُتابَعَةِ القِصَّةِ التي بَدَأَتْها أُمُّهُمْ أَمسِ: قِصَّةِ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السلام.

ـ نهضوا مِن نَوْمِهِم بَعْدَ ساعةٍ مِنَ الزَّمَنِ وَهُمْ أكثرُ نشاطاً، أَحضَرُوا بعضَ زُجاجاتِ العصيرِ البارِدِ التي صَنَعُوها بِأَنْفُسِهم في البيت، وَخَرجوا إلى الحديقةِ، وجَلسوا بِانْتِظار مَجِيء والدَيْهم، وصاروا يتأمَّلون مَنْظَرَ النُّجُومِ اللّامِعَةِ، وَيُطْلِقُونَ النِّكاتِ اللّطيفَةِ عنِ النُّجومِ. ولكنّ الأَخَوَيْنِ الصَّغيرَينِ لاحَظا أنَّ أحمد ـ أخاهم الأكبرَ ـ شارِدُ الذِّهنِ مَشْغُولُ البالِ، فسألاهُ: ما بكَ شارد الذّهن؟ أَيْنَ أنتَ؟ بِمَ تُفَكِّرُ؟

أجابَ أحمدُ (مُرْتَبِكاً): لا شَيْءَ، لا شيءَ، إنِّي فَقَطْ أُفَكِّرُ في النُّجومِ، كيف تُضِيءُ، وَكَيْفَ تَلْمَعُ، وكيفَ نَراها وهي بَعيدةٌ عنّا كُلَّ البُعدِ.

كان الِارْتِباكُ ظاهِراً في كلامِ أَحمدَ. فقال سامي:

سامي: هذا غَيْرُ صحيحٍ، تبدو وَكأَنَّك مَهمومٌ.

جميل: سامي على حَقّ، فأنتَ لم تَتَكَلَّمْ مُذْ خَرَجْنا، فقط تَنْظُرُ وَتُفَكِّرُ، حتّى إنّ نَظَرَكَ غَيْرُ ثابتٍ على شيء مُعَيَّنٍ، فكأَنَّكَ لا ترى شَيْئاً، كأنّك تُفَكِّرُ وَتُحَدِّثُ نَفْسَكَ!

---

(١) أوكوا قربكم: غطوا رؤوسها.

(٢) خمّروا آنيتكم: غطوها.

(٣) البخاري، الصحيح، ٧٤ ـ كتاب الأشربة، ٢٢ ـ باب تغطية الإناء، برقم ٥٦٢٣.

الألوكة
www.alukah.net

خَرَجَ الأبوانِ وَسَمِعا هذا الحوارَ، فقالتِ الأُمُّ:

الأم: أَخواكَ يَتَكَلَّمانِ عمّا نراهُ جَميعاً، فأنت تبدو ساهِماً مُنذُ الصّباحِ. هل أنت مريضٌ؟

أحمد: لا، ليس بي شيء، ما لكُم تُجمِعون على ٱتِّهامي بما لا أشعُرُ بِه؟ أَلَمْ أَكُنْ مَعَكُمْ مُنْذُ ٱلصّباحِ، أُشارِكُكُم في أعمالِكم وَٱسْتِقْبالِ الضُّيوفِ وتَوْديعِهم؟

الأم: بلى، ولكنْ لمْ تكُنْ طَبيعيّاً، فٱبْتِسامَتُكَ قليلاً ما كانت تَظْهَرُ، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ هذِهِ الوَلِيمَةِ كانتِ ٱحْتِفالاً بِنَجاحِكَ أَنتَ وإِخْوَتِكَ، وَمِنَ الطَّبِيعيِّ أَنْ لا تُفارِقَ البَسْمَةُ وُجوهَكُم.

إِنْزَعَجَ أَحمدُ مِن هذا الاتِّهامِ، فَسَكَتَ وَأَسْرَعَ عائِداً بٱنْفِعالٍ إلى غُرْفَتِهِ، نادَوْه فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِم.

الأَبُ لم يَفْتَحْ فَمَهُ بكَلِمَةٍ، ولم ينادِ أحمدَ، ولكنِ ٱنْتَظَرَ قليلاً ثم ٱلْتَفَتَ إلى ولدَيْهِ وقال لهما، لِماذا تُكَلِّمانِ أخاكُما بهذِهِ الطَّريقَةِ؟ دَعاهُ يَفْعَلْ ما يُرِيْدُ، فَلِكُلِّ إنسانٍ ما يَشْغُلُهُ، ولا يَصِحُّ أن تَتَطَفَّلوا هكذا.

جميل: ولكنَّنا لَمْ نَقُلْ له شيئاً، فَقَط كُنّا نَطْمَئِنُّ عليه، وَخَشِيْنا أَنْ يكونَ مَرِيْضاً.

الأب: وَلكنَّكما أحْرَجْتُماهُ وَأَكْثَرْتُما الإحْراجَ.

سَكتَ الولدانِ، فقد شعرا أنَّهما أخطآ بحقِّ أخيهِما. فكَّرا قليلاً ثمّ قاما ودَخَلا إليه، فاقْتربا مِنْهُ وٱعْتذرا، وطلبا أن يسامِحهَما وَيَخرُجَ معَهما، فٱبْتَسَم لهُما ورافَقَهما.

في هذا الوقتِ كان الأبُ يعاتِبُ زَوْجَتَهُ: وأنتِ أيضاً شارَكْتِ الولدَينِ في موقِفِهما، مَعَ أَنَّكَ تعلمِينَ ما لا يعلَمانِ! هل نَسِيْتِ المَرحَلَةَ العُمُرِيَّةَ التي وصَل إليها أحمدُ؟ هل نسِيتِ أَنَّها مرحلةٌ حَرِجَةٌ؟ يَجِبُ عَلَيْنا مُنْذُ اليومِ أَنْ نُعامِلَهُ وكأَنَّهُ شابٌ راشِدٌ، فلم يَعُدْ طِفلاً.

الألوكة
www.alukah.net

كانتِ الأُمُّ تَسْمَعُ ما يقول زَوْجُها، وَكَأَنَّها تَتَنَبَّهُ إليهِ لِلْمرةِ الأولى. فِعلاً لَقَد نَسِيَتْ، أو أَنَّها لَمْ تَنْتَبِهْ لِهذِهِ الحقيقةِ.

وصل الأولادُ بعدَ ٱنْتهاءِ أبوَيْهِما مِنَ النِّقاشِ المُنْخَفِضِ الصوتِ فوجدوهما يَبْتَسِمانِ، فقال أحمد: أَعتَذِرُ مِنْكُما إذ تَرَكْتُكُما بِهذا الشَّكْلِ.

الأبُ: يَجِبُ عليكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَضْبِطُ تَصَرُّفاتِكَ. فأنتَ صِرْتَ شاباً وَلَمْ تَعُدْ طِفلاً، وَتَصَرُّفاتُكَ صارت محسوبةً عليك، صار عمرُكَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، وعليك أَنْ تَتَحَكَّمَ بِتَصَرُّفاتِكَ حتّى لا تَقَعَ في أخطاءٍ مُتَكَرِّرَةٍ.

كان الأبُ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ هادِئٍ مُفْعَمٍ بالحُبِّ لٱبْنِهِ وإنْ كان لا يخلو مِنَ التَّوْجِيهِ، حتى يَعْلَمَ الٱبْنُ أنَّ أباه يُرِيدُ مَصْلَحَتَهُ فقط، وَأَنَّ عليهِ أَنْ يُهَذِّبَ سُلوكَهُ وَيَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ في المَواقِفِ الحَرِجَةِ.

لم يُحِرْ أحمدُ جَواباً[1]، بل سَكَتَ وقبَّل أباهُ وأُمَّهُ ثم عاد إلى مَقْعَدِه. ظلّ الجميعُ ساكِتينَ، يَكْتَفُونَ بِشُرْبِ المُرَطِّباتِ والنَّظَرِ إلى البَعيد، رَيْثَما يَسْتَعيدون توازنهم النَّفْسِيّ.

بعدَ فَترةٍ وجيزةٍ قال سامي:

سامي: هل نَظَلُّ ساكِتِينَ أَمْ نتابعُ قِصَّةَ سيدِنا يوسُفَ عليه السلام؟ اِبْتَسَمَ الجميعُ وقالوا: بلْ نُتابعُ القصة.

أردف جميل: ولكنّي أعتقِدُ أنَّ أمّي لا تقدِرُ على مُتابَعَةِ السَّرْدِ. الآنَ على الأقلِّ لأنّها مُنْفَعِلَةٌ.

سامي: ولماذا هي مُنْفَعِلة؟

لأنّها كانتْ تَتَشاجَرُ مَعَ أبي.

أحمد: متى كان هذا؟

---

(١) لم يحر جواباً: لم يتكلم.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: لمّا خَرَجْنا مِنَ الغُرفَة، أنا لاحظْتُ هذا.

سامي: هذا غيْرُ صحيح. لم نُلاحِظْ ـ أنا وأحمدُ ـ شيئاً مما تقولُ، والدانا لا يتشاجران ولا يسمعُ صوتَهما أحدٌ.

الأب: وَمَنْ قال إنّنا لا نَتَشاجَرُ ولا نَخْتَلِفُ؟! ما مِنْ زَوجَيْنِ لا يَخْتَلِفانِ أو يتناقشانِ أو حتى يتشاجران.

جميل: ولكنّنا لم نَسْمَعْكُما تتناقَشانِ قطّ، ولم نَرَكُما مرةً متخاصِمين، فَنَحْنُ أُسْرةٌ سعيدةٌ.

الأب: نحن ـ بِالفِعلِ ـ نعيشُ في أُسرةٍ سعيدة ولله الحمدُ.

ولكنْ هل معنى «أسرةٍ سعيدةٍ» أنَّ أفرادَها لا يختلفون ولا يتشاجرون؟ بمعنى آخرَ هل يَجِبُ أَنْ يَسْمَعَ الجيرانُ أصواتَ بعضِهم أثناءَ ٱخْتِلافاتِهم، لِيَعْلَمَ الجَميعُ أسرارَهُم وما يجري داخِلَ بُيوتِهم؟

يا بنيّ، لكل بيتٍ أسرارُهُ، ولا يجوزُ أن يطَّلِعَ على هذه الأسرارِ أحدٌ، ولا يحقُّ للزَّوجَيْنِ إخراجُ مشكلاتهما مهما كان نوعُها ـ خارِج حدودِ غُرفَتِهما ـ بهذا يكونانِ زَوْجَيْنِ صالِحَيْنِ. كما لا يحقُّ لأحدِهما التَّحدُّثُ عن الآخرِ بسوءٍ أمامَ أولادِهما، حتّى لا يَعْتَقِدَ الأبناءُ أنَّ والدَيْهِمْ على خِلافٍ مُسْتَمرٍ، فيحدُثَ في نُفُوسِهِمْ قَلَقٌ دائِمٌ، وخَوْفٌ مِنِ ٱنْفِراطِ عِقْدِ أُسْرَتِهِمْ.

أحمد: لَقَدْ قُلتَ يا أبي «لا يجوزُ أَنْ يَطّلِعَ على هذه الأَسْرارِ أحدٌ» فهل هذا غيرُ جائِزٍ شرعاً؟

الأب: أَجَلْ هذا ما قَصَدْتُهُ بالضَّبْطِ. فالله سُبْحانَهُ وتعالى نهانا أَوّلاً عَنْ رَفْعِ الأصواتِ فقال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1].

---

(١) لقمان: ٣١.

الألوكة
www.alukah.net

ورَسولُهُ الكريمُ أَمَرَنا بِعَدَمِ الخِصامِ والشِّجارِ والتَّقاطُعِ فقال: «**لا تباغَضوا، ولا تحاسَدوا، ولا تدابَروا، ولا تقاطَعوا، وكونوا عِبادَ اللَّهِ إخواناً، ولا يَحِلّ لِمُسْلِمٍ أن يَهْجُرَ أَخاهُ فوق ثلاث**»[1].

ثمّ إنَّ الصّراخَ ورَفْعَ الأصواتِ أثناءَ المجادلاتِ أو المناقشاتِ يُتيحُ الفُرَصَ للجيرانِ بالتَّدَخُّلِ في شُؤونِ بعضِهِم، وقد يكونُ منهُمْ مَنْ يُحِبّ السّوءَ لجيرانه ويكرَهُ ٱتّفاقَهُم، وَيَنْسى أو يتناسى وَصِيَّةَ رسولِ الله ﷺ: «**مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيراً أو لِيَصْمُتْ**»[2].

وهكذا تَشْتَدُّ الخِلافاتِ وَتَحْدُثُ الفُرْقَةُ والخُصومَةُ والعَداوةُ، ليس فَقَطْ بَيْنَ الأَزْواجِ، وَلكنْ أيضاً بين الأخوةِ والأصدقاءِ.

الأم: حتى وإنْ لم يَكُنْ هناكَ آيةٌ صريحةٌ بهذا المعنى، أو حديثٌ شريفٌ، فعدمُ الجوازِ هو مِنْ بابِ سدِّ الذرائعِ ودرءِ المفاسِدِ، أَيْ: لِعدَمِ السّماحِ للشَّيْطانِ بالتَّدخُّلِ، بينَهُمْ وإفسادِ علاقَتِهِم ببعضٍ.

سامي: وما معنى سدِّ الذرائع؟

الأم: الذريعةُ هي السَّبَبُ والوسِيلَةُ، وسدُّ الذرائعِ، يعني: إقفالَ الطريقِ وإبطالَ الوسائلِ التي تُوصِل إلى المفاسِدِ والشّرورِ.

نظر الأولادُ بعضُهم إلى بعضٍ مُبْتَسِمينَ، شاكِرينَ حِكمةَ والدَيْهم، وحِرْصَهُمْ على الحِفاظِ على الأُسرَةِ مِنَ الشَّعورِ بالقَلَق أو الضَّياعِ.

جميل: هذا يعني أَننا سنتابع القِصَّةَ؟

الأم: لا، لن نُتابِعَها اليومَ فهي ما تزال طويلةً وأحداثُها ومفاجآتُها كثيرةٌ، ولكن سَنَعودُ إلى ما سَرَدْناه أمسِ، لإكمالِ النَّقْصِ الذي وَرَدَ فيه.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، برقم ٦٠٦٤، ومسلم، كتاب البر والصلة، برقم ١٨٠٠.

(٢) البخاري، الصحيح، ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٣١ ـ باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، برقم ٦٠١٨ ـ ٦٠١٩.

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: وما المانِعُ مِنِ ٱسْتِعادةِ قصةِ الأمسِ ومتابعتِها اليوم؟

الأم: أيةَ قصة؟

أحمد: التي رويتِها لنا بالأمس!

الأم: أيَّ يومٍ تعني؟ فالأمسُ متطاوِل!

أحمد: هلْ تمزحين يا أمي؟ البارحةَ! قِصةَ سيدِنا يوسُفَ التي رويْتِها لنا البارحةَ.

الأم: أنتَ قلتَ (التي رويتِها بالأَمسِ)، وكلمةُ «الأمسِ» تعني الماضي، وقد يكونُ قريباً أو بعيداً، أما البارحةُ فنستعمل له كلمة (أمسِ) بدونِ (أل) التعريفِ.

سامي مُعْترِضاً: كل هذا من أجل (أل التعريف)؟ هل حقاً لم تعلمي قصد أحمد عندما قال: (الأمس)؟ فأنا لم أكنْ أعرِفُ هذا الفرقَ؟

الأم: يا بُنَيّ، اللّغةُ العربيَّةُ لغةٌ شَرِيفةٌ، وقد كان العربُ يَهتمّونَ بِها مُنْذُ قديم الزَّمانِ، وَيَصونونها مِنَ الخطأِ والدَّخيلِ، لِدرجَةِ أنَّهم حَصَّنوا أَنْفُسَهم في الصحراءِ، ليحفظوها من الخطأ واللَحْنِ ودخولِ الغريبِ عليها، ثم تأكّدَ شَرَفُها بنزول القرآن بها.

سامي: عندما أدخُلُ الجنةَ بإذن الله، سَوْفَ يُطْلِقُ الله لساني بأبلغِ الكلامِ والأساليب.

الأم: وهل هناك ما يَمْنَعُ تعلُّمَكَ إيّاها منذُ الآنَ، حتّى تفهَمَ كتابَ اللَّهِ بشكلٍ أَفْضَلَ، فتكونَ مِنَ المُتَفكِّرين بآياتِ الله، فتحفَظَ القُرآنَ، وتكونَ مِنَ الذين قالَ عنهم رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُم من تَعَلَّمَ القُرآنَ وعلَّمَهُ**»[1].

الأب: وتَعَلُّمُ القرآنِ لا يكونُ بقراءَتِهِ كيفما ٱتَّفق، ولكنْ بحِفْظِ

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي.

الألوكة
www.alukah.net

قواعِدِهِ وأحكامِهِ، وأهمُّها التَّلفُّظُ بِحُروفِهِ بِشكلٍ صحيحٍ، وإخْراجُها مِن مَخارجِها، وعدمُ زيادةِ حروفٍ عليه أو إنقاصِها[1]. وقد أَخْبَرَنا رسول الله ﷺ عن ربِّه ﷻ أنه سيقولُ لِقارىءِ القُرآنِ ـ يومَ القِيامةِ ـ ٱقْرأْ وٱرْقَ، وهذا معناهُ أنَّ مكانَةَ قارئ القرآنِ ـ الماهرِ فيه ـ قَرِيْبَةٌ مِنْ مكانَةِ الأنْبياءِ.

أحمد: سبحانَكَ اللَّهمَّ وبِحَمْدِكَ. وبالرُّغْمِ من كُلِّ هذه النِّعَمِ تَجدُ أناساً يَكْفُرون بوجودِ اللَّهِ وَيْجَحدونَ نِعَمَهُ! لا حولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللَّهِ العَلِيِّ العظيمِ.

صَمَتَ الجَميعُ تَفَكُّراً وَشُكْراً لِما أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عليهِمْ.

قال جميل: أَلَنْ نتابعَ القِصّةَ؟ آهِ! صحيحٌ! إنك ستُكمِلينَ النَّقصَ الذي حَدَثَ فيها أمسِ فما هو هذا النَّقْص؟

الأم: ما هي آخرُ آيةٍ كنا نتلُوها وَنَتَفَكَّرُ فيها؟

جميل: إنها الآياتُ التي تتحدثُ عَنْ دعوةِ ٱمرأةِ العَزيزِ للنّساءِ اللّاتي كُنَّ يَغْتَبْنَها[2] ويَسْخَرْنَ منها، وإخراجِها يوسُفَ إليهنّ لِيَرَيْنَهُ، وما كان مِنْ تَعْظيمِهِنَّ لِجَمالِهِ.

الأم: أرأيتَ؟! هناك شيءٌ لم تَذْكُرْهُ لِأَنّنا لم نَتَكَلَّمْ عنه.

جميل: ما هو؟

الأم: لم تَذْكُرْ أثرَ خُروجِ يُوسُفَ على النِّساء، وماذا فَعَلْنَ بِأَنْفُسِهِنّ. أَلَمْ يَرِد في الآية ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

سامي: هذا صحيحٌ. ولكنْ هل حقيقةً أنَّهنَّ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنّ؟ ولمَاذا؟

---

(١) وهذا ما يسمى بعلم التجويد.

(٢) يغتبنها: من الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره سواء في حضوره أم غيابه.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: قَبْلَ أَنْ أُجيبَ عَنْ هَذا السُّؤالِ يَجبُ أن نَتَحَدَّثَ عَنِ العَمَلِ الذي قامَتْ بِهِ النِّساءُ بِحَقّ امرأة العَزيزِ، والذي يَفعلُهُ كُلُّ الناسِ في المُجْتَمَعاتِ التي يَجِدُ الناسُ فيها أَنْفُسَهُم عاطِلِينَ عَنِ العَمَلِ الحَقيقيّ، تائِهينَ عَنِ الهَدَفِ الحَقيقي مِنْ وُجودِهم في هذه الحياةِ. هذا العملُ الشّائِنُ هو الغِيْبَةُ والنَّميمةُ، أَخْطَرُ آفَتَيْنِ تُصِيبانِ المُجْتَمَعاتِ فَتُخَرِّبانِها وتهدمانِها، لأنّهما أَكْبَرُ دَليلٍ على انْهِيارِ الأَخلاقِ العامَّةِ، وقد قال الشاعرُ أحمد شوقي:

«وإنَّما الأُمَمُ الأَخْلاقُ ما بَقِيَتْ فإنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُم ذهبوا

وقد حَذَّرنا رسولُ الله ﷺ مِنَ الغِيبَةِ وانْتِهاك الأَعْراضِ في كثيرٍ مِنَ الأحاديثِ الصَّحيحة، ولا سيَّما في حِجَّةِ الوَداعِ حَيْثُ قال: «**إنَّ دِماءَكُم، وأَمْوالَكُم وأَعْراضَكُم، حَرامٌ عليكم كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، أَلا هَلْ بَلّغْت**»[1]. **وجاءَ النّهيُ عنِ الغِيْبَةِ في القُرآنِ الكريم بِشَكلٍ قَويّ وصريح**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[2].

سَكَتَتِ الأمُّ قليلاً ثم تابَعَتْ: اِعْتَكَفَتْ امرأة العزيزِ فَتْرةً وراحَتْ تُفَكِّرُ... اِنْتَهَتْ إلى قَرارٍ، ثُمَّ اسْتَدْعَتْ طُهاةَ القَصْرِ، وَأَخْبَرَتْهم أَنّها تُعِدّ مَأْدُبَةً كَبيرةً في القَصر... وَاْختارَتْ أَلوانَ الطّعامِ والشّرابِ، وأَمَرَتْ أَنْ تُوضَعَ السّكاكينُ الحادّةُ إلى جِوار الفاكِهَةِ المُقَدَّمَةِ... وَأَنْ تُوضَعَ المَفارِشُ البَيْضاءُ والوسائِدُ والحشايا، على عادةِ الشَّرقِ في ذلكَ الزّمانِ. وَوَجَّهَتِ الدَّعوةَ، لِكُلّ مَنْ تَحَدَّثَتْ عَنْها ولاكَتْ قِصَّةَ حُبّها لِيوسُفَ»[3].

---

(١) رواه مسلم، الصحيح، ١٣ ـ كتاب الحج، ٥١ ـ باب في حجة النبي ﷺ، برقم ٧٠٧.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) بهجت، أحمد، أنبياء الله، (القاهرة، دار الشروق، ١٩٦٨)، ص١٣٥، بتصرف.

الألوكة
www.alukah.net

جَلَسَتْ المَدْعُوّاتِ تَتَقَدَّمُهُنَّ صاحِبةُ الدَّعوةِ يَلْتَهِمْنَ الطّعامَ الطَّيِّبَ، وَهُنَّ يَتَنادَرْنَ ويَتمازَحْنَ ويُبْدِيْنَ إعجابَهُنّ بهذا الطَّعام، فَٱبْتَدَرَتْهُنّ صاحِبَةُ البَيْتِ قائلةً: لقد عَلِمتُ أنّكُنّ تَتكلَّمْنَ عنّي وَتَتَّهِمْنَني وَتَلُمْنَنِي. . . .

لَمْ تُجِبْ أيَّةُ واحِدَةٍ مِنْهُنّ خَجَلاً، فَهُنّ لَمْ يَكُنّ يَعْلَمْنَ بِوُصولِ الحديثِ إليها، وَتَجَمَّدَتْ أَيْدِيْهُنَّ التي كانت تُمْسِكُ بالسّكاكينِ، بينما صاحِبَةُ البَيْتِ تُواصِلُ كلامَها، ولمَّا رأتْ أنّهنّ تَماسَكْنَ، وَرُحْنَ يُعْمِلْنَ سَكاكينَهنّ بالطّعام، أشارَتْ إلى يُوسُفَ فَخَرَجَ عليهن. فرأيْنَهُ وشاهَدْنَ حُسْنَهُ، فطارَ صوابُهُنّ، وصارتِ السّكاكينُ تَعْملُ لا إرادِياً، لِدَرَجَةِ أَنّهنّ لم يَشْعُرْنَ كيف قَطّعْنَ أيديَهُن، بعد ذلك عاد إلَيْهِنّ العقلُ والوَعْيُ فَقُلْنَ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ حِينئذٍ تَنَفّسَتْ زَوْجَةُ العزيزِ الصُّعَداءَ[1] وقالتْ: هذا هو الإنسانُ الذي لُمْتُنّني فيه، ثُمّ أَكْمَلَتِ ٱعْترافَها لهنّ، وهدَّدَتْ يُوسُفَ أمامَهنّ بأنّها ستَسْجُنُه إنْ لم يطاوِعْها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2].

أشفقتِ النِّسْوَةُ على زَوْجَةِ العزيزِ لهذِهِ المِحْنَةِ التي وقعَتْ فيها، ولم يَعُدْنَ يَرَيْنَ أنّ ما تَطْلُبُه مِن يوسُفَ عملٌ شنيعٌ وشائِنٌ، بلْ أكثرُ من هذا، رُحْنَ يُقْنِعْنَ يوسفَ بِأَنّهُ مُخطِئٌ إذا لَمْ يُطاوِعْها، وعليه تصحيحُ خَطَئِهِ، أو توحي إليه كلُّ واحدةٍ مِنْهُنَّ أن يَفْعَلَ ذلك معها هي، قالت امرأة العزيز: هذا الذي لُمْتُنَّني في حُبِّهِ الذي دَخَلَ إلى سويداءِ قلبي، وأنتُنَّ لم تَرَيْنَهُ، هو هذا الذي أَدْهَشَكُنَّ لمَّا رَأَيْتُنَّهُ، وقَطَّعْتُنَّ أيديكُنَّ ذاهلاتٍ وأنْتُنَّ تُقطِّعْنَ الفاكهةَ، أَفَأُلام على أنَّه شَغَفني حُبًّا؟؟

عندئِذٍ لا بُدَّ أن يَقُلْنَ لها جَميعاً: لا لَوْمَ عَلَيْكِ في أن تراوِديه عن

---

(١) تنفست الصعداء: أحست بالارتياح والسرور فأخذت نفساً عميقاً.

(٢) يوسف: ٣٢.

الألوكة
www.alukah.net

نفسِهِ، ولو كُنَّ مكانك لَفَعلنا مِثْلَ ما فَعَلْتِ وكانت تَعْلَمُ صفاتِ نساءِ مُتَمَعِها، فَطلبتْ منهنّ أن يُعِنَّها على إقناعِهِ وإخضاعِهِ لِطَلَبِها ويظهرُ أنَّهُنَّ تعاطَفْنَ مَعَها، فَجَعَلْنَ يُعَطِّفْنَهُ عليها ليُلَبّي طَلَبها، حتى لا يؤثّر حبُّها الشديدُ له على عَقَلها فتُجَنَّ[1].

كما قال الشيخُ محمد متولي الشعراوي في شرحِهِ لِقَصَّةِ هذا النَّبِيِّ الكريم: (يبدو أَنَّهنَّ عندما رأيْنَ يوسفَ أَشَرْنَ إليهِ ببعضِ أنواعِ الإشاراتِ التي يُفْهَمُ منها أَنَّهنَّ يراوِدْنَه عَنْ نَفْسِهِ، أو صَدَرَ مِنهن كلاماً بِذَلِكَ لم تأتِ به الآيةُ الكريمةُ، وإلّا فلماذا كان الخِطابُ بالجمعِ هنا؟ إنهنَّ ساعةَ رأيْنَهُ نَسِيْنَ أَنْفُسَهُنّ وَسَطَ الِانْفِعالاتِ والذهولِ، فكما قَطَّعْنَ أيديهن دون أَنْ يدرِيْنَ، صدرت مِنهن إشاراتٌ أو إيماءاتٌ أو تعبيرٌ بالوجه دون أن يدرين)[2].

سامي: يا سلام!!! ما هذا المَنطِقُ الغَرِيبُ! وما هذه الأخلاقُ السَّيِّئَةُ!

الوالد: هذا مَنْطِقُ من لا دِيْنَ لهم ولا هدفَ يَسْعَوْن لِتَحْقِيقِهِ، إلّا الِاستكثارُ مِنْ مُتَعِ الحياةِ، همُّهُم فَقَطِ الشَّهواتُ والمَلَذّاتُ والمُتَعُ، وما يأكلون وما يشرَبون....

أحمد: لَقَدْ صاروا كالحَيوانات.

الوالدان: بَلْ أضلُّ سبيلاً. هكذا وَصَفَهُمُ القُرآنُ الكريمُ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

جميل: ماذا فَعَلَ يوسُفُ في هذهِ الحالِ، ولا سيّما بعدَ أنْ تَمَّ تهديدُهُ بالسَّجْنِ؟

---

(١) الميداني، حسن حبنكه، معارج التفكر ودقائق التدبر، المجلد العاشر، ص٦٦١.
(٢) الشعراوي، قصص الأنبياء، (بيروت، دار الكتب العلمية)، المجلد٢، ص١٠١٨.
(٣) الفرقان: ٤٤.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: دعا ربَّهُ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِن كَيْدِهِنّ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

لقد فضَّلَ السِّجنَ على فِعل الفاحِشةِ ومعصيةِ اللَّهِ تعالى، وفعلاً، فقد آيَسَتْ منه النِّسوة، وأَمَرَتْ امرأة العزيز بِسِجْنه.

أحمد: لقد لفت انتباهي شيء مهم. الحديثُ كلُّه كان عن غِيبة النّساء لِزوجةِ العزيز، ولكن هذه الغيبة سُمِّيَتْ مرة مَكْراً ومرّة كَيْداً، لماذا؟

الأم: سؤالٌ مهم حقّاً. والسَّبَبُ في ٱخْتِلاف التَّسميةِ أنها تَحْدُث في الخَفاء بأهداف مختلفة، فمن النسوة كن يمكرن لامرأة العزيز، بين دعوتها لهن وحيلتها كانت كيداً لهن ودفاعاً عن نفسها وتكذيباً لمكرهن.

سامي: لَدَيّ سؤالٌ! هل حَقاً قَطّعَتِ النِّسوة أيديَهن؟ وهل عِشْنَ بَقِيَّة حيواتِهِنّ بدون أيدٍ؟!!

ابتسمتِ الأمُّ للبراءَةِ التي يتكلّم بها ٱبنُها وقالت: لا، لا، لقد جرَحْنَ أصابِعَهُنّ ولكنْ بِشَكْلٍ خَطير، وصارَتِ الدماءُ تَتَدَفّق منها...

سامي: آه! أجل! هذا تعبيرٌ (مَزاجيٌ) كما تقولون!

أحمد: بل تعبيرٌ مجازِي.

الأب: هناك لَفْتةٌ أريدُ أن أنبِّهَكُم إليها، وهي أن الإنسانَ لا يجوزُ له القيامُ بعملٍ شِرّيرٍ إطْلاقاً، ولو تعرَّضَ للتهديدِ بالسِّجنِ أوِ الطَّرْدِ مِنَ العَمَلِ أوِ البلد، ولكنّ الأمرَ يَخْتَلِفُ لو تعرّضَتْ حياتُهُ هو شخصياً أو أولادُهُ للخَطَرِ، لأنه مَسؤولٌ عنِ المحافظة على الحياةِ فلا بأس من الاحتيال لانقاذ نفسه وليس لإيذاء الآخرين، تماماً كما حَصَلَ لِسَيدِنا عمّارِ بْنِ ياسِرٍ، عندما أَجْبَرَهُ الكُفارُ على التَّلَفُّظِ بكلام يُسيءُ إلى الإسْلام وَنَبِيِّ الإسْلام، فقد هدَّدوهُ بالقَتْلِ، ولكنْ بَعدَ أَنِ ٱنْتهتْ مِحنَتُه جاء إلى

---

(١) يوسف: ٣٣.

الألوكة
www.alukah.net

رسول الله ﷺ، فأخبره بما حَدَثَ منه، فقال لَهُ رسولُ الله ﷺ عندما تلفّظْتَ بهذا الكلامِ هل كنت تَقْصُدُ الكُفْرَ أمْ أَنّ قَلْبَك كان مُطْمَئِناً بالإيمانِ؟ فقال: بل كان قلبي مُطمئناً بالإيمان. فقال له رسول الله ﷺ وهو يبتسِمُ: «**إن عادوا، فقل لهم مِثْلَ قولِك هذا**»(١). ثم تلا عليه الآيةَ الكريمةَ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٢).

جميل: وماذا حدث بعد دخول يوسف عليه السلام السجن؟

الأم: يوسف عليه السلام موقوفٌ ولم يُصْدِر القومُ الظالمون حكماً بالسجن ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، لم يحدّدوا السنوات التي يُسْجَنُ فيها، وإنما أرادوا وضعه في السجن مُدَّةً مفتوحة، تَنْتَهي بانتهاءِ القضيةِ عندَ الناس، فطالما أن الأَلْسِنَةَ تَتَحَدّثُ بقضيةِ امرأةِ العزيزِ مع فتاها فلا بد أن يبقى يوسفُ عليه السلام في السجن.

و﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ عندما أُدْخِلَ يوسفُ عليه السلام السجنَ، دخل معه فتيان آخران سجينان، قادَهُما قَدَرُهما إلى الانتقال من خِدْمَةِ الملك مع حاشِيَتِه إلى السجن، ولا نعرف عنهما شيئاً فكل ما يَتَعَلَّقُ بهما مُبْهَمٌ، فلا نعرفُ عن أمْرِهما شيئاً، لا نعرف اسمَ كلٍّ منهما، ولا وَظيفَتَه عند الملك قبل سجنه، ولا سبب سجنه، لأنه لم تذكر تفاصيل ذلك في القرآن ولا في أي حديث لرسول الله ﷺ. تعامل يوسف عليه السلام مع صاحبيه بأخلاقه الفِطْرِيَّةِ السَّمْحَةِ فأَحَبّاهُ وأُعْجِبا به، ونشأت بينه وبينهما صلةٌ وصُحْبَةٌ، وصار موضعَ ثِقَتِهما.

وقدّرَ اللّهُ أن يَرَى كُلُّ واحدٍ من السجينين رُؤْيا، فقام يَقُصُّها على صاحِبِه وصديقِهِ يوسفَ طالباً منه تأويلَها:

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٨٠، تفسير سورة النحل، الآية: ١٠٦ بتصرف.

(٢) النحل: ١٠٦.

الألوكة
www.alukah.net

فقال له أحدُهما: رأيتُ في منامي أني أَعْصِرُ خَمْراً، وقال الآخر: لقد رأيتُ أني أحمِلُ على رأسي خُبزاً للملِكِ والطُّيورُ تأكُلُ مِنه قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

سامي: وكَيْفَ أوَّلَ سيّدُنا يوسفُ هذين الحُلُمَيْنِ؟!

الأم: وَجَدَ سيّدُنا يوسفَ عليه السلام الفُرصةَ مُؤاتِيَةَ لِنَشْرِ دينِ اللَّهِ الصحيحِ: الإسلامِ، ودَعْوَةِ السجينين إلى عبادةِ الله تعالى وحدَهُ.

أحمد: يَنْشُرُ دَعْوةَ (لا إلٰه إلا الله) في السجنِ؟!

الأم: طبْعاً! وما المانِعُ؟! في بيتِ العزيزِ لم يَتَمَكّنْ مِن نشرِ الدعوةِ التي خَلَقَهُ اللَّهُ لأَجْلِها، فقد كان عبداً رَقيقاً ليسَ له كلمةٌ مُطاعةٌ، حتى إنهم سَجَنوه لِرَفْضِهِ أوامِرَهُم. ولكنْ بمجرَّدِ دخولِهِ السِّجنَ تَخَلَّصَ من قيودِ العُبوديَّةِ، إذ لم يَعُدْ بإمكانِ العزيزِ مُطالبَتُهُ بالعَوْدة إلى بَيْتِهِ، لِئلاّ يَفْقِدَ ما تَبَقّى مِن كرامتِهِ وشرَفِهِ بين الناس. هكذا نرى أن السِّجْنَ في هذه الحالةِ أضحى مُتَنَفّساً للحُرِّية.

الأب: لهذا قُلْنا إنّ الإنسانَ لا يجوزُ له الإقْدامُ على فِعل الشّرِّ إذا تَمَّ تهديدُه بالسجن، وقد جاء في القُرآن الكريم ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[2].

الأم: أجل سبْحان اللَّهِ. إنه سَيُتِمُّ أمرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون. وقد ظَهَرَ ذكاءُ سيدِنا يوسفَ عليه السلام وعبقريتُه في هذا الموقِفِ. فلو أنهُ أجابَ صاحبَيْهِ

---

(١) يوسف: ٣٦.

(٢) البقرة: ٢١٦.

الألوكة
www.alukah.net

عن سؤالِهما مُباشرة فلن يَضْمَنَ استماعَهُما إلى دَعْوَتِه، بل المؤكَّدُ أنهما سيَكْتَفِيانِ بذلِكَ ولن يسمعا شيئاً آخرَ، لهذا بدأ كلامَه بالدَّعْوةِ للإسلامِ، لعبادَةِ اللَّهِ الواحِدِ، لقد أَخْبَرَ صاحبَيْه أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أنبياءِ اللَّهِ يُوحَى إليه ما لا يوحى إلى غَيْره قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1]، وهكذا نرى كيف أن يوسف عليه السلام بدأ بتَبْليغِ دَعْوَتِهِ بما يمكن أن يكونَ أقربَ إلى أفهامَ المَدْعُوِّينَ، فهم يُؤْمِنونَ بتأويلِ الأحلامِ والمعجزات الخارِقَةِ للعادَةِ، فقال إنه سَيُخْبِرُهُما بما يأتِيهما من طعامٍ قَبْلَ أن يَرَياهُ، وإنّ هذا التأويلَ قد علَّمَهُ إياهُ الله، ثم أَخْبَرَهُما أَنّه لا يَعْبُدُ آلِهَةَ الفراعِنَةِ ولكنهُ يعبُدُ اللَّهَ خالِقَ كُلِّ شَيْءٍ، القَوِيَّ القادِرَ المُتَحَكِّمَ، الذي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ ولا يشكُرون. وهذا هو مَنْهَجُ جميعِ الأنبياءِ والمرسَلِينَ، ثم أَخْبَرَهُما أن آباءَهُ وأجدادَهُ يعقوبَ وإسحاقَ وإبراهيمَ اعتَنَقُوا هذا الدِّينَ، وأن ذلك من فضلِ اللَّهِ عليهم.

أحمد: هذا يعني أَنهُ بالإضافَةِ إلى دَعوةِ التَّوحيدِ التي أَعْلَنَها في سِجْنِه عَرَّفَ صاحِبَيْهِ بِنَفْسِهِ، ولكنْ هل هذا يَهُمُّ الفَتَيَيْنِ؟ بمعنى هل يَعْرِفانِ آباءَهُ، وهل مَعْرِفَتُهما هذه تؤثِّرُ في قَبُولِهما كَلامَه؟

الأم: طَبْعاً فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهما يَعرِفانِهم ـ وَلَو سماعاً ـ فَهَلْ نَسِيْتُم أنَّ سيِّدَنا إبراهيمَ ذَهَبَ إلى مِصْرَ مَعَ زَوْجَتِهِ سارَةَ، وأَنَّ مَلِكَها (الفِرعَوْنَ)

---

(١) يوسف: ٣٧ ـ ٤٠.

الألوكة
www.alukah.net

وَهَبَها «هاجَرَ» التي وهَبَتْها بدَوْرِها لِزَوْجِها عَلَّها تُنْجِبُ له الولدَ، فَأَنْجَبَتْ لَهُ سيِّدَنا إسماعيلَ؟

أحمد: بلى، هذا صحيحٌ.

الأم: مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ هذه القِصةَ لم يَنْسَها المِصريّون، بلْ ظلَّت في ذاكرتِهم يَذْكُرونها في مجالسِ سَمَرِهم، ويُسْمِعونها لأولادِهِم، لِيُذَكِّروهم بأنَّ لهم أقارِبَ وذوي رَحِمٍ في بلاد العَرَبِ؛ والعلائقُ التجاريَّةُ متينةٌ بَيْنَهُم، بالرَّغم مِنْ أنَّهم لم يتَّبِعوا دين إبراهيمَ ولا إسماعيلَ وظلُّوا يَعْبُدون الشمسَ التي كانوا يُسَمونها (ع).

هذا من ناحيةٍ. ومن ناحيةٍ أُخرى عندما يكونُ المُتَحَدِّثُ مَعروفَ الأصلِ الكريمِ، فهذا يُسَهِّلُ عليهِ عمَلَهُ في جميعِ المجالاتِ، لأَنّ كثيراً مِنَ الناسِ لا يحترِمون مَنْ يَجْهلونَ نَسَبَهُ، ولا يَسْمعون لِكلامِهِ، فكيف لو كانوا يعتقِدون فيه وَضاعة؟

بعد ذلك ذَكَرَ لَهُمُ الدِّينَ الذي يَدِينُ بهِ، لِيُذَكِّرهُم بدينِ إبراهيمَ، وليعرِفوا أَنَّهُ يدعوهُم إلى دَعوةِ إبراهيمَ نفسِها، فلا يجِدون في كلامِه غرابةً فيسْهُلُ تصدِيقُهم لَه.

ثُمَّ ٱنْتَقَلَ بالفَتَيَيْنِ مِنْ دَوْرِ الِاسْتِماع إلى دَعوةِ التوحيدِ التي يدعوهم إليها، إلى مرحلةِ المقارَنَةِ والمُفاضلة بَيْنَ ما يدعوهم إليه، وما هم عليه من عبادَةِ أربابٍ متفرِّقينَ، إذ أيهما أفضل؟ أنْ تعبُدَ إلٰهاً واحداً بيدِهِ الأمرُ كلُّه، أو أن تعبُدَ آلهةً متعدِّدينَ، وتكونَ مُشَتَّتاً بينَهُم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1]، فهذه الآلِهَةُ التي تعبدون ضَعيفةٌ لا حَوْلَ لها ولا قُوَّة، فهي مخلوقةٌ مِثْلُكم، لا تستطيعُ فِعل شَيْءٍ إلّا بإذنِ الله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ

(١) يوسف: ٤٠.

الألوكة
www.alukah.net

أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[1]، وبما أنّ تِلكَ الآلهةَ مَخْلوقةٌ لا تستطيعُ فِعل شيءٍ بِنَفْسِها، وبما أنَّ الله هو الخالِقُ العظيم، فالعُبُوديَّةُ تَجِبُ لَهُ، لأنَّه هو الحاكِمُ المُتَحَكِّمُ... وختم كلامَهُ بأنَّ أكثَرَ الناسِ يَجْهلونَ قَدْرَ اللَّهِ، ويَعبُدون ما لا يَستَحِقُّ العِبادةَ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهكذا نرى أَنَّ سيدَنا يوسُفَ عليه السلام اتَّبع طَرِيقةَ الحِوار والمُقارَنةِ والمُفاضَلَةِ في سبيلِ نَشْرِ دعوتِهِ.

تابعت الأم: ثم عادَ إلى الحُلُمَيْنِ يُؤَوِّلُهُما. فَبَشّرَ الأول بالخَلاصِ مِنَ السِّجنِ، وَعودَتِهِ إلى عَمَلِهِ عِنْدَ المَلِكِ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾[2].

ثمَّ قال للثاني إنَّه سَيُحْكَمُ عليهِ بالصَّلْبِ، فتأكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رأسِهِ ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾[3].

وبعدما أوّلَ يوسفُ لِكُلٍّ منهما رؤياه، اِلتفَتَ يوسفُ إلى السجين الذي سَيُفْرَجُ عنه، وسيعود إلى خِدْمَةِ الملك، وَيَعْمَلُ في حاشِيَتِهِ، فطلب منه أن يَذْكُرَهُ عند الملك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

أي: قالَ يوسفُ للسجين الذي اعتَقَدَ أنه سَيَنْجو، وسيعودُ إلى خدمَةِ المَلِكِ: أذكُرْني عند المَلِكِ الذي أنتَ ذاهبٌ لِخِدْمَتِهِ ومِلكِكَ الذي ستُسْقيه خمراً! وهذه الالتفاتةُ من يوسف طَبِيعيَّةٌ مَنْطِقِيّةٌ، فهو مَسْجونٌ ظُلْماً، وقد لَفقَ له الملأُ تُهْمَةً كاذِبةً، وتآمَرُوا عليه مؤامرةً خَبيثةً، وأُدْخِلَ السجنَ بدون محاكمةٍ أو مَحْكَمَةٍ أو حُكْمٍ وهو الآنَ في السجن، ولا يدْري كم سيَمُرُّ عليه من السنواتِ وهو موقوفٌ ظُلْماً، وَيَخْشى أن يَنْساه المتآمِرونَ في السِّجن، وأن يَتْرُكُوه فيه سنوات وسنوات.

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢)(٣) يوسف: ٤١.

الألوكة
www.alukah.net

ولعل الملكَ لم يكُنْ يعلَمُ تفاصيلَ قِصَةِ يوسفَ، ولعلَّها لم تَصِلهُ على الحقيقة، ولعلّ الملأ المتنفذين المتآمين قدّموها له على غير حقيقَتِها، فأرادَ يوسف أن يوصِلَ الحقيقةَ إلى الملك، وأن يُطْلِعَهُ على تفاصيلِ القضِيّة كما وقعت فعلاً، وأن يُبَيّنَ له أنه مَظْلوم، وأنه سُجِنَ مَظْلوماً، وأن المعتديةَ هي امرأة العزيز!

كل ما هنالك أن يوسف أراد أن يأخذ بالأسباب المادية مع توكله على الله المسبب والقادر والمريد.

وتحققّت رؤيا كلِّ سجينٍ كما أَوَّلَها له يوسف.

فأُخِذَ أحدُهُما وقُتِل، وعُلِّقَ مَصْلوباً، وجاءَتْ الطيرُ وأكَلَت من رأسه.

وأَفْرَجَ الملكُ عن السجينِ الآخَرِ، ومَنَحَهُ رضاهُ، وأعادَهُ إلى الخِدْمَةِ، وصارَ يَسْقي ذلك الملكَ خَمْراً.

وانْغَمَسَ ذلك الرجل في حياة القصر المُتْرِفَة الجَديدَة، وَأَقْبَلَ على مُتَعِها ولذاتِها وَنَسِيَ ماضيه ومحنَتَه: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ نَسِيَ السِّجنَ وما فيه، نَسِيَ صاحِبَهُ السجينَ يوسف الذي أوَّلَ له رؤياه، والذي طلب منه أن يشرَحَ تفاصيلَ قَضِيَّتِهِ للمَلِكِ، أنسى الشيطانُ السجينَ المفرَّجَ عنه تذكيرَ الملك بقضيّةِ يوسف، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، أي: قضى يوسف عليه السلام في السجن موقوفاً بضع سنين.

وكلمة «بضع» سنين مُجْمَلَةٌ غيرُ مُحدَّدَةٍ، والبضعّ في اللغة يُطْلَقُ على العددِ منَ ثَلَاثَةٍ إلى تِسْعة.

ولا نقدِرُ على تحديدِ عَدَدِ السنواتِ التي قضاها يوسفُ في السجن، فقط ما قاله الله: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

الألوكة
www.alukah.net

وإنَّ الله حكيمٌ فِيما قَدَّرَهُ من نسيانِ ذلكَ الرجلِ لِقَضِيَّةِ يوسفَ لأنه قَدَّرَ مشاهِدَ وأحداثاً تالية، مَبْنِيَّةً على بقاءِ يوسفُ في السجنِ لأنه لا يريدُ لوليّه وحبيبه يوسفَ أن يخرُجَ من السجن بواسطة أحدِ رجالِ الملك أو بِعَفْوٍ خاص من الملك، حتى لا يكونَ لأحدِ هؤلاءِ الكافرينَ مِنَّةٌ عليه، وحتى لا يُعْرَفَ عند الناسِ بأنه مُجْرِمٌ مُعْتَدٍ، عفا عنه الملك.

وإنما يريد الله له أن يخرج من السجن بِعزّتِهِ وكَرَامَتِهِ، وعِفَّتِهِ وطَهَارَتِهِ، بعدما تُعادُ محاكَمَتُهُ، وبعدما يَشْهَدُ الجميعُ له، لِيَخْرُجَ مرفوعَ الرأس، لا يحمِلُ مِنَّةً ولا جَميلاً إلا لله سُبْحَانَهُ وتعالى.

سامي: ولكن كيف خرج سيدنا يوسف من السجن؟ هل ظهرت براءته؟

الأم: بعد مرور هذه الفترة الطويلة حدث ما لم يكن بالحسبان ولم يُفَكِّر فيه أحد. لقد رأى الملك رؤيا أقضت مَضْجَعَه وَحَرَمَتْهُ النَّوْمَ. هذه الرُّؤْيا كانتِ السَّبَبَ المباشِرَ في خروجِ سيدِنا يوسُفَ مِنْ مِحْنَتِهِ.

ظَهَرَ الاْهتِمامُ على وُجوهِ الأَوْلادِ، ولا سِيَّما سامي.

تابعَتِ الأمّ كلامَها: لقد رأى الملِكُ سَبْعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ. هَبَّ الملك من رُقادِهِ فَزِعاً مَرعوباً، وَأَرسَلَ بِطَلَبِ العَرّافينَ، الذين يُحْسِنونَ تأويلَ الأحلام، ولكنهمْ عَجِزوا عن تفسير هذا الحُلُم وقالوا إنها أضْغاثُ أحْلام، ثم اعترفوا بعجزهم بقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

ولكنّ ذلك زاد من خَوْفِ المَلِكِ وإلحاحِهِ في طَلَبِ مَنْ يُفَسّر له

(١) يوسف: ٤٤.

الألوكة
www.alukah.net

حُلُمَهُ في هذا الوَقتِ تَذَكَّرَ النّاجيْ مِنَ السِّجنِ صاحِبَه يوسُفَ، وتذكّرَ أنه طلَبَ منه أن يَذْكُرَه عِندَ رَبِّه فقال للملك أنا أعلم مَنْ يَسْتَطيعُ تَفْسيرَ الحُلُم، أرسِلوني إليه لأنه نزيلُ السجنِ. واستطرَدَتِ الأُمّ: وهذا دليلٌ على أَنَّ السِّجنَ كان في مكانٍ بَعيدٍ عَنِ العُمرانِ، مما يزيدُ في عذابِ السَّجين، وغُرَبتِهِ عن أهلِهِ، إذ لم تكن طرقُ المواصلاتِ سهلةً كما هو اليوم، وكان أهلُ السجينِ يفترضونَ في أنفُسِهِمْ أنَّ ابنَهم قد مات من لحظةِ سَجْنِهِ.

وافَقَ المَلِكُ على إرسالِ الرجل (الفتى) إلى السّجنِ لِسؤالِ يوسُفَ، ولم يرفُضْ يوسفُ ولم يَمْتَنِعْ عَنْ إجابَةِ ٱلطَّلب، ولم يَشْتَرِطْ إخْراجَهُ مِنَ السّجنِ. هذا التسامُحُ وهذه الشفافِيَةُ هي مِنْ شِيَم أصحابِ النّفوسِ العَظيمةِ مِنَ الأَنْبياءِ والصّالحينَ. فقال لصاحِبِهِ إنّ البَقَراتِ السَّبْعِ السِّمانِ تعني سَبْعَ سِنينَ خَيِّرَةً مليئةً بالرِّزْقِ والخصب، يأتي بعدها سَبْعُ سنواتٍ مُجْدِبَةٍ، تأكل ما زَرَعوه في السبع الأوائل، ثم يأتي بعدَ ذلك عامٌ يُغاثُ فيهِ النّاس، ويَعُمّ الخَيْرُ والرزق ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

أحمد: كيف فَسَّرَ يوسُفُ الحُلُمَ بِهذا ٱلشَّكلِ؟ لقد رأى المَلِكُ سبْعَ بقراتٍ سمانٍ، وسبع بقراتٍ عجافٍ، وأوَّلَ البقراتِ بالسَّنَواتِ، ثمّ أوّلَ السنابِل بالمزروعاتِ، فهذه أربعُ عشْرةَ سنةً، فمِن أين جاءَ بالعام الذي يغاثُ فيهِ النّاسُ وفيهِ يَعصِرون؟

الأب: هذا دليلٌ على نُبُوَّةِ يوسُفَ فإن الله علّمَهُ تأويلَ الأحاديث، وأَنْتُم تَعْلَمون أنّ لكل نَبِيٍّ مُعجِزةً، والمعجزةُ تكون قريبةً من حيث الظاهر

(١) يوسف: ٤٧ ـ ٤٩.

الألوكة
www.alukah.net

من ما ٱشْتَهَرَ بِهِ قومُ كلِّ زمانٍ. وتأويلُ الأحلام كان شائِعاً في ذلك الزمان، ولوِ ٱنْحَصَرَ تأويلُ يوسفَ لِلْحُلُم على السّنواتِ الأَرْبَعَةَ عَشْرةَ لما كان في ذلك شيءٌ جديدٌ، ولكنّ اللَّهَ سُبْحانه وتعالى أَلْهَمَهُ بذكْرِ العام الخامِسَ عشَرَ مُعْجِزَةً تَدُلّ على نُبُوّتِهِ، وهذه هي الرؤيا الثالثة والأخيرة في قصة يوسف عليه السلام.

إن رؤيا الملك تُشيرُ إلى الوَضْعِ الزراعي والاقتصادي والمالي خلال الخمس عشرة سنة القادمة! بما فيها من رخاء، ثم قحط، ثم غوث!

وإن الله الحكيمَ الذي يفعلُ ما يشاءُ، قد قَدَّرَ أن تَمُرَّ مِصْرُ بهذه الثلاثة خلال الخمس عشر القادمة: رخاء، ثم قحط، ثم غوث وأوحى له بذلك في الرؤيا، رغم أنه ملك كافر، كان يدّعي الربوبية!

وهذا معناه أن الرؤيا الصادقةَ ليست مقصورةً على الصالحين، فقد يرى بعضُ الكفار رُؤى صادقة، تصدُقُ على الواقع، وتكون إيحاءً لهم من الله رُغْمَ كُفْرِهِم، لِحِكْمَةٍ يُريدها الله.

جميل: ولماذا لم يَشْتَرِطْ سَيِّدُنا يوسُفُ خُروجَهُ مِنَ السِّجْنِ ثمناً لِتأويلِ الحُلُمِ؟

الأم: هذا ما عَجِبَ له سيدُنا محمد ﷺ إذ قال: «**يرحمُ الله لُوْطاً، لقد كان يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ، ولو لبِثْتُ في السِّجنِ ما لَبِثَ يوسُفُ ثم أتاني الدّاعي لأَجَبْتُه**»(١).

ٱستأنَفتِ الأمُّ السَّرْدَ: عاد الرجل إلى المَلِكِ، وَأَخْبَرَهُ بما قال يوسُفُ، فَسُرَّ بِهِ وَطَلَبَ مِنْ رِجالِهِ إِخْراجَ يوسُفَ مِنَ السّجنِ والإتيانَ به إليه، إلّا أنَّ يوسُفَ رَفَضَ الخروجَ.

---

(١) البخاري، الصحيح، ٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، برقم ٣٣٨٧، و٦٥ ـ باب تفسير القرآن، برقم ٤٦٩٤.

الألوكة
www.alukah.net

كان لِهَذِه الجُملَةِ الأخيرةِ وقْعَ الصَدْمَةِ على نُفُوسِ الأولادِ، ولا سيَّما جميلٌ وسامي اللّذَينِ قالا: رَفَضَ الخروجَ؟ كيف؟ ولماذا؟ وهل يرفُضْ أحدٌ الحُرِّيَّة؟

الأم: نَعم، إذا كان يُرِيْدُ تَحْقِيْقَ شَيْءٍ عَظِيم، أَعْظَمَ لديهِ من حُرّيّتِهِ ذاتِها. لقد كان يوسُفُ يُرِيْدُ أن تَظْهَرَ براءَتُهُ، فقال للرجل: عُدْ إلى المَلِكِ، واسأله عن النسوةِ اللائي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنّ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾[1].

تَهَلَّلَ الأولادُ فرحاً وسُروراً، وَصَفَّقوا ٱغْتِباطاً لِخُطَّةِ سيّدِنا يوسفَ الذَّكيِّ.

أكْمَلَتِ الأمُّ: أُعْجِبَ الملكُ بتأويل يوسف، وطلب إحضارَه إليه، ولكن يوسف رفض الخروج من السجن بعَفْوٍ مَلَكي، وطالب الملكَ بإعادة بحث القضيةِ من جديد، فأعاد الملك المحاكمَةَ، وأتى بالشهود، فَقَدَّمَتْ النسوةُ شهادَتَهُنَّ ببراءةِ يوسف، واعترفت امرأةُ العزيزِ بأنّها هي التي راودته عن نفسه، وأنه عفيف طاهر.

وهكذا ثَبُتَتْ لهم براءةُ يوسف، وحكموا بأنه بريء، وبهذا تنتهي هذه المحنة الأخيرة في حياة يوسف، محنة السجن... حيث ستأتي المنح والنعم والعطايا بعد ذلك...

وهكذا ثبتت لهم براءة يوسف وهناك من المبهمات في شأن العزيز وامرأته فلا نعرف اسم كل منهما، كما أن هناك مبهمات في نهاية هذه المرأة بعدما آمنت، فلا نعرف هل تزوجت يوسف أم لا؟ وكيف قضت باقي عمرها! وعلينا أن نبقى فقط مع العرض القرآني!!

---

(١) يوسف: ٥٠.

الألوكة
www.alukah.net

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[1]. أما بَقِيَّةُ النِّسوةِ فكان جوابُهنّ لِلملِك لما سَأَلهنّ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[2].

أحمدُ: مِسكينٌ ذلك العزيزُ، لقد حاوَلَ بكافَّةِ جُهدِهِ إبعادَ الفَضيحةِ عَن نَفْسِه، ولكنَّهُ فجأةً وبدونِ سابقِ إنذارٍ، وَجَدَها تُطِلُّ عليهِ من خِلال السّتائِرِ السَّميكَةِ للماضي وتمدُّ لِسانها.

الأم: هذا صحيحٌ، فالحقُّ يعلو ولا يُعلى عليه، ومهما حاولَ الإنْسانُ طَمْسَ الحقائِقِ وتزييْفَها، فإنّها لا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ ولا تَموتُ، بل إنها تَظْهَرُ بشكلٍ أكثرَ وُضُوحاً ونَصاعَةً، كالذَّهَبِ الخام الذي متى أُزيلَ عنه الأَتربَةُ والشَّوائِبُ يبدو بَريقُهُ ساطِعاً يَخْلُبُ الأَلْبَابَ، وبهذا وقف الجميع على براءة يوسف عليه السلام، وأنه كان مسجوناً ظلماً طيلة السنوات السابقة.

الأب: ولا تَنْسَوا أن الله توعَّد الساكِتين عن الحقّ، الراضين بالذُّلِّ والخِذلانِ والتَّحقيرِ في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3]، أَيْ: هُمْ وإن كانوا أكابرَ في الدنيا فسيُصيبُهم صَغار عند الله، أَيْ: مذلّة.

---

(١) يوسف: ٥١ ـ ٥٣.

(٢) يوسف: ٥١.

(٣) الأنعام: ١٢٤.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: ولكني فرِحٌ جدًّا لِظهور براءة سيدِنا يوسُفَ عليه السلام وانتصارِه على مَن كادوا له.

كان الجميعُ فرحِينَ والبَسْمةُ ظاهِرةٌ على وجوهِهِم، إلّا أنَّهم كانوا يَشْعُرونَ بالتَّعَبِ والإرهاقِ وبَدأوا يتثاءبون، ولكنَّهم صَمَّمُوا على متابَعَةِ الإنصاتِ للقِصة. فقال الأب ـ لا بأس، يا أولاد، القِصَّةُ ما تزال طويلةً تحتاج منا إلى وقتٍ طويلٍ. نذهب الآنَ للنَّوم ونتابع غداً.

لبَّوْا طَلَبَ أَبِيْهِم بسُرعةٍ، فقاموا وقبَّلوا والديهم وذهبوا إلى غرفَتِهم.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

قصة رقم (١٤)
يوسُفُ عليه السلام
عزيزُ مِصرَ

اِتَّفَقَ أحمدُ وبعضُ رفاقِه الذين فازُوا في الامتحاناتِ الرَّسميةِ لِلشَّهادةِ المُتَوسِّطَةِ بزيارةِ زَميلٍ لَهُمْ في المدرسةِ، نَجَحَ في ٱمْتحاناتِ الشهادَةِ الثانويةِ بٱمتيازٍ، فقد حصلَ على أعلى مجموعِ علاماتٍ، وكان الأوَّلَ على جميعِ طُلّابِ وطنِهِ. ولأنَّ النَّجاحَ يُفرِحُ ويَبْعَثُ السُّرورَ فقد فرِحوا جداً لهذا الزميل؛ وبالرَّغم مِن أنَّه أكبرُ سِنّاً مِنْهم وأعلى في المرحلةِ الدراسِيَّةِ. إلاّ أنّه رفيقُهم في المدرسةِ، ونجاحُهُ يُعتَبر نجاحاً لِكلِّ أبناءِ هذه المدرسة.

اِسْتقبَلَهُمْ هو وإخوتُهُ بالتَّرْحابِ، وقابل فرحهم به بفرَحٍ أكْبرَ، وشَكَرَهُمْ على هديَّتِهِم، وَقَدَّم لهم أكوابَ الشرابِ وأصنافَ الحلوى التي أحضرها خِصّيصاً لهذه المناسبة.

سألوه عن التَّخصُّصِ الجامعِيِّ الذي ينوي الِاتِّجاه إليهِ. فقال: سأدخُلُ كليةَ الِاقْتِصاد الإسلاميّ.

فقالَ أحدُ الزُّملاءِ: جيّد! الِاقتصادُ شيءٌ مُهِمّ جِداً، وعلماءُ الاقتصادِ قليلونَ نِسبيّاً في بلادِنا.

الألوكة
www.alukah.net

وقال زميلٌ آخر: إذن نأمَلَ أَنْ تُصبَح خبيراً دَوْلياً في الاقتصاد، ولِنُجَهّزَ أنفُسَنا لِنُصْبحَ أغنياءَ.

ضَحِكَ الجميعُ حبوراً لهذه الخاطِرَةِ اللّطيفَةِ وٱلْمحَبَّبَةِ.

مرَّ الوَقْتُ بِسُرْعَةٍ وَلَمْ يَنْتَبِهوا إلّا عندما قال أحد المُهَنِّئينَ:

ـ هل سنظلُّ هنا! لقد أَطَلْنا ٱلْجلوسَ.

الزملاءُ: هذا صحيحٌ، ولكنّ الحديثَ كان مُمْتِعاً مِمّا جعلَنا لا نَشْعُرُ بِمُرورِ الوَقْتِ. نَهَضوا وودَّعوا زميلَهُم، داعِينَ لَهُ بالنّجاحِ المُسْتَمِرّ وتحقيقِ أحلامِهِ كما يُحِبُّ ويرجو.

اِفْترقَ الأَصحابُ، وعاد كلُّ واحدٍ منهُم إلى بَيْتِهِ، بعد أنِ ٱتَّفقوا على قَضاءِ السهرةِ مَعَ أَحمدَ وأَخَوَيْهِ.

بعْدَ صلاةِ العَصرِ جَلستِ الأُسْرَةُ في غرفَةِ المَعيشةِ ترتَشِفُ أكوابَ العصيرِ البارِدِ التي من شأنها إنعاشُهم، والتَّرويحُ عنهم، وإراحَتُهم مِنْ حَرِّ الصَّيفِ الذي يَكادُ يَخْنُقُهُمْ. وبينما هم كذلِكَ قال الأبُ:

الأب: أتذكرون عندما ذَهَبْتُ لِعيادَةِ صديقي المريضِ مُنذُ عدةِ أيامٍ؟

الأولاد: أَجَلْ. لماذا تسألُنا؟

الأب: لقد قلتُ لكُمْ يومَئذٍ إنّ هُناك مفاجأةً سأُخبِرُكُم بها فيما بعد.

الأولاد: نَعَمْ، أَجَلْ، هل ستخبِرُنا بها الآن؟

الأب: نعم. قالَها بِطَريقةٍ مُنَغَّمَةٍ! سأُخبِرُكم الآن.

أَنْصَتَ الأولادُ بِفُضولٍ، وَتابعَ الأبُ. سَنَقُومُ برحلةٍ تَرْفيهية قَبْل أن تبدأَ السَّنةُ الدِّراسِيَّةُ الجديدةُ.

الأولاد: إلى أين؟ فقالتِ الأُمَّ: إلى مِصرَ. رحلةٌ بَحْرِيَّةٌ.

صاحَ الأولادُ (بٱندهاشٍ)، أي إنَّنا سنركَبُ البَحْرَ!!

الألوكة
www.alukah.net

الأم: أجل. ألا تُحِبّونَ هذا؟

سامي: لكنْ هناك مُشكِلةٌ؟

الأب: وما هي هذه المُشْكِلَةُ؟

سامي: العامُ الدراسيُّ الجديدُ سيبدأُ بعد حوالَيْ الأسبوعينِ، والسَّفَرُ يَحْتَاجُ إلى إِعدادٍ وَسَعيٍ حثيثٍ، فمِنْ أينَ سنأتي بالوَقتِ الكافي لإحْضارِ بطاقاتِ السَّفَر و....

الأب: هذه هي المُشكِلَةُ؟ لا تهتمّوا بذلك، فقد جَهَّزْنا كُلَّ شيءٍ دونَ أن تُحِسّوا، ولن نحتاجَ إلى أكثرَ مِنْ أسبوعينِ للذَّهابِ والعودَةِ وزيارَةِ الأماكنِ الأثريَّةِ وكلِّ ما نريدُ أن نراهُ هناك!!

فَتَحَ الأولادُ أفواهَهُم بآندهاشٍ، ولكنَّ الدَّهشَةَ زالتْ عن أحمدَ قبلَ أخوَيْهِ فسأل: ومتى سنبدأ الرحلة؟

الأب: بعد غدٍ بإذنِ الله.

جميل وسامي: ولكن لماذا خبأْتُم عنّا هذا؟

الأم: لتكونَ مُفاجأةً جميلةً، ثم تطبيقاً للسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ الشَّريفَةِ. فقد وصَّانا رَسُولُ الله ﷺ بالكِتمانِ. فقال: «**اسْتعينوا على إنْجاحِ حوائِجِكُم بالكِتمانِ**»[1]، فكثيراً ما يَفْشَلُ العَمَلُ ـ أو المشروعُ ـ إذا تمَّ الإعلانُ عنْهُ. ولو أخبرْناكُم بها فَلَرُبما لم تستطيعوا إخفاءَ الأمرِ عن أصحابِكُم ـ وإنْ وَصَّيْناكُمْ.

سكتَتْ قليلاً ثم قالَتْ مُبتسمةً: ليْستْ هذِهِ كلَّ المفاجأةِ! نَظَرَ الأولادُ إليها وهي تتابعُ: «خالتُكُم وزوجُها سيكونانِ مَعَنا».

---

(١) البخاري، برقم ٦٦٠، ومسلم، برقم ١٠٣١.

رواه الطبراني وغيره كثيرون، بصيغة: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».

الألوكة
www.alukah.net

وهنا علا الهُتافُ: وَٱبنتُها سارةُ!! يا اللَّهُ! هذه هِيَ المُفاجأةُ الحقيقيةُ ـ حقّاً نحنُ فرحونَ، لقدِ ٱشْتَقْنا إليهِم جِداً، وخصوصاً الصغيرةَ الجميلةَ سارةَ، ستكونُ رحلتُنا مُمْتِعَةً لِلغايَةِ.

أحسَّ الجميعُ بالسعادةِ والحُبورِ. فجأةً قال الأبُ:

الأب: ولكنْ هناك شيءٌ مُهِمٌّ يَجِبُ أَنْ نَتَحَدَّثَ عنهُ.

اِلتَفَتُوا إليهِ جميعاً. مُتَسائِلينَ: ما هو؟

الأب: ألا تريدونَ شِراءَ بعضِ الأَشياءِ مِن هُناك بأنْفُسِكم، أمْ تكتفونَ بما سنُحضِرُه نحنُ: أنا وأمُّكُم؟

الأولاد: بل نشتري ما يُعْجِبُنا بأنْفُسِنا.

الأب: إذنْ سأُعطِيَكُم ما يَكْفِيْكُم، على أنْ لا تَشْتَرُوا إلّا ما تَرَوْنَهُ مُفيداً. فلن تَحْصُلوا على مالٍ غيرِهِ، ولن أسمَحَ لأحدِكُم بالٱقتراضِ مِن أخيه.

أحمد: وكم سَتُعْطِيْنا؟

الأب: سأعطيْكُم مبالِغَ مُتَساويةً: تَكْفي لِشِراءِ الضّروري من الحاجات.

اِبتسَمَ أحمدُ: وَسَكَتَ جميلٌ مُفكِّراً في الأَمْرِ. ولكنّ سامي قال: هل سأحمِلُ بِيَدِي هذا المبْلَغَ؟ لا، لن آخُذَ شيئاً. سأُبْقِي المالَ مَعَكُم، وآخذُ مِنه إذا أَرَدْتُ، فأنا أخافُ أَنْ أُضَيّعَهُ. فَقَطَ سَأَحْمِلُ في جَيْبِي مُفَكِّرَةً أُسَجِّلُ عليها المَبالِغَ التي سآخُذُها حتّى لا أُخْطِئُ في الحِسابِ.

جميل: وأنا كذلك. فهذا أَكْثرُ أماناً.

أحمد: أمّا أنا فسآخذُ المالَ معي، فقد صِرتُ كبيراً، ولكنْ سأفعلُ شَيْئاً قريباً مِما قُلْتُما. سأُجَهِّزُ مِنَ الآنِ قائمةً بالأشياءِ التي أريدُ شِراءَها منْعاً للنِّسْيانِ.

الألوكة
www.alukah.net

الأبُ: لكُم ما تُريدونَ على أن تُحْسِنوا الاخْتيارَ فلا تُبَذِّروا، لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1].

الأم: ما رأيُكُم؟ لَدَيَّ فِكرةٌ أعتَقِدُ أنَّها مناسِبةٌ، تَسمحُ لَكُم بِشِراءِ كلِّ ما تُريدون بِدونِ أَنْ تُنْفِقوا كَثيراً مِنْ أموالِكُمْ؟

سامي: كيف؟!

خَفَضَتِ الأُمُّ قليلاً مِن حماسَتِها وقالت: لا، عليكُم أنتم التفكيرُ والتَّخطيطُ، ولا يَصِحُّ أنْ أفكِّر عنكُم إلّا عِنْدما تعجَزُونَ. يكفي أنّي أَعْطَيْتُكُمُ الفِكرةَ المَبدئِيَّةَ.

ابتسَمَ الأبُ عندما رأى أولادَهُ وقدِ ٱنْهَمَكوا في حلِّ اللُّغزِ: كيْفَ يشترون كلَّ ما يْريدونَ بأسعارٍ أَقَلَّ.

بعد تفكيرٍ، قال أحمد: يَجبُ علينا أوّلاً تدوينُ ما نَوَدُّ شِراءَه، كلٌّ واحِدٍ مِنّا على ورقةٍ مستقِلَّةٍ، فقد نَجِدُ الحَلّ.

نَفّذوا الفِكرةَ دُونَما إبطاءٍ. ولَمّا انتَهَوا قرأوا ما كَتَبُوا، فإذا بهم يريدون إحضارَ أشياءٍ مُتَشابِهَةٍ فقال جميلُ: لقد وجدْتُ الحلَّ.

الجميع: ما هو؟

جميل: ألسنا جميعاً أسرةً واحدةً مُتّفقةً ومُتعاوِنةً، وكلُّ ما يُوجَدُ في البيتِ نستعملُهُ كلُّنا؟

هزُّوا رؤوسَهُمْ إيجاباً. فَتابَعَ جميلٌ. فَلِماذا لا نَتَعاوَنُ الآنَ أيضاً ونَشْتري الأشياءَ المُشْتَرَكةَ وَنَقْتَسِمُ ثَمنَها، وبهذا نوفِّرُ ثمن التعدّدِ، وبعد ذلك نشتري حاجِيّاتِنا الخاصَّةَ كلٌّ بمفردِهِ.

الأمُّ: أحسنْتَ. هذا ما أردتُهُ بالفِعل.

---

(١) الإسراء: ٢٧.

الألوكة
www.alukah.net

الأب: وهذا ما يسمى بالتَّخطيط الِاقتصادِيّ الذي حَثَّنا عليه الإسلام، وذلك عندما حكى لنا قِصَّةَ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السلام عندما أوّلَ رؤيا المَلِكِ: «البقراتِ السبعَ السِّمانَ» فكانت مكافأتُهُ أنْ جَعَلَهُ المَلِكُ عزيزاً لمصرَ كُلِّها. . . .

. . . تناهى إلى أسماعِهِم صَوْتُ المؤذنِ ينادي لِصَلاةِ المَغرِبِ. نَهَضوا بسُرعةٍ، لأنّ وقت المَغرِبِ قصيرٌ، وتوضَّأوا وأَسْبَغوا الوضوءَ وأسْرعوا للصّلاة تَصْديقاً للحَديثِ المَوْقوفِ الذي رواه الصحابِيُّ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ رضي الله عنه «أَنّ رسولَ الله ﷺ كان يُصَلّي المَغرِبَ إذا غَرَبَتِ الشَّمسُ وَتَوارَتْ بالحِجابِ»[(١)].

بعد قليلٍ حضر الأصدقاءُ، فاستقبلتْهُمُ الأسرةُ وأمضَوْا معاً سَهْرَةً مُمْتِعةً، أخبَرَ الأولادُ فيها رفاقَهُم بِرِحْلَتِهِم المَوْعودةِ فَدَعَوا لَهُم بالسعادةِ.

خرجَ الضيوفُ، فقامَتِ العائلةُ وصلَّت العشاء وأَوْتَرَت ثم نامَتْ، دون إكمالِ القِصةِ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**اِجْعلوا آخِرَ صلاتِكُم بالليلِ وتراً**»[(٢)]، (وكان يستحِبُّ أن يُؤَخِر العِشاء. . . وكان يَكرَهُ النّوْمَ قَبْلها والحديثَ بعدَها. . .)[(٣)].

عادَ الأبُ في اليوم التالي مِنْ عَمَلِهِ بعد أَنِ ٱسْتَحْصَلَ على الإذنِ للِسَّفَرِ بشَكلٍ رَسْمي.

سامي: أَلَنْ نُتابعَ القِصَّةَ اليَومَ؟ هل سننامُ باكراً من أجلِ السّفر؟

الأم: لا، لَنْ نُضَيّعَ الفُرْصَةَ اليَوْمَ، بل سنتابعُ القِصةَ ونرى ما حَصَلَ لِسَيِّدنا يوسُفَ بعد إخراجِهِ مِنَ السِّجْنِ، وتأويلِهِ رؤيا الملكِ وإكرامِ الملك له.

---

(١) أخرجه البخاري، برقم ٥٦١، ومسلم، برقم ٦٣٦.
(٢) البخاري، ١٤ ـ كتاب الوتر، برقم ٩٩٨.
(٣) البخاري، ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ٤٠ ـ باب ما يكره من السمر بعد العشاء، برقم ٥٩٩.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: وهل تنتهي القِصَّةُ اليومَ؟ لقد كانت قِصةً طويلةٍ.

الأم: هذا صحيح، ولكنها مليئة بالعِبرِ والمَواعظ، ولهذا كانت أَحْسَن القِصَص. سَنُحاوِلُ إنهاءَها اليَوْمَ، وإلّا سنتابِعُها خِلال رِحلتنا في الباخرة.

سامي: ما أجملها فكرة! ٱبدئي بٱسمِ اللَّهِ.

الأم: هذه القِصَّةُ هي خَيْرُ دليلٍ على أنَّ الله ﷻ يُحِبّ الصّابرين، وَيُثِيْبُهم على صَبْرِهِمْ أفضلَ المَثوبَةِ ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾[1] فبعد السَّجْنِ والضِّيقِ والظُّلمِ الذي أُصيبَ به سَيِّدُنا يوسُفُ عليه السلام، فرّج الله عنه كُرْبَتَهُ، بِحَيْثُ صار مُطْلَقَ الصّلاحِيَةِ في أرضِ مِصرَ، يذهبُ حيثما يريدُ ويَتصرّفُ كيفما يشاء. وقد قال الشاعِرُ[2] يعبّر عن هذه الحال:

«وراءَ مضيقِ الخَوْفِ مُتَّسَعُ الأمْنِ ... وأوَّلُ مَفْروحٍ بِهِ غايةُ الحزنِ
فلا تَيْأَس، فاللَّهُ ملّكَ يوسُفاً ... خَزائِنَهُ بعدَ الخَلاصِ من السِّجن»

والله سبحانه وتعالى قال في ذلك: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[4]، وليس معنى هذا أنَّ اللَّهَ لَنْ يدّخِرَ لِيُوسُفَ عليه السلام ثوابَ الآخِرَةِ الذي يَطمحُ لَهُ كلُّ المؤمنين، فالمؤمِنُ ينظُرُ

---

(١) الكهف: ٢١.

(٢) يوسف: ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) وقال الشافعي رضي الله عنه:

ولرب نازلة يضيق لها الفتى ... ذرعاً، وعند الله منها المخرج
ضاقت، فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت، وكنت أظنها لا تفرج

(٤) يوسف: ٥٦.

الألوكة
www.alukah.net

دَوْماً إلى الآخِرَةِ وَنَعِيْمِها، لِعِلْمِهِ أَنَّهُ دائمٌ ولا نهائيٌّ، في حِينِ أَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيا زائلٌ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

تابعتِ الأم: عندما أُحْضِرَ يوسفُ إلى الملك بعدَ ظُهور براءَتِه وطهارته، ازداد إعجاب الملك به عليه السلام لموقفه لتمكين براءته، فعرف أنه «رجل المرحلة القادمة» المؤهل لقيادة البلاد، في سنوات الجدب.

ولذلك أَمَرَ الملكُ باسْتِخْلَاصِهِ له ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، يَسْتَخْلِصُهُ لنفسه، ويجعَلُهُ بمكانِ المستشارِ والنَّجيِّ والصَّديق...

وكَلَّمَ يوسفُ الملكَ بِعزّةٍ، ولاحظ الملكُ في كلام يوسفَ عليه السلام الصدقَ والجِدِّيَّةَ، فازدادَ إعجابُهُ به. وتأكَّدَ الملكُ أنَّ نَظْرَتَهُ في يوسف في مَحَلِّها، وأنه أَهْلٌ للتكريم والتفضيل، تأكد هذا عندما قابله، عندها أَخْبَرَ الملكُ يوسفَ بالأمان: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[2]، ردَّ يوسفُ عليه السلام على تكريمِ الملك له قائلاً: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[3].

طلبَ يوسفُ عليه السلام من الملك أن يجعلَه على خزائن الأرض، أَيْ: يكونُ مسؤولاً عن الخزائنِ والأموالِ، والزّراعةِ، والتَّمْوين، والاقتصادِ، والتخطيطِ في المرحلة القادمة.

وأخبرَ الملكُ عن مُؤَهَّلَيْنِ من مُؤهَّلاتِهِ لهذا المنصب: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنه حفيظ: يحفظُ الأمانةَ والعهدَ، ويحفظُ المسؤوليةَ والمنصبَ، فيقومُ به خيرُ قيام، ويحفظُ المالَ والدخلَ فلا يضيعُهُ، ويحفظُ الزراعة فلا يُبدِّدُها، ويحفظُ البلادَ فلا يُضيّعها، ويحفظُ الناسَ فلا يتركُهُم مع الجوع.

---

(١) يوسف: ٥٧.

(٢) يوسف: ٥٤.

(٣) يوسف: ٥٥.

الألوكة
www.alukah.net

وإنه عليم: يَمْلِكُ من العلم والمعرفة والخبرة والكفاية، ما يعينه على أداء هذه المَهَمَّة الخطيرة.

أحمد: وكيف يقول سيدُنا يوسفُ للملك أن يُوَلّيه على خزائن الأرض، ألا يخاف أن يمنعه الملك من ذلك؟

الأم: إنّ المَهمَّة التي يقدم عليها يوسف عليه السلام تتطلب ممن يتولّاها أن يتمتّع بالحفظ والأمانة والعفة والنزاهة، وأن يتمتّع بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط، والأمران متوفّران في يوسفَ عليه السلام على أتمِّ وجه.

سامي: ما معنى هذا الكلام؟

الأب: طلب يوسفُ عليه السلام تولّيَ شؤونق البلاد، فهو يقومُ بتضحية كبيرةٍ ليخدُمَ الناسَ: «ولم يكن يوسفُ يطلبُ لشخصه وهو يرى إقبالَ الملك عليه، فهو انتظر اللحظة المناسبة لطلب هذه المهمة، ليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل، وشعوب كذلك تجاورُهُ، طوالَ سبعَ سنوات، لا زَرْعَ فيها وضَرْع[1].

فإن التكفُّلَ بإطعام شَعْبٍ جائعٍ سَبْعَ سنواتٍ مُتَواليةٍ لا يقولُ أحدٌ إنه غنيمةٌ، إنما هي تِبْعَةٌ يَهْرُبُ منها الرجالُ لأنها قد تُكَلِّفُهُم رؤوسهم، والجوعُ كافرٌ، وقد تمزَّقُ الجماهيرُ الجائعةُ أجسادَهُم في لحظاتِ الكُفْرِ والجنون[2].

جميل: وكيف خطَّطَ سيدُنا يوسفُ عليه السلام؟ وهل كان هو صاحبُ الأمر في من هُمْ أعلى منه؟

الأم: لما وُلِّيَ يوسفُ منصبَ عزيزِ مِصْرَ لم يكن مجردَ تابع للملك، منفذٍ لشرْعِهِ ونظامِه، ولكنه صاحبُ التصرفِ والكلمةِ والقرار، يفعلُ ما

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٨٠ ـ ١٨١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص١٨١.

الألوكة
www.alukah.net

يشاء، بدون إنكارٍ عليه أو اعتراض، أو إبطالٍ وإلغاءٍ من قِبَلِ الملك[1].

الأب: ولا يُمْكِنُكُم أن تَتَخَيَّلوا الدقَّةُ والإتقانَ والمهارةَ التي نَظَّمَ بها يوسفُ عليه السلام شؤونَ الدولة في كافة المجالات الاقتصاديّةِ والسياسيِّة والأمنيَّةِ وكلَّ ما يخطُرُ ببالِكم من شؤونٍ تَخْتَصُّ بِحُكْمِ الدولة[2]، فبنى الأهراءات الضخمة، التي يمكنها أن تتسع لكل القمح، الذي اهتم بزراعته أكثر من غيره، طبعاً كانوا يزرعون من جميع الحبوب التي يمكن إنباتُها هناك، فالناس لن يعيشوا على القمح، لهذا صار يوسفُ عليه السلام (عزيزُ مِصْرَ) يأخُذُ القمحَ بالذات فَيخزُنُ أكثَرَهُ كما هو، أي بدون أن يستخرجه من سنبله، ولا يهتَمُّ بتخزين غيرِهِ، لئلا يُصابُ الناسَ بالجوع قبل أوانِ المجاعة.

جميل: ولكن لماذا ترك القمح في سنبله؟

الأب: ليحافظ على سلامته من التسوُّس، وقد ثَبُتَ علمياً أن القمح إذا بَقِيَ في سُنْبُلِهِ يَظَلُّ مُحَصَّناً ومَحْمِياً من السّوس. وقد استُفيدَ من فِعْلِ يوسفَ عليه السلام سلامَةَ الخُطَّةِ ونجاحَ سياسةِ التخطيط، وتعليمَ الناس كيفيةَ حِفْظِ الحبوبِ من التَّسوُّس، وهو إرشادٌ ـ زراعي رفيعُ المستوى[3] ـ وهناك سببٌ آخرُ تظهَرُ فيه الرحمةُ بجميع المخلوقاتِ بأبهى مظاهرِها فالمجاعةُ حين تَحِلّ، تُصيبُ جميع المخلوقات الحيَّةِ، والسنابلَ التي سيحتَفِظُ بها يوسفُ ستكون في سِنِيّ الجُذْب علفاً للحيوانات لئلا تنفَقُ وتتضاعَفُ الخسائر. (والله أعلم وأعز وأكرم).

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٢.

(٢) (وهذا يدل على فضيلة العلم والمعرفة التي تميز بها يوسف عليه السلام على جميع الكهنة أو العلماء حول الملك في مصر، وإن العلم المقرون بالعمل الصالح سبب للخلاص من المحنة الدنيوية والأخروية)، الزحيلي، وهبة، كتاب اتفسير المنير، الجزء الحادي عشر، ص٢٨٤.

(٣) الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج١١، بيروت ـ دمشق، دار الفكر، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٧٩.

الألوكة
www.alukah.net

سامي: وماذا فعل يوسف عليه السلام للحِفاظِ على الأمْنِ، ومَنْعِ السَّرقاتِ والتَّعدِّيّاتِ على أمكنة تخزينِ القمح؟

الأب: الأهراء؟

سامي: أجل هذه هي الكلمةُ التي ٱستعملتَها واعتَقَدْتُ أنَّ معناها مكانُ التخزين.

الأب: هذا صحيحٌ. هذا هو معناها. (فأهراء) جمع هُرْي وهي المخزنُ المعدّ خِصِّيصاً للحبوبِ.

لقد جنّدَ سيدُنا يوسفُ عدداً كبيراً مِنَ الرجالِ، ودرَّبَهم تدريباً ممتازاً لهذه الغايةِ، حتى لا يكونَ الشَّغَبُ. فعاشَ الناسُ في رَغَدٍ وهناءَة، ولم يكادوا يشعُرُونَ بالمجاعةِ، بسبب نِظام الحِصصِ الذي استَحْدَثَهُ، حتى لا يأخذَ قومٌ نصيباً أكبَرَ من حاجَتِهم، ويُحرَمَ آخَرون مِن نِصيبِهم.

أحمد: من أين جِئتَ بهذا الكلامِ؟ لا أراه مَذكوراً في السّورَة؟

الأبُ: طَبْعاً هو غيرُ مَوْجود، فليس هناك حاجةٌ لِقولِهِ، لأنَّ واقِعَ الحالِ يُفَسّرُهُ، فلا يُمكِنُ أنْ يستتبَّ الأمنُ في بلدٍ ما إذا لم يكنْ هناك مَنْ يَتولاه. اللَّهُ سبحانَهُ وتعالى أخبَرَنا فقط بِطلبِ يوسفَ مِنَ الملكِ أن يولِّيَهُ على خزائن الأرض، ثم ٱنتقل فجأةً إلى مَجِيءِ إخوةِ يوسف يطلبون شِراء القمحِ... فكأنّه عَلِم أنّنا سنستنتجُ كلَّ ما جرى بفضلِ عقولنا وتجاربنا.

سامي: وهل كان مسؤولاً عن خزائنِ الأرضِ كلها؟

الأب: سؤالٌ ذكيٌّ. المقصودُ بالأرضِ هنا فقط أرضُ مصر.

جميل: وهل علم إخوة يوسف أنه قد صار عزيزَ مِصرَ، الموكلَ بأمرِ اقتصادِها، فجاءوا إليه ليُهنّئوه ويعتذروا منه.

الأم: لا، إطلاقاً. لقد نسُوا أمرَ أخيهِم نِسياناً تاماً، بلِ ٱعْتبروه في عِداد الأمواتِ منذ ألقَوْهُ في البِئر، أو ظنّوا أنّ أحدَهم ٱلتَقَطَهُ وٱتخذه

الألوكة
www.alukah.net

عبداً. ولكنْ مهما كان الأمر، فلن يَهدِيَهم تفكيرُهم إلى أنه صار يتولّى حُكمَ دولةٍ كبيرةٍ عظيمةٍ مثلِ مِصرَ في تلك الأيامِ. إلى إنهم علموا أن فيها قوتاً. فإن عزيزَ مصرَ يوَزّعُهُ.

تابعت الأم: لا نعلَمُ كم مِنَ الوَقتِ مَرَّ على تولّي يوسُفَ أمورَ الوزارةِ، ولكنّ المؤكدَ أنَّ مجيءَ إخوةِ يوسف ـ جرى بعدَ ٱنْقِضاءِ سنواتِ الخصب السبعِ وحلولِ سنواتِ القحطِ السبْعِ، فهل جاءوا منذ بدايةِ هذه السّنوات، أمْ إنَّ المجاعةَ لم تَضطَرَّهُم للذهابِ إلّا بعدَ فترة طويلةٍ عندما كاد مخزونُهم مِنَ الطّعامِ ينفدُ، فهُم قومٌ لا يزرعون ولا يعملونَ إلّا الرّعيَ وتجارةَ المواشي بالطَّبْعِ، ويعملون أيضاً في الصِّناعاتِ التي يعتمدُها البدو. وهذا يعني أنّ حياتَهم كلَّها تتهدَّدُ عندما يَعِمُّ الجفافُ فتجِفُّ المياهُ والحشائشُ فيعطَشون ويجوعونَ مَعَ أغنامِهِم فإذا هلَكَتْ هَلَكوا. لِذا مِنَ المعقولِ جداً أنهم ذهبوا مُنذ ابتداء سنوات الجوع والجدب.

لاحظَ أبناءُ يعقوبَ عليه السلام حلولَ الجدبِ والمحل، فخافوا على مواشِيْهِم، وبالتالي مصدرِ طعامِهم، وكانوا قد سمِعُوا بِعزيزِ مِصرَ، الذي خزَّنَ القمحَ في سنواتِ الخيرِ السابقةِ، ليبيعَهُ في هذه السَّنواتِ بالعدلِ والقِسطاسِ؛ فهو يُعطي كلَّ إنسانٍ يأتيهِ حملَ بعيرٍ[1]، وكأنَّه قد أنشأ ديواناً ـ مديرية ـ تسمى مديرية الأحوال الشخصية، سجّل فيها أسماء جميع المصريين، وجعلها تتضمن سجلّات تختص بغير المصريين، الذين يقصدونه لأخذ القمح، أو ابتدع نظاماً يُشبِهُ نِظامَ البِطاقاتِ، حتى لا يجرؤَ أحدٌ ما يزيدُ عن حاجَتِهِ، فيكونَ الظُّلمُ، فالعدلُ أساسُ المُلكِ.

فالراجح أن يوسف عليه السلام كان نبياً عندما ولي منصب العزيز، وهذا معناه أن يوسف كان يحكم البلاد بشرع الله، ويديرُ الأمورَ على مِنْهاج الله، ولم يكن يُنَفِّذْ تشريعاتِ الملكِ وقوانينهِ، فهو نبيّ، والنبيّ عندما يلي

(١) حمل بعير: أقصى ما يستطيع الجمل حمله من ثقل. والثقل هنا يقصد القمح.

الألوكة
www.alukah.net

الأمورَ لا يحكم بغير شرع الله[1]. لأجل ذلك سادَ العدلُ في حُكْمِ عزيزِ مصر.

وفي هذا الجوّ قَدِمَ أولادُ يعقوبَ عليه السلام إلى مِصرَ لهذه الغاية، وَوَصَلُوا مِصْر، وَدَخَلُوا على عزيزِ مِصْرِ، وَطَلَبوا منه الطعامَ.

وقد عَرَضَتِ الآياتُ مَشْهَدَ دخول هؤلاءِ على عَزيزِ مصرَ!! قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2].

جميل: هذا يعني أنه جعل بينه وبينهم ترجماناً.

الأم: طبعاً لما دخل إخوةُ يوسفَ العشرةُ عليه عَرَفَهُم، لأنهم إخوةٌ كبارٌ، وهو يعرِفُهُم لما كان مقيماً معهم في الأسرة.

ومعلومٌ أن ملامحَ الكبارِ لا تَتَغَيَّرُ، بينما تتغير ملامح الصغار عندما يكبُرُون. وإنّ الصغير يعرف الكبير، وعندما يكبر الصغير يبقى متذكراً للكبير، والعكس صحيح. لأجل ذلك هم لم يعرفوه بل أنكروه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

تعامل يوسفُ عليه السلام مع إخوتِهِ بأخلاق النّبوَّةُ، والأصل أن يكون قد استقبلَهم وأكرَمهم، دون أن يُعَرِّفَهُم على نفسه.

والأصل أنه جلس معهم، وحدَّثَهم، وسألَهم عن أنفسهم وأهلهم وبلادهم، وأنهم أنِسوا إليه، وحدَّثوه، وأخبروه عن أوضاع أهلهم، فعرف

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٨٣.

(٢) يوسف: ٥٨ ـ ٦٢.

الألوكة
www.alukah.net

منهم أن لهم أخاً صغيراً، وهو أخٌ من أبيهم، غير شقيق لهم، وأنه أثيرٌ عند أبيه، وأنه لا يدعه يخرج معهم، خوفاً عليه.

لما عرف هذا منهم أراد أن يحضروا أخاهم الصغير سألهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وقد برر يوسف عليه السلام طلبه أن يرى أخاهم الصغير بأنه يوفي لهم الكيل، فهم الآن عشرة، وكلٌّ يأخذ حمل بعير، فإذا كانوا أحد عشر أخاً فإنهم يحملون أحد عشر بعيراً حبّاً، وهذا خيرٌ لهم، وهو يوفي لهم الكيل، ويعطيهم حمل أحد عشر بعيراً.

وطمأنهم بأن أخاهم الصغير سيكون في أمان في مصر، لأنهم سينزلون في ضيافته، وهو يكرمهم في نزلهم، لأنه خير المنزلين المضيفين[1].

استاء الإخوة من كلام العزيز لأنهم خسروا حمل البعير الحادي عشر، لأنهم يعلمون رأي أبيهم في فراق ابنه، ولكنهم قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾[2].

هنا تدخّل الأبُ مُقاطعاً: لقد تأخّرَ الوقتُ، ألا تَظُنّون أنَّنا يَجِبُ أنْ ننامَ الآنَ حتّى ننالَ قِسطاً جيِّداً من الرّاحَةِ، فلَدَيْنا غداً عملٌ كثيرٌ مُرهِق؟ فوافقوه دُونَ تردُّدٍ، فهُم يحلُمون بالرِّحلة المفاجئة.

وقفتُ أُسرَتُنا النّشيطةُ على سَطْحِ السَّفينةِ، ومَعَها أسرةُ أبي سارةَ، وجميعُ المسافِرينَ يراقِبونَ الشواطىء الحبيبةَ التي لا يعلمون إذا قدّر الله رؤيتهم لها ثانيةً؛ ويلوِّحون لِأقارِبِهم الذين جاءوا لوَداعِهِم والدُّعاءِ لهُمْ بسَلامَةِ الرجوعِ. وٱنطلقتْ صفّارةُ الباخِرَةِ تُعلِنُ بَدْءَ الرِّحلَةِ، فبدأ الرّكّابُ بالتراجُعِ عن السُّورِ خَوْفاً مِنَ الإصابَة بالدُّوارِ والسُّقوطِ في البَحرِ. أسرَعَ سامي إلَى ٱبنَةِ خالَتِهِ يحمِلُها ويُلاعِبُها ويتنازَعُ مَعَ أَخوَيْهِ على ذلك، فكُلُّهُم

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٨٨.

(٢) يوسف: ٦١.

الألوكة
www.alukah.net

يُريدونَ أَنْ يلاعِبوها ويُضاحِكوها، لِتَتَلَفَّظَ بالكلماتِ بِطريقةِ المُناغاةِ، فعُمْرُها لم يبلُغ السَّنةَ. أُعجِبوا بِفَخامَةِ السَّفينةِ المُؤَلَّفَةِ مِنْ عِدَّةِ طَبَقاتٍ، وكانت تبدُو وكأَنَّها بِنايَةٌ ضَخْمَةٌ تَعومُ على الماءِ، والعجيبُ في الأمْرِ أَنّهم ليسوا بِحاجةٍ لِما يَتَمسَّكون بِهِ خَوْفاً مِنَ السُّقوطِ وكأَنَّهم يَقِفونَ على الأرضِ اليابسةِ.

مرَّ الوقتُ بسرعة، ولم ينتبهوا لحُلولِ اللَّيلِ إلا عندما شعروا بلسعة البرد، فنزل الجميع إلى قمراتِهم[1] المخصَّصةِ.

اجتمعتِ العائلةُ في القَمَرة المخصَّصة للأولاد، حتى لا يشعروا بالوَحشةِ. وراحوا يتحدَّثون عَنْ مشاعِرِهم السّعيدة، وغِبْطتِهم لخَوْضِهم غِمارَ البحرِ، بعد ذلك تابعتِ الأمّ سَرْدَها قِصةَ سيدَنا يوسف كما وعدَتْهم.

وصلنا في قِصَّتِنا إلى لحظةِ دخول إِخوةِ يوسفَ على أخيهم، لِيأخذوا حِصَّتَهم مِنَ القمحِ، دون أن يَخْطُرَ ببالِهم أنَّه أخوهُم الذي ضَيَّعوهُ، ولم يعودوا يُفكِّرون به.

الأب: لقد فوجئوا بطلب العزيز، وفوجئوا أكثر بتهديده لهم، لأنهم يعرفون صعوبة تنفيذه، لقد استخدموا في محاولة إقناع أبيهم لفظ «سنراود»، المراودة مذكورة في هذه السورة عدة مرات، فهم سيبذلون من جهد ومعاناة في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم الصغير معهم، لأنه سيمانع في ذلك، ويخشى أن يكون مصيره كمصير أخيه يوسف لكنهم جادّون في المراودة والإقناع، حريصون على الإتيان به، وذلك ليزدادوا حمل بعير، وقد أظهروا ليوسف حرصهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

أراد يوسف عليه السلام إغراءهم بالعودة ومعهم أخوهم، فأعاد معهم بضاعتهم، ضمن ما حمّلهم من حبوب: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ

(١) قمرات: جمع قمرة، الغرفة في السفينة.

الألوكة
www.alukah.net

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1].

كان الإخوة قد أحضروا معهم بضاعة من منتوجات أراضيهم، ليشتروا بها القمح والحب من مصر، فأمر يوسف غلمانه بدس البضاعة التي أحضروها بين الحبوب التي حمّلوا بها جمالهم.

والهدف من ذلك هو أن يعرفوا عند تفريغ أحمال الجمال أنهم لم يدفعوا ثمن الحبوب التي أخذوها من العزيز، فها هو العزيز يعيد لهم بضاعتهم، ويُعطيهم الحبوب مجاناً، وهو يدعوهم إلى العودة إلى مصر، لأخذ أحمال أخرى[2].

الأم: رجع الإخوة العشرة إلى أسرتهم، ومع كل منهم حملُ بعيرٍ من الحبوب، وكانوا معجبين بحسن ضيافة عزيزِ مصر لهم، ولكنهم كانوا متأثرين لطلبه منهم إحضار أخيهم معهم، ويخشون أن لا يوافق أبوهم على ذلك.

وما كانوا يعلمون أن عزيز مصر قدّم لهم أحمال جمالهم من الحبوب مجاناً، وأنه لم يأخذ أثمانَها، وأنه أَمَرَ بِدَسِّ الأَثْمان داخلَ الأحمال والرحال.

وصلوا إلى أبيهم، وكانوا يفكرون في طريقة إقناعه بالموافقة على إرسال أخيهم معهم.

الأب: قد عرضت مشهد مراودتهم لأبيهم، وما جرى بينه وبينهم خمس آيات من السورة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ

---

(١) يوسف: ٦٢.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٨٩ ـ ١٩٠ بتصرف.

الألوكة
www.alukah.net

بِضَٰعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

إنهم لم يخبروا أباهم بحسن استقبال وإكرام العزيز لهم، فهذا لا قيمة له في نظرهم. إنما المهم أن يضغطوا عليه نفسياً، ليأخذوا منه الموافقة على إرسال أخيهم.

يا أبانا: أنتَ تعلمُ إننا بحاجة إلى الحبوب والطعام، والآن أحضَرْنَا أحمالَ جمالنا منها، لكن هذا لا يكفينا إلا مدةً يسيرة، وسنحتاج إلى العودة إلى مصر لإحضار الطعام، ولن يعطونا ما نريد.

لقد قابلنا عزيزَ مِصرَ، وطلب منّا إحضارَ أخينا من أبينا معنا في المرة القادمة، وهدّدنا بأنه لن يُعْطِينَا ما نريد إن لم نُحْضِرْه معنا!

وأنت يا أبانا تعلم إننا بحاجة إلى الكَيْلِ والطعام، لذلك نرجو منك أن تُرْسِلَ معنا أخانا، وذلك حتى نُحْضِرَ الكيلَ الذي نُريده[2].

اِنتهى ٱلكلامُ بين الأبِ وأبنائِه عند هذا الحدّ، دُون أن يُعطيَهم وعداً بإرسالِ أخيهم معهم وذهبوا إلى بُيوتِهم ليرتاحوا من عَناء السَّفر. ولما ارتاحوا خرجوا إلى بضاعتهم ـ التي كانوا قد اكتفَوا بإنزالها عن ظهور الحيواناتِ لترتاح ـ وفتحوها ليُفرِغوها في المخازِن، ففوجئوا ببضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعامِ قدْ ردّتْ إليهم، فَفَهِموا قَصْدَ عزيزِ مصر، تركوا

---

(١) يوسف: ٦٣ ـ ٦٨.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٩١.

الألوكة
www.alukah.net

البضائعَ في مكانِها وهُرِعوا إلى أبيهم غاضبين متضايقين فقالوا له: أَرَأَيْتَ؟ لقد رُدّت إلينا بِضاعتُنا، نحن لا نكذِبُ ولا نريدُ بأخينا سُوءاً، ولكنّ العزيزَ يريدُ أن يرى أخانا ليعطيَهُ حِصتَه بنفسه، وأعادوا طلبَهم ورجاءَهم أن يُرسِل معهم أخاهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾[1] ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ﴾[2] ﴿أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾[3].

تأكَّد يعقوبُ مِن أنّ أبناءه صادقون هذه المرة، لكنه ظلّ خائفاً على ولده، فقال: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾[4].

جميل: وهل يُصدّقُ كلامَهم إذا وَعَدوا أو أَقْسَموا؟ فالحديثُ الشريفُ يقول: «**لا يُلدَغُ المؤمِنُ من جُحرٍ مَرَّتَين**»[5].

الأب: لا يا بُنَيّ لا تعتقدْ أن القَسَمَ شيءٌ سَهْلٌ، ولا سيما بالنسبة للصالحين، فالواحد منهم لا يَجْرُؤُ على الحَنْثِ بقَسَمِهِ ولو كان في ذلك هلاكُه؟

جميل: وهل كانوا صالحين؟ لقد ٱفترَوا على أخيهم يوسفَ ورمَوه في البئر، وكذبوا على أبيهم، أَيْ: إنهم مُجرِمون قَتَلةٌ.

الأب: لقد تابوا واستقاموا، وصَلُحَتْ أحوالُهُم، بعد جريمتهم السابقة بحقِّ يوسف. ولا تنس أنّ الآباء[6] لا يستطيعون إلا أن يُحِبّوا أبناءَهُم مهما فَعَلوا بهم....

---

(١) نبغي: نظم.
(٢) نمير: نشتري الطعام.
(٣) يوسف: ٦٥.
(٤) يوسف: ٦٦.
(٥) البخاري، برقم.
(٦) الآباء: الآباء والأمهات.

الألوكة
www.alukah.net

فعن ابن الرومي الشاعر العباسيِّ:

«وأولادُنا مِثْلُ الجوارِحِ أيُّها فقدناه كان الفاجعَ البيِّنَ الفَقْدِ»[1]

ولا تَنَسَ أيضاً أن الذين يَتَذَكَّرُون إساءات الناس بشكل مُرٍّ، هم الذين لا همّ لهم في الحياة إلا إحصاء خطايا الناس وأخطائهم. أما الذين يحملون رسالات عظيمةً ساميةً ـ وهم قلَّةٌ من الناس ـ كالأنبياء والأولياء والمصلحين، فما أسرعَ ما يَنْسَوْنَ ما أصابَهم من ضَرَرٍ أو إهانات! كما قال عنترة بن شداد العبسي:

لا يحملُ الحِقْدَ من تَعْلو به الرُّتَبُ ولا ينالُ العلى مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

استعادت الأم دفّة الكلام قائلة: هذا صحيح ولهذا أمرنا سيدُنا محمدٌ ﷺ بعَدَم الغَضَبِ حيث قال لمن طلبَ الوصية: «**لا تغضب**» فالمرءُ عندما يغضَبُ قَدْ يُدَمِّرُ كلَّ خَيْرٍ عَمَلَهُ من قبل.

وطَلَبَ سيّدُنا يعقوبُ الأبُ من أولاده أن يُهْتمّوا بأنفسهم، ولا يُعَرّضوها للخطر في الأراضي المصرية: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾[2].

جميل: ولماذا طلب منهم هذا؟

الأم: لغاية في نفسه، لم يذكُرْها القرآن، فلا نعرفُها قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾[3].

---

(١) في قصيدته التي رثى بها ابنه الأوسط.

(٢) يوسف: ٦٧.

(٣) يوسف: ٦٨.

الألوكة
www.alukah.net

ولكنَّهُ عادَ فأكّد لَهُم أنَّ الحَذَر لا يمنَعُ القدَرَ، بَلِ الواجِبُ أن يأخُذَ المرءُ بالأسبابِ ويحتاطَ مِمّا قد يَقَعُ له كما ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أما السببُ الذي دَفَعَ يعقوبَ لأمرِهم بالدخولِ من أبواب متفرّقة، فإن القرآن يجعَلُهُ من المُبْهَمات، ويدعونا إلى عدم الخوض فيه، وعدم محاولة تحديده، فلا فائدة في الخوض في ذلك طالما أن النصوص المعتمدة عندنا لا تحدّده: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَآ﴾ هي حاجة في نفس يعقوب، لم يخبر يعقوبُ أحداً بها، بل لم يُخْبِرْ أبناءَه بها، وقد حقَّقَ يعقوبُ ما في نفسه، وقضى حاجتُهُ، عندما نَفَّذوا وَصِيَّتَهُ[1].

سامي: وهل فعلوا ما أَمَرَهم أبوهم؟

الأم: طبعاً يا بُنَي، أليستْ طاعةُ الوالدَيْنِ واجبةٌ؟ مهما كان عمرُ الولدِ عليه أن يُطيعَ والدَيْه وخصوصاً إذا كانا صالحَيْن عاقِلَيْن، إذ لا أَحَدَ يُحبُّ المرءَ ويخافُ عليه أكثرُ من والدَيْه. وما يقررُ طاعتَهم العمياءَ لأبيهم الآية التالية ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾[2].

أحمد: هذا أعجبُ ما سمعتُ. كيف يَتآمرون عليه ليحرِموه ابنَهُ يوسفَ ويقسُون عليه بهذا العنف، ثم يطيعونَهُ ويُنَفِّذون أوامِرَه؟

الأم: هذه سُنَّةُ الحياة يا بُنَي، فكل إنسانٍ يريد إثباتَ كمالِ عقلِهِ وصلاحيتَه للقيادةِ والعملِ بما يُمليه عليه فكرُه، وهم لم يَجِدوا سبباً لتفضيلِ أبيهم لِيوسفَ.

قال سامي: أَلَسْتُم تَعِبين؟ أَلَسْتم جائِعين؟

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص١٩٨.
(٢) يوسف: ٦٨.

الألوكة
www.alukah.net

الأب: بلى واللَّهِ، لقد جُعنا. أتأكلون هنا، أم في غرفةِ الطعامِ مع باقي الركاب؟

الأم: بل نأكلُ على السَّطْحِ ونشربُ الشاي حتى نستمتع بمنظرِ السماءِ ونُجومِها.

بعدَ فترة مِنَ التأمُّلِ قَضَوْها يشاهِدون نُجومَ المجَرَّةِ ويحاولون عدّها، بالرغم من علمهم أن ما يَرَوْنه منها بالعين المجرّدة ليس إلّا جُزءاً بسيطاً، كانوا بين الفَيْنة والأخرى يكبرون تعجباً مِن رُؤية نَجمةٍ تسقُط. فينبعثُ منها خيطٌ طويلٌ من الضَّوْءِ كأنه نار. فقال الأب: هذه ليست نجوماً، بل شُهُبٌ تتساقطُ.

الأولاد: شُهُب؟ ولماذا تتساقط؟

الأب: الشُّهُب هي أجرامٌ سماوِيةٌ، مَهَمَّتُها المحافظةُ على السَّماعِ كي لا تقترب منها الجِنُّ، لتتسمَّع الأخبارَ العُلويَّةَ كما جاء في القُرآنِ الكريم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾[1].

أراد الأولاد أن يسألوا عَنِ السَّببِ الذي من أجله مُنعَ الجِنُّ من الوصول إلى السماء، ولكنَّ الأبَ قال إنَّ ذلك سيعرفونه بإذن الله في قصة سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، فَلْنَبْقَ اليومَ فقط مَعَ قِصةِ سيدِنا يوسُفَ عليه السلام وسنكتفي الآن بالنظر والمشاهدة وتسبيح الله.

ثم قال لهم الأب: هل سَنَمْكُثُ هنا الليلَ بطوله! لا تنسَوا، أنتم غيرُ معتادين على السَّهَر الطويل، أخاف أن نُصاب بالزكام أو الدُّوار. تعالَوا ننزِلْ إلى غُرَفنا لنكمِلَ القِصَّةَ. فَصْوتُ البَحْرِ هنا يمنعُ الكلام الهادئ، وبصراحة أنا أريد النَّوْم.

---

(١) الجن: ٨ ـ ٩.

الألوكة
www.alukah.net

احترموا طلبَ أبيهم وذهبوا إلى غرفَتِهم ولكنهم طلبوا من أمهم إكمالَ القصة، وبما أنها لا تُحِسُّ بالنُّعاس فقد راحت تُكْمل القصة.

لما دخل الإخوة على عزيز مصر، وقعت أحداثٌ مثيرة، لم يكونوا يتوقّعونها، ولم يحسبوا لها حساباً، بل فوجئوا بها مفاجأة مدهشة.

الأم: من لديه مصحف لنتلوا الآيات.

أحمد: أنا لَدَيَّ مُصْحَفٌ في حقيبة ظهري فأسرع لإحضاره. . . .

بدأت الأم تلاوة الآيات: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وهم يستمعون خاشعين منصتين لمعرفة هذه المفاجأة.

الأم: ظاهر الآية أن يوسف عليه السلام بدأ بالمعاملة الخاصة مع أخيه فور استقباله له. فما إن دخل الإخوة الأحد عشر على يوسف حتى آوى إليه أخاه، واختصه من بين إخوته الآخرين، واجتمع به وحده في معزل عنهم.

الألوكة
www.alukah.net

فعل ذلك ليصارحَهُ بالحقيقة، وليقول له: إنني أنا أخوك، أنا يوسف الذي فعل إخوتك بي ما فعلوا قبل سنوات، وها قد منّ الله عليّ وأكرمني، وجعلني حاكم مصر، وإخوتك لا يعلمون إنني يوسف الذي ألقوه في غيابة الجبّ وهو صغير، ليتخلصوا منه.

ولا شك أنك علمت يا أخي بقصتهم معي، ووقفت على ما فعلوه بي، وإنني أدعوك أن تصفح عنهم كما صفحت أنا، فها أنا أكرمهم وأحسن استقبالهم، وعليك أن تقتدي أنت بي، فلا تبتئس بما كانوا يعملون[1].

تابعت الأم: طبعاً فرح الأخوان بهذا اللقاء، ولما جهز فتيانه جهاز إخوته، وضع يوسف عليه السلام الكأس في رَحْلِ أخيه دون أن يشعر أحد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

لمّا تهيأت القافلة للانطلاق في طريق عودتها بجميع أفرادها، تفقَّدَ فتيانُهُ الكأسَ فلم يجدوها فنادى المنادي: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾. تعجَّب الإخوةُ من ذلك وسألوا: ماذا بكم؟ ماذا تفقدون؟ ولماذا تتهموننا بالسرقة؟ لسنا لصوصاً وأنتم تعلمون هذا حقاً، ولم نأت للسرقة ولا للإيذاء، والدليل على هذا أننا أعدنا ثمن البضاعة السابقة الذي وجدناه في رحالنا؟ ماذا تفقدون؟ التَفَتوا نحو غلمانِ العزيزِ إلتفاتةً ملؤها الدهشةُ والصدمةُ والاستغرابُ: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

إنّ الجملة المعترضة في الآية: ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ تصور لنا تصويراً حياً مؤثراً كل علامات ومعاني الانفعال والمفاجأة والاستغراب!

لقد كان الرَّكبُ سائرين للخروج من المدينة، فلما سمعوا الاتهام من قبل المؤذن، عادوا مسرعين إلى الغلمان، وسألوهم: ماذا تفقدون؟ وما الذي تتهموننا بسرقته؟

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٠.

الألوكة
www.alukah.net

أجابهم الغلمان قائلين: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ التي كِلْنا لكم بها الحبوب، والتي سرقتموها وأخذتموها وأخفيتموها.

وتسير الأحداث المثيرة بالتسلسل والتدرج، فيبدأ الغلمانُ الموظفون بالترغيب والحثِّ على تسليم المسروق، حيث أعلنوا عن جائزة ثمينة لمن يُعيدُ صُواعَ الملك: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾. إنهم يُهَيِّئون الفُرْصة لِمَنْ سرق صُوَاعَ الملك للتراجع، وتسليم المسروق بإرادته، ويرغبونه بذلك، حيث سَيُعْطونه حِمْلَ بعير من الحبوب. وهذا عطاءٌ جزيلٌ كثيرٌ في مثل ذلك الظرف الخاص، الذي كان يعيشه الناس، في سنوات الجدب!

وَتكَفَّلَ المؤذنُ زعيم الغلمان بأن يَمْنَحَ حِمْلَ البعير لِمَنْ يُسَلِّمُهُ بقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

ومعنى «زعيم» هنا: كفيل. أي: أنا الكفيلُ الزعيمُ بتقديم الجائزة. ولن نتراجع عنها.

ورغم أنّ الجائزة ثمينة، لكنَّ الإخوةَ لم يَقْبَلوها، لا لشيء إلا أنَّهم ليسوا سارقين، فهم يوقِنون أنهم أبرياءُ من التهمة!

ولهذا رَدّوا على الغلمان في الحوار المدهش المثير: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ حَلَفوا اليمينَ بالله بأنَّهم لم يَسْرقوا، وأخْبَروا الغلمانَ الموظفينَ أنهم يَعْلَمون عنهم الخير، فهُمْ ضيوفُ عزيزِ مصرَ في المرة الأولى، وفي هذه المرة، وقد أكرَمَهم، لِما رأى فيهم من الخير.

وهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض، ولا ليخربوها، ولهذا لم يسرقوا صواع الملك[1].

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الألوكة
www.alukah.net

تابعت الأم سَرْدَها...

لم يَنْفَعْ أسلوبُ الحثِّ والترغيب مع القَوْم، ولهذا لَجَأَ الغِلمانُ الفتيانُ إلى الأسلوب الآخر، أسلوبِ التفتيشِ والمُحَاكَمةِ والعُقوبةِ والقَضَاءِ.

فأوعز يوسف عليه السلام إلى فتيانه ليسألوا الرجال: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾؟

أي: أنتم أبناء نبي، ولا نعاقبُ السارقَ إلا على حَسَبِ شريعَةِ أبيكم النَّبِيّ، فما هي عقوبة السارق عندكم؟ كما علّمكم أبوكم النبي؟ وإن كنتم كاذبين في دعواكم عَدَمَ السرقة، وَتَثْبُتُ السرقة عند أحدكم، فسوف نعاقبُهُ وِفْقَ شريعتكم لا وفق قوانينا!

فأجاب القوم قائلين: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

أي: عقوبةُ السارقِ في شريعةِ أبينا يعقوب عليه السلام النبيِّ أن يأخذ صاحبُ المسروقِ الشخصَ الذي سرق، ليكون عبداً رقيقاً له مقابلَ ما سَرَقه(١).

ونَرْضى أن تُفَتِّشونا، وأن تُحاكِمونا وِفْقَ شريعَةِ أبينا، فَمَنْ وَجَدْتُم صواعَ الملكِ في رَحْلِهِ ومتاعِهِ، فَخُذوه عَبْداً رَقيقاً للملك، جزاءً له على سَرِقته.

ولقد رضي الرجالُ بهذا لأنهم يوقنون أنهم بريئون، وأن أحداً منهم لم يسرق صواع الملك، ولهذا دعوهم إلى تفتيش الأمتعة، وكلهم ثقةٌ وقناعةٌ أنَّهم لن يجدوا الصواع عندهم!!

وبعد أن اتفَقَ الفريقان، ورَضِيا بِتَحْكيم شريعةِ يعقوبَ الربانيةِ بدأ

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

الألوكة www.alukah.net

التفتيش، وقام يوسفُ نفسُهُ عليه السلام بِعَمَلية التفتيش، فقام بحَركةٍ ذكية، تدلُّ على حَصافَتِهِ وبُعْدِ نَظَرِه، وتُبْعِدُ عنه أيَّ شُبْهَةٍ أو رَيْبٍ. قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

قام يوسفُ بتفتيش أَوْعِيَتِهم وأمتِعَتِهم ورحالِهم، إنه يعلَمُ أَنَّ السقايةَ في رَحْلِ أخيهِ الصغيرِ، لقد وَضَعَها هناك بِيَدِه، دونَ أنْ يَشْعُرَ به أحدٌ، فلماذا لم يَهْجُمْ على رَحْلِ أخيه فَوْراً، ويُخْرِجْ السِّقاية؟

إنه لو فَعَلَ ذلك لما كان حَصيفاً ولا أَلْمَعِيّاً، حيث سَيُثيرُ الشُبُهات، وقد يقولُ أحدُ الإخوة: هذه مؤامَرَةٌ ضِدَّنا، وأنتم وَضَعْتُموها مُسْبقاً.

وكُلُّ مواقفِ وتصرُّفاتِ يوسفَ عليه السلام تدلُّ على تخطيطه وبُعْدِ نظره وحُسْنِ تَدْبيره.

لقد بدأ بتفتيش أوعية الإخوة، واحداً واحداً، بتمهُّلٍ وأناة، وهو يُظْهِرُ للمراقبين والمتابعين الدقَّةَ والحِرْصَ في التفتيش. والإخوةُ ينظرون إليه، وهم مُطْمَئنون مرتاحون، بل هم شامتون لأنه لم يجد السقاية في رحالهم، فلماذا إذن يتهمونهم بالسرقة؟؟

وأخيراً وَقَعَتِ المفاجأةُ المذهلةُ، التي فاجَأَتِ الفتيانَ أولاً، ولكنها فاجأت الإخوةَ العشرةَ أكثَرَ، فَأَذْهَلَتْهُم وصَدَمَتْهُم، وأزالت صَوابهم....

فها هو يوسفُ يُفَتِّشُ مَتاعَ الأخِ الصغيرِ وها هو يُقَلِّبُ المتاعَ... ثم ها هو يُخْرِجُ السقايةَ من المَتاع!!

إذن السقايةُ في رَحْلِ الأخِ الصغيرِ، إذن هذا الأخُ الصغيرُ سارقٌ، فهو الذي سَرَقَ السِّقاية.

فوجئ الإخوةُ بما حَصَل، وانقَلَبَتْ شماتَتُهم إلى دَهْشةٍ وصَدْمة فها هو الأخُ الذي تَعَهّدوا لأبيهم بِحِفْظه، وحَلَفوا له الأَيْمانَ أن يُعيدوه سالماً، ها هو يُضْبَطُ مُتَلَبِّساً بالسَّرقة... والآن سَيُنَفَّذُ الحُكْمُ الذي ارْتَضَوا تَنْفيذَهُ

الألوكة
www.alukah.net

على السارق، وسَيُعاقَبُ وِفْقَ شريعَةِ أبيهِ، أي: إنه سيؤخَذُ الآن عَبْداً للعزيز، ولن يعود إلى أبيهم!

ما هذه المفاجآتُ المثيرةُ المذهِلَةُ، التي لم يَكونوا يَتَوَقَّعونها[1]؟

أحمد: يوسف عليه السلام نبي، صحيح.... إذن اللَّهُ هو من أَلْهَمَهُ وَأَرْشَدَهُ إلى هذا التخطيطِ والتدبير الحكيم، لِيَتُمَّ قَدَرُ الله في النهاية.

سُرَّتِ الأمُّ باستنتاج أحمد الدَّالِّ على تَدَبُّرِ الآياتِ التي أَنْصَتوا إليها بخُشوعٍ تام، وقالت: أحسنْتَ يا بُنَي، نعم هو تدبيرُ اللَّهِ عز وجل وَقَدَرُهُ وسنرى ذلك جَلِيّاً في نهايةِ القِصّةِ التي ستُحقِّقُ رؤْيا يوسفَ عليه السلام حينما أخبرَ والدَهُ سيِّدَنا يعقوبَ عليه السلام وَأَمَرَهُ أن لا يَقْصُصَ رؤياه على إخوته.

تابعت الأم سردها: قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

الأولادُ جميعُهُم بصَوْتٍ واحد سُبحانَ اللَّهَ العظيمَ سُبحانَ اللَّهَ وبِحَمْدِه.

جميل: هل معنى ﴿كِدْنَا﴾ هو ما شرحه أحمد؟

الأم: نعم إنّ الله هو الذي كادَ ليوسفَ عليه السلام، وَثَناءٌ من الله على يوسفَ، وَمَدْحٌ له لِفِعْلَتِهِ، وإشارةٌ إلى أنه فَعَلَها بإلهام من اللَّهِ على يوسفَ، وهذا دليلٌ أنه فَعَلَها بعد النبُوّة، وأنه كان على صَوابٍ في فِعْلِها[2].

سامي: وهل يوسفُ عليه السلام يتّهمُ أخاهُ بالسَّرِقة؟ فكيف يَتَّهِمُهُ بالسّرقة؟

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٦.

الألوكة
www.alukah.net

الأم: أحسنت، لا هو عَلِمَ إنه لا يمكنُهُ إبقاء أخيه عنده إلا بهذه الحيلة. وأعيدُ وأكررُ هو بإلهام من الله ﷻ لِحِكْمَةٍ سنعرفُها في نهاية القصّة.

سامي: وهل أخذَ أخاه عبْداً رَقِيقاً مِثْلما قال؟

الأم: لا، الهدف هو فقطْ إبقاءُ أخيه معه في مِصْر.

جميل: وما هو عقابُ السارقِ في دينِ المَلِكِ؟

الأم: دينُ المَلِكِ، أي: نظامُهُ وشرعُهُ ومِنْهاجُهُ وقانونُهُ الذي يَحْكُمُ به الناسَ، فيخضع المصريُّ لهذا القانون، لأن أساسَ معنى «الدين» كما قلنا سابقاً هو الانقيادُ والخضوعُ لِنِظام أو شَرْعٍ أو قانونٍ أو حُكْم، فدينُ المَلكِ قانونٌ وَضَعَهُ المَلِكُ، أما دينُ يعقوبَ عليه السلام فهو دينُ رَبِّ العالمين وَشَرْعُهُ ومنهاجُهُ وحُكْمُهُ الذي أرسَلَهُ على رُسُله، وَأَمَرَ النَّاسَ أن يَدِينوا به ويخضَعوا له، فيعبدوا الله من خلال التزامه. والخاضعون لمنهاج الله وشرعِهِ يُقال عنهم: إنهم في دين الله[1].

ونقفُ أمام تقديرِ الله ﷻ ليوسفَ أَخْذَ أخيه رفيقاً وِفْقَ شريعةِ أبيه، لا وِفْقَ قانون الملك. ولا نعرفُ ما هو قانونُ الملكِ للسارقِ في مِصْرَ... ولا نسألُ عن ذلك، فالمهمُّ أنَّ يوسفَ عليه السلام بتدبير إلٰهي احتَفَظَ بأخيهِ الصغيرِ لديه.

سامي: وماذا فعل إخوةُ يوسفَ بعدها؟

الأم: قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾[2].

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٧.

(٢) يوسف: ٧٧.

الألوكة
www.alukah.net

جميل: وهل يُعْقَلُ أن يَسْرُقَ سيّدُنا يوسفُ عليه السلام؟

الأم: اتَّهَموه بأنه سَرَقَ من قَبْلُ، فهُم زَعَموا أن هذا الأخَ الذي سَرَقَ ليس هو الأولَ السارقَ، فهناك سارقٌ آخرُ، هو أخٌ لهذا السارق.

أما هُمْ فإنَّهم بريئون من السرقة، لم يَسْرُقوا من قَبْلُ، ولم يَسْرُقوا الآن.

اتهموا يوسفَ عليه السلام قَبْلَ وضعه في غيابة الجبِّ بأنه سَرَقَ، مع أنه كان غلاماً صغيراً! فكيف يسرِقُ وهو غلامٌ صغير؟ وكلُّ الأحاديثِ التي وَرَدَتْ في تَبْرِيرِ هذا الكلام هو من المُبْهَماتِ التي يَجِبُ أن نبتعدَ عنها، والأَوْلَى هو تنزيهُ يوسفَ عليه السلام لأنّ الله عز وجل يُعِدُّهُ ليكون نبيّاً، والله يُرَبّي النبيَّ تربيةً خاصَّة، وَيَعْصُمُهُ عِصْمَةً خاصة[1]!

أحمد: ولكن أسرَّها يوسفُ في نفسه، وهذه المرةُ الثانيةُ التي يَصْبِرُ بها على أفعال إخوته. فعليه أن يتحَمَّلَ لأنه نَبِيّ.

الأم: أحسنتَ، فعلاً هذا ما حصل، فكم مرةً استعلى فيها يوسفُ عليه السلام على آلامه وأحزانه؟ وكم من مرة أوذِيَ واتُّهِمَ فَصَبَرَ واحتَسَبَ.

فقط قال: أنتُمْ إخوةُ شَرٍّ، ومكانُكُم هو الشرُّ، وموقِفُكُم هو الشرُّ، ولا يعلَمُ إلا اللَّهُ حقيقةَ ما تَزْعُمونَ، وتَدَّعونَ وتقولون!!

أحمد: ألم يكن بإمكان يوسفَ عليه السلام أن يردَّ التُّهْمَةَ؟ وأن يُبَرِّئَ نفسَه منها، وأن يُكَذِّبَهُمْ فيما قالوا، وعندها سَيَعْرفون أنّهم واقفون أمام يوسفَ عليه السلام[2].

الأم: ولو فعل ذلك لفسد كُلُّ تَرْتِيبِه وتَدْبِيرِه وتَخْطيطِه، عليه أن

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٠.

الألوكة
www.alukah.net

يَتَحَمَّلَ، وأن يصبرَ على التُّهْمَةِ، وأن يضبُطَ أعْصَابَهُ، وأن يَتَصَرَّفَ مع المسألةِ بكَيَاسَتِهِ وحَصافَتِهِ المعهودَة، لهذا كَظَمَ غيظَهُ وأَسَرَّها في نفسِهِ، ولم يُعَقِّب عليها: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، لم يَزِدْ ـ أمام اتهامهم ـ على أن قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

جميل: وماذا فعل الإخوةُ مع يوسف عليه السلام بشأنِ أخيهم؟

الأم: بعدما عرف الإخوة العشرة أن أخاهم الصغير سَيَتَحَوّل إلى عبدٍ رقيقٍ عند عزيز مصر، عندها تذكّروا ما جرى بينهم وبين أبيهم، والموثقَ الذي أعطوه على أن يعودوا به، واستَحْضَروا مقدارَ ما سَيُصيبُ أباهم من حزن وألم، عندما يعلَمُ بما جرى، وبأنه فَقَدَ ابنَه الثاني....

تذكّروا كُلَّ هذا فحاولوا محاولَةً أخيرةً مع عزيز مصر: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[1].

استَرْحَموا العزيزَ، وَرَجَوْهُ واستَعْطَفُوهُ، وخاطَبوا إحسانَهُ وحُسْنَ إكرامِهِ لهم، وطَلَبوا منه أن يرحَم أباهُ الشيخَ الكبيرَ الذي سَيَذوبُ هَمّاً وحُزْناً على فِرَاقِ ابنه، وإنه قد لا يَتَحَمَّلُ سماعَ مِثْلِ هذا الخَبَرِ المُفْجِعِ!

وعرضوا عليه عَرْضاً رحيماً: أن يُطْلِقَ سراحَ هذا الابنَ الأثيرَ عند أبيه، وأن يأخذَ أحدَ الإخوةِ الكبارِ العشرة مكانه، وأن يكون عبداً عنده مكانه.

وكانوا صادقين في الاسترحام، جادين في العرض.

لكن عزيزَ مصر يوسفَ عليه السلام رفض هذا العرض قائلاً: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

---

(١) يوسف: ٨، .

(٢) يوسف: ٧٩.

الألوكة
www.alukah.net

وأن التعبير القرآني دقيق: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

لم يصّرحْ يوسف عليه السلام بأن ذلك الأخَ الصغيرَ سرق، لأنه ليس سارقاً في الحقيقة، ولو قال يوسفُ: لن نأخذَ إلا من سَرَقَ، لكان في هذا ظالماً للشاب. ولهذا اختار جملة تناسب الحالة: ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لقد وجدوا صواعَ الملك في رَحْلِ هذا الشاب، واستخرجوه ثم عاقبوا الشاب. هذا كل ما في الأمر(١).

أحمد: إذن فَشِلَ الإخوةُ في الاسترحام والرجاء، بعدما أَصَرَّ يوسفُ عليه السلام على أخذ الأخ الذي وَجَدَ المتاعَ عنده.

الأم: نعم، وهكذا احتفظ يوسف بأخيه الصغير، وغادر الإخوةُ العشرةُ المكان، ليفكروا في الخطوات التالية.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾(٢).

ولما يَئِسَ الأخوةُ العشرةُ، ذهبوا إلى لقاء خاص، واجتماعٍ مُغْلَقٍ لهم، انعزلوا فيه عن الآخرين، فكان لقاؤهم خالصاً لهم، لم يشاركهم فيه أَحَدٌ غيرهم. وجلسوا يتناجون ويتشاورون ويتحادثون، ويفكّرون في ماذا سيفعلون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو الأخ الأكبر، لا نعرف اسمه، قال كبيرهم: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾؟

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) يوسف: ٨٠ ـ ٨٢.

الألوكة
www.alukah.net

ذَكَّرَهُم بالعهد والميثاق الذي أَخَذَهُ عليهم أبوهم، عندما أذن لهم باصطحاب أخيهم معهم. فكيف يعودون إلى أبيهم بدون أخيهم؟ وماذا سيقولون له عندما سيسألهم عنه؟

وذَكَّرَهم بأَسْبَقِيَّتِهم السابقة مع يوسف: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾. وكأنه يقول لهم: أنتم مُتَّهَمون عند أبيكم، وهو شاكٌّ فيكم، لقد أخذْتم يوسفَ من قبلُ وفَرَّطتُم فيه، والآن فَقَدْتُم أخاكم الآخر، رغم موثقكم لأبيكم! فماذا ستفعلون مع أبيكم؟ أما أنا فلا أقدر على مواجهة أبي بعد الذي جرى. ولهذا أنا باقٍ هنا؛ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ويبدو أن الأخَ الكبيرَ كان أنضجَ الإخوة، ولم يكن موافقاً لهم في كل ما يَعْمَلون، فقد رأينا له تَحَفُّظاً على اقتراحِهِمْ بِقَتْلِ يوسفَ، حيث أشار عليهم بإلقائه في غَيَابَةِ الجبِّ، والآن ـ وقد صار أَنْضَجَ فكراً وعقلاً ـ يُقَرِّرُ أن يبقى في أرض مصر، لا يَبْرَحَها ولا يغادرَها، ينتظرُ الإذْنَ من أبيه، أو الحكمَ والفرجَ من الله، بأن يفرّجَ هذا الكرب.

وأمر الأخ الكبير إخوتَهُ التسعةَ بأخذ أَحْمالهم وجِمالهم، والعودةِ إلى أبيهم، وإخباره بتفاصيل ما جرى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

---

(١) يوسف: ٨١ ـ ٨٢.

الألوكة
www.alukah.net

هذا ما لقّنه أخوهم الكبير لهم ليقولوه إلى أبيهم[1].

عادوا إلى أبيهم وأخبروه بما حدث بالضَّبط، ولكنَّه لم يصدّقهم ـ كما توقّعوا ـ فأقسموا أنهم صادقون وقالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2].

جميل: وهل كانوا يسخرون مِنْ أبيهم؟ كيف يسأل القريةَ أو الجِمالَ؟ هل هكذا يتكلَّم الأبناءُ مع أبيهم؟

الأم: لا، لا، ليس الأمر كما فَهِمْتَ. هم لم يَسْخَروا إطْلاقاً مِن أبيهم، بل كانوا يحبّونه ويحترمونه. ولكنّ كلامَهُم تَعْبيرٌ مجازيٌّ، يقصِدون به أهلَ القرية، ورفاقَهم في الرحلة، الذين كانوا يركبون الجمال، وهذا أقربُ إلى الحقيقة.

سامي: وهل صدَّقَهم أبوهم؟

الأم: وكيف يُصدِّقهم، فلقد كانت لهم سابقةٌ في الكَذِب عليه عندما أخذوا منه يوسف وضيَّعوه. والمثلُ يقول: «الكذّاب لا يُصدَّق ولو قال الحق». لهذا قال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾[3].

أحمد: هذا جميل، بالرَّغم مِن حُزنه على ابنه الصغير، رأى بصيصَ أملٍ الاجتماع بهم مرةً ثانية.

الأم: هذا هو الصَّبرُ الجميلُ، الذي لا يكون فيه شكوى، بل يَتْبَعُهُ أملٌ في الفَرَج القريبِ تَصديقاً لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾[4]، بعد ذلك ترك أولاده وانفرد بنفسه وقال: ﴿قَالَ بَلْ

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢١٥.
(٢) يوسف: ٨٢.
(٣) يوسف: ٨٣.
(٤) الشرح: ٥، ٦.

الألوكة
www.alukah.net

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1].

أحمد: كيف يقول هذا الكلامَ وهو نَبِيّ؟ لماذا لم يَقُلْ إنا لله وإنّا إليه راجعون، ٱمْتِثالاً لقول الله تعالى!؟

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[2]؟

الأم: لأن الاسترْجاعَ لم يُعطَ إلا لهذه الأمةِ، أمَّةِ مُحمدٍ عليه الصلاة والسلام.

وأكملتِ السردَ: ولِشِدَّة حُزنِ سَيِّدنا يعقوبَ ٱبْيَضَّتْ عيناهُ. شعر أبناءُ يعقوبَ بالحُزن على أبيهم، والغَضَبِ من تذكّره الدائم ليوسف، فقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾[3].

إنك لا تزال تذكرُ يوسفَ! ولا تَفْتَرُ ولا تَتَوَقَّفُ عن ذكر يوسف!! ولا تملُّ من تَذَكُّرِ يوسف! وأنت مَوْهومٌ حالمٌ مُتَخَيِّلٌ! ما زلتَ تَظُنُّ أن يوسفَ حيٌّ! مع أنه مات منذ سنوات، ولن يعود!! إنس يوسف، ولا تُتْعِبْ نفسَك باستمرار تَذَكُّرِهِ.

إن لم تكنْ واقعياً، وإنْ لم تنسَ يوسفَ، وإن بَقيتَ دائم الذِّكْرِ له، فستكونَ حَرَضاً، وَتَمْرَضَ مرضاً مُلازِماً، سَيَقْضي عليكَ وستهلَكُ وتبيدُ!

---

(١) يوسف: ٨٣ ـ ٨٦.

(٢) البقرة: ١٥٦.

(٣) يوسف: ٨٥.

الألوكة
www.alukah.net

أحمد: أهكذا يخاطبُ الأبناءُ الكبارُ أباهُم المفجوعَ؟ أبِهذا القبحِ المستقبَحِ يُخاطِبونَهُ: أبهذه الغِلْظَةِ والجَلَافَةِ يُعامِلونه؟

لقد حقّ له إذن أن يعتزلهم، وأن لا يخبرهم بما يعانيه، وأن يكظم أحزانه وآلامه، ولو أثّرت على أعصابه وحواسه!!

قال الإمام الراغب في معنى كظم: «الكظم: مخرج النفس: والكظوم: انحباس النفس. ويعبّر به عن السكوت. كقولهم: فلان لا يتنفس إذا وصف بالمبالغة في السكوت.

وكظم الغيظ: حبسه».

فمعنى «كظيم»: أنه حبس آلامه وأحزانه داخله، ولم يخرجها، لعدم وجود مشاركين مواسين له.

وقال الإمام الراغب في معنى «حَرَض»: «الحرض: ما لا يعتد به، ولا خير فيه. ولذلك يقال لما أشرفَ على الهلاك: حَرِض.

قال الشاعر:

إني امرؤٌ نابني همٌّ فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم»[1]

تألم الأب المحزون لما سمعه من لوم وتقريع أبنائه، حيث لم يرحموا شيخوخته، ولم يحترموا آلامه، وبذلك ازدادت همومه وأحزانه، وازداد هو كظماً وحبساً واختزاناً لها.

ورد على عذل لوم أبنائه قائلاً: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾.

أخبرهم أنه لا يشكو همّه ومصيبته وحزنه لهم، لا يستحق حتى مجرد التفكير فيه!

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٢١.

الألوكة
www.alukah.net

قال الراغب في معنى البَثّ: «أصل البث: التفريق وإثارة الشيء، كبث الريح التراب. وبث النفس: ما انطوت عليه من الغم والسر. يقال: بثثته، فانبث.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: غمي الذي أبثّه عن كتمان». إنني أكتم همي وغمي عنكم، لأنكم لا تشاركونني فيه، ولا أشكو إلا الله، ولا أخبر إلا الله بهمي وغمي وبثي وحزني.

وإنني أعلم من الله ما لا تعلمون، فإنني يحركني شيء ما في كياني، وهو من الله ربي، وهذا الشيء يملؤني يقيناً بأن يوسف موجود[1]....

لم يكونوا يعتقدون إطلاقاً بإمكان لقائهم بيوسف، وكيف يكون هذا وهم رَمَوْهُ بأيديهم في البئر، لقد نزعوا من رؤوسِهِم فكرةَ رجوع يوسُفَ، بعكس الأبِ الذي كان ينتظِرُ تأويلَ رؤيا ٱبْنِهِ، التي كانت بدايةَ القصةِ.

بعد ذلك طلب منهم أن يذهبوا ويتحسسوا أخبار أخويهم يوسف وأخيه ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾[2] ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾[3] ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[4].

سامي: وهل أطاعوا أباهم؟

الأم: طبعاً، فوضْعُهم صار حَرِجاً، ومصداقيتُهُم على المِحَكّ، فلو لم يهتمّوا لاعتقَدَ الأبُ أَنَّ أَوْلاده ضَيَّعوا أخوَيْهم، وهم يريدون أيضاً راحة أبيهم، خصوصاً بعد أن رَأَوا كيف أن الحزن أعماه، فهذه المصيبةُ

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.
يوسف: ٨٨ ـ ٩٣.

(٢) تحسسوا: ابحثوا بمحبة.

(٣) روح الله: رحمة الله، نضرة الله.

(٤) يوسف: ٨٧.

الألوكة
www.alukah.net

أصابتْهم في الصّميم لهذا جهّزوا أنفسهم بما تبقّى لديهم من بِضاعة مُزجاة، أي: غَيرِ جيدةٍ.

توجّه الإخوةُ التسعةُ من جنوب فلسطين إلى مِصر للمرة الثالثة، ومعهم بعضُ البضائع ليشتروا بها حبوباً أخرى.

ولكنهم هذه المرة ذاهبون بمَهَمَّةٍ أكبَرَ من التموين وشراءِ الحبوبِ إنها مَهَمَّةُ البحثِ عن يوسف وأخيه، حيث غَرَسَ فيهم أبوهم هذا الأمل، عندما قال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾.

فهم الآن مُهَيَّؤون نَفْسِيّاً وشعورياً للقاء يوسف، بل هم راغبون في لقائه، وسيتحسّسون مصر وما فيها ليجدوه، ويجتمعوا به، ودخلوا مصر، واجتمعوا مع عزيز مصر، الذي اجتمعوا معه مرتين من قبل، وكان بينهم ما عَرَضَتْهُ آياتُ هذا المشهد.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾[1].

تسجِّلُ آياتُ هذا المشهدِ اللقاءَ المثيرَ بين الإخوةِ وبين يوسف.

فقد دخلوا على عزيز مصر، الذي دخلوا عليه مرتين من قبل، ونحن

(١) يوسُف: ٨٨ ـ ٩٣.

الألوكة
www.alukah.net

نعلم من هو عزيز مصر في الحقيقة، إنه يوسفُ عليه السلام أما هم فلا يعلمون. إنهم يدخلون عليه ويكلمونه، ولا يفكرون أن يكون هو يوسف، ولا يضعون لهذا أدنى نسبة احتمال، ولكن هذه المرّة أرادوا بدخولهم أن يَتَحَسّسوا عن يوسفَ عند عزيزِ مصرَ، أما عزيزُ مصرَ فقد لاحظ عليهم هذه المرةَ ما آلَمَهُ وأحْزَنَهُ، لقد أَثَّرت فيهِمُ السفراتُ الثلاثُ المتتابعةُ، كما أَثَّرَ فيهم الجَدْبُ والفَقْرُ، بدا كل هذا على ملامِحِهِم وأشكالِهم، وعلى كلماتِهم وتعبيراتِهم، ولاحظ يوسفُ عليه السلام هذا على إخوته، وهو الحصيفُ البصيرُ، فآلَمَهُ وأحزَنَهُ!

ولما كَلَّموه أحسَّ من كلامِهم الانكسارَ والضعفَ، ولمّا اسْتَرْحَموهُ لَمَسَ فيهم مزيداً من المرارةِ والشكوى، علمَ يوسف عليه السلام من كلامِهِم أنّ الضُرَّ قد بَلَغَ منهم ومن أهلهم ما بَلَغَ، ضُرٌّ في الأبدان والنفوسِ والحياة.

ونَفَذَتْ بضائعُهُمْ، وقَلَّتْ أموالُهُم، والآن جاءوا «ببضاعة مزجاة» مخلوطة رديئة ليشتروا بها الحبوب، حيث لم تَبْقَ لهم بضاعةٌ جيدةٌ ثمينة.

وهم الآن يَسْتَرْحِمونَ عزيزَ مِصْرَ ويستعطفونه، ويرجونه أن يقبلَ هذه البضاعةَ الرديئةَ، وأن يبيعَهم بها الحبوب، ولو لم تكن مناسبة: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾، وبعد أن لاحظ يوسف على إخوته كل هذا، ولمس منهم كل هذا، ووقف على مقدار الضُّرِّ الذي أصابَ أهلَهُ، أيقَنَ أنه آن الأوانُ أن يَكْشِفَ لهم عن شخصيَّتِهِ الحقيقيَّةِ، وأن يتوقَّفَ عن التَّخَفِّي وراءَ شخصيةِ عزيز مصر!!

آن الأوانُ أن يُفاجئَهُم بالمفاجأة التي لا تخطر لهم على بال. إن عزيز مصر هو يوسف، وهو الذي تآمروا عليه وهو صغير، فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ استحضروا الماضي البعيد، وهذه المرة، سمعوا كلام عزيز مصر بأذن جديدة، إنها الأذن التي تتحسس يوسف.... سمعوا: كأنها نبرة يوسف! عندها سألوا عزيزَ مصرَ وكلهم دهشة ومفاجأة وإثارة وانبهار: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

الألوكة
www.alukah.net

وهو سؤال يحمل كل معاني المفاجأة والدهشة: أإنك لأنت؟! أنت يوسف!! أنت، عزيزُ مصر، يوسف؟!

وأسرع يوسف بالإجابة على سؤالهم ليُريحَ أعصابَهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾، وأشار إلى أخيه الذي أخذه بتهمة السرقة ليكون عبداً له في الظاهر، مع أنه معزَّزٌ مكرَّمٌ عند أخيه، والآن يعلمون أنه ليس عبداً للعزيز، ولكنه أثيرٌ عند الأخ العزيز!

ويعلنُ لهم أنّ الله قد مَنّ عليه وعلى أخيه: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ وهو يتقلّبُ في مِنَنِ الله ونِعَمِهِ وعطاياه، بحيث أوصلَهُ ربُّه إلى مَنْصَبِ الحاكِمِ الأولِ لمصر[1]!

ويجعلُها يوسف عليه السلام مناسبة لتقرير حقيقة إيمانية، يعلّلُ بها لإخوته المشدوهين السبب في إنعام الله عليه، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، عندها قال إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ اعترفوا له بأن الله آثره عليهم وفضَّله عليهم، وأعطاه ومَنَحَهُ أكثرَ ممّا أعطاهم ومنحهم، فهو أفضلُ منهم عند الله، لما يتمتّع به من تقوى وصبر وإحسان وحلم وصفح.

واعترفوا له بخطئهم، وأقرّوا بذَنْبِهم وجريمَتِهم، وأعلنوا أنهم كانوا خاطئين في كيدهم ومؤامرتهم وكذبهم... قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، يعلن يوسف عليه السلام أنه عفا عنهم، ويَدْعوهم إلى فتح صفحة جديدة للعَلاقة به، تخلو من الحِقْدِ والحَسَدِ واللُؤمِ، والمَكْرِ والكَيْدِ والتآمرِ، وتحكُمُها المحبةُ والمودةُ والأخوةُ.

إنه موقفٌ كريمٌ، لا يَقِفُهُ إلا رجلٌ مُحْسِنٌ كريمٌ، وإنه عَفُوٌّ وتسامُحٌ وصَفْحٌ لا يقدِرُ عليه إلا رجلٌ حليمٌ متسامحٌ.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

الألوكة
www.alukah.net

ويُضيفُ يوسفُ عليه السلام إلى هذا أن يدعُوَ اللَّهَ لإخوته كي يغفُرَ لهم ويعفُوَ عنهم: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وهكذا تمّ التعارفُ بين يوسفَ عزيزَ مصرَ وبين إخوته، واجتمَعَ شَمْلُ الإخوةِ الإثْنَيْ عَشَرَ في قصر سيِّدهم يوسفَ عزيزِ مصر[1].

وبعد أن أمضَوْا مع أخيهم أَمْرَهُمْ يوسفُ عليه السلام بالذهاب إلى أهلهم، وأَخْذِ قَميصِ يوسفَ عليه السلام لِيُلْقُوه على وَجْهِ أبيهم لِيَسْتَعيدَ بَصَرَهُ ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾، ومعنى فَصَلَتِ العيرُ، أي: لمّا اقتربَتْ من مكان إقامَةِ أهلهم، انفَصَلوا عن الطّريقِ العامِ إلى الطريق الآخَرِ الموصِلِ إلى أَهْلِهِم. شَمَّ يعقوبُ عليه السلام ريحَ يوسفَ، قبل أن يَصِلَ أبناءه ومعهم القميص. ولا نحدّد المسافة، المهم أنَّ يعقوب عليه السلام شَمَّ رائحةَ قميصِ يوسف عليه السلام.

في هذا الجوِّ الذي جَعَلَ سَيّدنَا يعقوبَ عليه السلام يَشُمُّ رائحةَ يوسفَ، قالَ له أهلُهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾، أي: لا زلتَ تَذْكُرُ يوسفَ وأساؤوا له القولَ وكَلَّموه بِغِلْظَةٍ وَشِدَّةٍ وَقَسْوَةٍ، ولم يحترموا رأيَهُ ولم يراعوا شعوره[2].

وبعد قليل تقع المفاجأة، وَيَثْبُتُ للقَوْمِ أنَّ يعقوبَ عليه السلام ليس على ضلاله القديم، بل هو على حقٍّ واضح، فيوسفُ عليه السلام حيٌّ، وها هم الركب المسافرون يصلون، ومعهم قميص يوسف، وها هو البشير يُلْقي قميصَ يوسفَ على وَجْهِ يعقوبَ عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ وسُمِّيَ حاملُ القميص البشيرُ، لأنه يَحْمِلُ معه البشارةَ العظيمةَ السارةَ ليعقوب، البشارةَ العملية بوجود يوسف عليه السلام، والمتمثلة

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٣٤.

الألوكة
www.alukah.net

بقميص يوسف عليه السلام، ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ رَجِعَ بَصَرُ يعقوب عليه السلام، وعَوْدَةُ البصرِ ليعقوبَ عليه السلام معجزةٌ من الله، والذي أعادَ بَصَرَهُ هو الله، وقدّر الله أن يكون قميصُ يوسفَ هو الأداةُ والسببُ الماديُّ المباشرُ في ذلك[1].

فرح القومُ بعَوْدة بَصَرِ يعقوبَ عليه السلام، وزوالِ آلامِهِ وأحزانِهِ بالعثورِ على يوسف عليه السلام.

أخذ يعقوبُ عليه السلام أهلَهُ جميعاً، أبناءَهُ وعائلاتِهم، وخَدَمِهم وعبيدِهم ودوابِهم ومواشيهم، وأموالِهم وأغراضِهم... وسارَ الموكبُ الإيمانيُّ من جنوب فلسطين إلى مصر، ليستقرّوا جميعاً عند يوسف عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

وصل الموكبُ إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسف عليه السلام، وقَدِمَ يعقوبُ وامرأتُهُ على ابنهما يوسف، وَتَخَيّلْ كيف سيكون اللقاءُ بين الابن وأبيه، بعد غياب قسريٍّ استمرَّ سنوات عديدة، وكل واحد منهما عنده من الشوق لصاحبه كما عند الآخر!

آوى يوسف أباه وأمه أحسن إيواء، وأكرمهما أحسن إكرام وأحلهما في أعلى منزلة.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٣٥.

(٢) يوسف: ٩٩ ـ ١٠١.

الألوكة
www.alukah.net

وهيأ لإخوته وأُسْرته أفضلَ الأماكن للإقامة، وهكذا اجتمع شملُ الأسرة، لكن في مصر وليس في بلدة النشأة فلسطين، وهكذا استقرَّ الأبُ والأمُ والأبناءُ والعائلاتُ في مصر...

وهكذا ارتحل أبناء يعقوب إلى مصر، وهكذا صار بنو إسرائيل في مصر، وهذه هي أول هجرة لبني إسرائيل، التي هي الحلقة الأولى في مسلسل الهجرات الذي صبغ تاريخهم كله[1].

وبعد ما زال عن الوالدين والإخوة وعثاء السفر، واستقروا في مصر حول يوسف عزيز مصر آن الأوان لتأويل رؤيا يوسف التي رآها وهو صغير: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

أكرم يوسف أباه وأمه، فرفعهما وأجلسهما على عرش الملك، وكرسي الوزارة بينما وقف إخوته الأحد عشر أمامه... وخرّ الجميع ساجدين له: الأبوان والإخوة.

سجدوا ليوسف عليه السلام، وهو أمامهم.

والظاهر أن سجودهم بين يديه كان سجوداً حقيقياً، وليس مجرد انحناء بين يديه، حيث قال تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ معنى ﴿خَرَّ﴾ أنه وقع على الأرض ولم يكن سجودُ الأبوين والإخوةِ سجودَ فالسجود لا يكون عبادةٍ، لا يكون إلا لله، إنما كان سجودُهم تكريماً منهم ليوسف.

ثم هم عندما سجدوا ليوسف كانوا مُنَفِّذين لأمر الله، لأن الله هو الذي أمرهم بالسجود، فسجدوا، فهم في الحقيقة كانوا ساجدين للَّه، وما يوسف إلا بمثابة قبلةٍ لهم في السجود لله!

وسجودُهم التكريميُّ ليوسفَ دليلٌ أنّ يوسفَ عليه السلام كان أفضلَ منهم

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني، الجزء الثاني، ص٢٤٠.

الألوكة
www.alukah.net

عند الله، وأَعْلى منزلةً وأَرْفع مكانَةً، ولعلَّ سجودَ يعقوبَ عليه السلام لابنه يوسفَ عليه السلام دليلٌ على أفضليَّةِ الابنِ هنا على أبيه!!!

ولما انتهى مشهَدُ سجودِهِم بين يديه أقبلِ يوسُفُ على أبيه قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾، وتأويل الرؤيا هو تحقيقٌ لما وَعَدَ الله يوسف عليه السلام، جعلها الله حقاً، حيث انطبقت على أرض الواقع.

وكان ختام هذه القصة هو دعاء سيدنا يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

وكما دائماً نذكر المبهمات، فإننا لا نعرف كل ما يتعلّقُ بعمر سيدنا يوسف حين وفاته وكيفية الوفاة، وتحديد مكان القبر الذي دُفن فيه. بل كل ما نعرفه أنّ الله بَعَثَ يوسفَ عليه السلام نبياً رسولاً إلى المصريين. وسنتعرّفُ لماذا انتظر المصريون وفاة يوسف عليه السلام بفارغ الصبر في قصة موسى عليه السلام.

نظرت الأم إلى أولادها المتأثرين بالقصة. وقالت: لقد انتهت القصة وصار بإمكانكم النوم بعد أن اطمأننتم على سيدنا يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته، وتصبحون على خير وأمان.

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم: د. يوسف المرعشلي	٥
تقديم: د. صلاح عبدالفتاح الخالدي	٧
تقديم: د. خالد الصمدي	١١
تعريف بالكتاب	١٥
أسلوب الكتاب	٢١
أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت	٢٣
المقدمة	٢٥
قصة رقم (١٠) نبيّا اللَّهِ إسماعيلُ ولوطٌ عليهما السلام	٣٣
سَيِّدُنا لوطٌ عليه السلام	٤٩
قصة رقم (١١) أنبيّاءُ اللَّهِ إسحاقُ ويعقوبُ ويوسفُ عليهم السلام	٦٥
سيِّدُنا يوسف عليه السلام	٨٣
قصة رقم (١٢) نبيّ اللَّهِ يوسف عليه السلام	٩٩
قصة رقم (١٣) سيدُنا يوسفُ عليه السلام (يوسفُ في السّجنِ)، (يوسف الداعية)	١٢٥
قصة رقم (١٤) يوسُفُ عليه السلام عزيزُ مِصرَ	١٤٩

* * * * * *

الألوكة
www.alukah.net